مكتبة

جلال برجس

معزوفة اليوم السابع

رواية

دار الشروق

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

معرفة
اليوم
السابع

مكتبة
t.me/soramnqraa

معزوفة اليوم السابع

جلال برجس

الطبعــة الأولى ٢٠٢٥

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

تصحيح لغوي: محمد صبري

رقــم الإيداع ٢٠٢٤/٣٢٥٣١

ISBN 978-977-09- 3947-5

© دار الشروق

٧ شــارع سيبويــه المصــري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

برجس، جلال،

معزوفة اليوم السابع / جلال برجس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٤

٣١٨ ص، ٢٠سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٩٤٧٥

رقم الإيداع ٢٠٢٤/٣٢٥٣١

١ - القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

جلال برجس

مكتبة
t.me/soramnqraa

معزوفة اليوم السابع

دار الشروق

«إلى كل الذين يؤمنون بأن الأمل لؤلؤة
يمكن انتزاعها من بطن الألم»

«كل شيء في البدء كان لنا: الهواء، والماء، والتراب، والأشجار، والطيور، والحيوانات، حتى نحن كنَّا لنا، إلا حينما شهدتُ المقايضةَ الأولى، وسمعتُ عن أولى المساومات، وجَرَت أول ملكية لواحد من أحفادي، فمضوا في ذلك الدرب، حينها رأيت بعضًا مما ستكون عليه سلالتي من مآلات مخيفة، سترون فيها القاتل يعود إلى بيته، يحمل طعامًا لأطفاله، يطوقهم بذراعين حانيتين، وحين يسألونه عن الدم الذي لا يزال على قميصه، سيقول: إنه خضاب وردة قطفتُها لأمكم وأنا في طريقي إلى هنا. سينام القاتل، ينام، مثله مثل أي أحد، وربما يرى أحلامًا وردية، وفي الصباح يتفقد سلاحه، هل هو في مكانه؟ ويمضي، يمضي من غير أن يدري هل جلدة وجهه قناع، أم أن هذا هو وجهه الحقيقي؟».

مخطوط الجد الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

في زمن ما

في زمنٍ ما، ضاقت قرية بأحد رجالها، لفرط ما تعاظمت فيها البغضاء، والحسد، والضغائن، بعد أن كان أهلها متحابين لا يفرق بين معظمهم إلا مشاغلهم اليومية. وما كان لتلك الحال أن تسوء لولا عدد قليل ممن قلوبهم سوداء كالفحم الذي إن مسَّ قماشًا أبيض لوثه. منذ أن نضج ذلك الرجل الطيب وهو لا يتورع عن نصح الناس، والإشارة إلى ما يمكن أن يفسد حياتهم. ورث الحكمة والرصانة عن أبيه، وعُرف بأخلاقه وعفته رغم فقره، صفات لم يضاهِه فيها أحد آنذاك. لكن حاله بفعل ذوي القلوب السوداء تبدَّلت على نحو غير متوقع، فمع مرور الزمن قلَّ محبوه، وكثر كارهوه، يضمرون له سوءًا وغيرة كادت أن تودي بحياته، فقد غرس أحدهم ذات ليلة سكينًا في ظهره، لكن الله نجاه مما سعى إليه قاتله، فشُفي بعد وقت من الرقاد في فراشه، تداويه راعية أغنام يتيمة بما ورثته عن أبيها من معرفة بشئون الأعشاب.

كان يمكن لذلك الرجل أن يبقى في القرية، ويقف في وجه أولئك الذين أضروا بالناس، فوُئدت طيبتهم، وتعرقل عيشهم،

إلا أنه رأى أباه في المنام يحثه على الرحيل سرًّا، والمسير جنوبًا لسبعة أيام، إلى أن يصل جبلًا يطلُّ على سهل واسع، أشجاره كثيرة، ومياهه عذبة، عليه أن يقيم فيه، لأن القرية ستفنى، ولن يكون هناك حياة إلا في تلك المنطقة.

لم يخبر الرجل أحدًا بنيته، إلا الفتاة اليتيمة التي لا أهل لها. قبيل طلوع الفجر كان قد تجاوز حدود القرية حين فوجئ بتلك الفتاة تلحق به، وتقرن مصيرها بمصيره، لما في قلبها من حب عارم له، وسئم من تلك القرية. مضيا في طريقهما، وتواريا عن الأنظار، ليس في جعبتيهما شيء سوى ناي ورثه الرجل عن أبيه، ولا يعرف عنه شيئًا غير أنه قُدَّ من شجرة نادرة، ونُذر لزمن قادم ليصدَّ البلاء، ولا مهمة له إلا الحفاظ عليه.

سارا لأيام، يَعبران سهولًا، وجبالًا، ووديانًا، لا يأكلان غير قليل مما يجدانه في طريقهما من طيور، وأرانب، وبعض الثمار، إلى أن وصلا ذلك السهل مع شروق الشمس، حيث بدا كل شيء حولهما بكرًا كأنه يُولد للتو: الأشجار باخضرارها الناصع، وحفيف أغصانها يتهادى إلى مسمعيهما واضحًا ونقيًّا، خرير الماء، وهو يتدفق من شق صخري، ويرسم له مجرى يروح إلى البعيد، باعثًا في الهواء رائحة تلاقيه بالتراب. كل شيء كان على نحو بدائي: نقيق الضفادع، زقزقة العصافير وتغريدها، ضغيب الأرانب، ضُباح الثعالب، عواء الذئاب، ثغاء الماعز، سليل الغزلان. كل شيء حولهما بدا لهما على ذلك النحو، حتى الهواء وهو يلفح جسديهما بخفة، وهما غارقان في الحيرة، والخوف، والتيه.

احتميا بكهف تظلل بوابته أشجار، وحشائش متشابكة، فغرقا في نوم عميق، استفاقا منه في اليوم التالي بلا أي إحساس بالزمن. حين وقفا على باب الكهف شعرا بأن تلك المساحات الممتدة شرق جبل ضخم، لا بُد أن تخبئ وراءها أشياء غير مفهومة، ومفاجآت مجهولة العواقب. في ذلك الصباح ابتعدا قليلًا، وراحا بتوجس يبحثان عما يأكلانه. كان جوعهما في أعلى درجاته، يرافقه حزن قادم من جرح غائر في الوجدان، وشعور بالغربة العميقة، والظلمة المطبقة، رغم بزوغ الشمس، وما يصدر عن الطبيعة من أصوات هي الجذر الأول للموسيقى.

حين لاذا بالكهف ليلًا، وصفير الريح يختلط بأصوات الهوام، وبأصوات أخرى يجهلونها، حدث القرب الأول هربًا من شعورهما المشوب بالخوف والوحشة. ليلتها احتضن الرجل المرأة، فداهمهما الدفء والسكينة، وأضحى الحب ملاذًا آمنًا أمام ما واجهاه في تلك الأيام الصعبة، لهذا رضيا بأن تكون تلك المنطقة مستقرًّا لهما، قرار تأكّد أكثر حين كبر بطن المرأة، معلنًا عن قُرب مجيء أول مولود سيرى النور في موطنهما الجديد. بعد تسعة أشهر، أنجبت المرأة ولدًا، وبعد عام أنجبت ولدًا آخر.

مرت السنين، وازداد عدد أفراد العائلة، نهارًا يطاردون الحيوانات، ويتسلقون الأشجار والصخور، ببهجة أصاب شيئًا منها الأب والأم، المنشغلان بما يُبقي العائلة على قيد الحياة. وفي الليل يأوون إلى النوم في كهفهم، تغمرهم السكينة والألفة

بانتظار نهار جديد، ينشغل الصغار فيه باللعب، بينما ينشغل الكبار بالعمل. في تلك الأيام جاءت امرأة ترافقها ابنتاها، قالت إنهن نجون من عاصفة أهلكت عددًا من القرى، فعاشت معهم، وتزوجت الفتاتان بشابين من أبناء ذلك الرجل، وصاروا جزءًا من العائلة التي كانت أول من قطن تلك المنطقة.

عَمَّر الرجل والمرأة كثيرًا، وقد تناسل أبناؤهما وأحفادهما، وصار لكل منهم جماعة تميل نفسه إليها، لكن الأمر مع تعاقب السنين تبدل عما كان في بدايته، إذ تخلقت بينهم بقعة كراهية سوداء، ظلت تتسع سعيًا لابتلاعهم، إلى أن اختلفوا على مرعى تعتاش عليه أغنامهم، فاحتكموا إلى الجد، وسُوّي الخلاف. بعد مرور سنين والبغضاء تتعاظم وتيرتها، تنازعوا على مصدر الماء، فتقاتلوا وسقط منهم قتلى وجرحى.

ليلة تلك الحادثة أخرج الجدُّ الناي من مخبئه، تمنى لحظتها لو أن بمقدوره استخدامه، رغم علمه أنه منذور لزمن قادم. كان بين يديه، يلامسه، والحزن يغمر روحه بضراوة. في تلك اللحظات حدث أمر مقلق، لم يعلم به أحد غيره، إذ تراءى له طيف من مستقبل سلالته البعيد، فجفل. ما رآه الجد مخيف جدًّا، إنها صورة لزمن لم يأتِ بعد، صورة يصعب استيعابها، الأمر الذي جعله لم يقترب من الناي إلا قليلًا، ففوجئ بصور أخرى أكثر إثارة لخشيته على سلالته، حينها راح يفكر فيما يمكن من سُبل تُجنبهم المهالك، بعد أن أمضى سنينًا من عمره يدلهم، ويُعلمهم، ويزجي لهم النصح.

صعد مرة إلى رأس الجبل هربًا من حزنه، وعاد في اليوم ذاته، لكنها غدت عادة يأنس لها، يذهب إلى هناك، يمضي أيامًا مختليًا بنفسه، زاهدًا حتى في الطعام. تلحق به زوجته أحيانًا، وفي أحيان أخرى تتركه لخلوته. في آخر سنوات عمره عاش الجد في كهف في رأس ذلك الجبل، يمضي نهاراته يحدق إلى بيوت أحفاده، ينصت لصوت الطبيعة تارة، وأخرى يتأمل الناي وهو بين يديه مثل وديعة لا يمكن التصرف بها، فيرى ما تخبئه الأيام، ويدوّن في رُقع جلدية نصائحه ورؤاه، رُقع لم يعرف عنها أحد، إلا زوجته، فقد أخبرها، في آخر أيامه، بما عكف عليه، وتعهدت بحفظه ما دامت على قيد الحياة. كان الجد ينظر من علوٍّ ذلك الجبل إلى سلالته، يفكر في القرية التي جاء منها قديمًا، وبموطنه الذي راح يكبر شيئًا فشيئًا، ويكبر معه بياضُ نوايا سكانه، وسوادُها في الآن نفسه. يفكر، والناي بين يديه، في علاقة الأصل بالصورة.

توقفت حياة الجد في الجبل، ودُفن هناك بناءً على وصيته، وما توقفت تلك البيوت عن التكاثر، وما تراجعت لغة الدم من أيام أحفاده. بعد قليل من السنين ماتت زوجته حزنًا عليه، وقد عهدت بما دوَّنه زوجها لأحد أحفادها الأكثر حرصًا، وأمانة، من دون أن تعرف شيئًا عن مصير الناي.

مر زمن، صارت بيوت الأحفاد قرية، والقرية بلدة، والبلدة مدينة صغيرة، والمدينة الصغيرة أصبحت مترامية الأطراف تحسب الأفق حدودها. هناك مَن يراها قسمين: واحد شمالي،

وآخر جنوبي. أما الآخرون فيرونها شطرين غير متساوِيَين، شطر شرقي، وشطر غربي، مع هذا أُطلق عليها اسم (مدينة الجد الأول)، مدينة مكونة من سبعة أحياء يتشابه بُنيان بعضها، ويختلف البعض الآخر. فيها حي يسكنه أناس بشرتهم سوداء، وفيها أحياء لمن بشرتهم بيضاء، وحي لمن تميل بشرته إلى الصفرة. إنها مدينة متنوعة، فيها الفقير، وفيها متوسط الحال، وفيها قلة من الأثرياء الذين يمتلكون أكثر من نصف ما يمتلكه سكان هذه المدينة التي يجوع فيها كثيرون، ويُقتلون لأجل أرخص المكاسب. فيها أحياء توشك على أن تلتحق بالأخرى الفقيرة، وأخرى تعيش حياة باذخة، تُثير غيرة مَن يراقبونها بحسرة ولوعة كبيرتين.

مع مرور الزمن وكثرة الصدامات بات كل حي منعزل عن الآخر، له عاداته وتقاليده وحياته الخاصة، وإدارته المحلية التي ترتبط بعمودية المدينة. في الأيام الأخيرة ازدادت محاولات الكثير من قاطني الأحياء الفقيرة بالانتقال إلى أحياء لا يرون الحياة فيها إلا على شاشات التلفاز، وعبر هواتفهم النقالة، كأنها الفردوس. لكن عددًا قليلًا من تلك المحاولات مُني بالنجاح، فهناك شرطة مهمتها طرد أولئك المهاجرين، كلما حاولوا الفرار من واقعهم البائس.

اتبع الناس في مدينة الجد الأول عدة ديانات، وأقاموا فيها بيوتًا للعبادة، وأضرحة لرموزهم، يزورونها باستمرار، إلا ضريح الجد الأول، الذي لم تؤكد أي جهة أنه ضريحه، لهذا

أُهمِل مع مرور الزمن، وبات مجرد كومة من الحجارة، حتى إن الناس تناقلوا حكاية قيل إنها حدثت قديمًا، لشبان صعدوا الجبل، واختفوا، وحين تبعهم آخرون للبحث عنهم، لم يعودوا. قيل أيضًا إن هناك من رأى مخلوقات غريبة تخرج في الليالي المقمرة، ترقص طوال الليل واقفة على رأس الجبل، لذلك لم يذهب أحد إلى هناك منذ ذلك الحين.

منذ عدة عقود أخذت المدينة تتبدل بتسارع غريب، حتى أسماء الأحياء استُبدلت بالأرقام، فنَسيها كثيرون، وفُقدت صورتها الأصلية. صار بعض سكانها لا يكترثون بالماضي، ولا يُلقون بالًا لا للحاضر، ولا للغد، أصبحت اهتماماتهم آنية، قصيرة العمر، غير مألوفة. وكأن لعنة حلّت على المدينة، أصيبَ عدد من أبنائها بأعراض غريبة في حواسهم، إذ تتشوّش رؤيتهم فجأة، وفي بعض الأوقات يفقدون السمع تمامًا. تفشل قدرتهم على الشم، واللمس، حالة اختلاط حسية ليس لحدوثها وقت معين. غير أن الأمر لم يتوقف عند هذه الأعراض فقط، إنما أصيبوا أيضًا بالكسل طويل الأمد، والبلاهة، واللامبالاة، والشراهة للطعام وللجنس، وأصبحوا سِمَانًا، يتحركون ببطء. داء سُمي باختلال الحواس، أعلنت عمودية المدينة عجزها عن فهمه، وإيجاد دواء له.

وجد ذلك الإعلان شكوكًا من البعض، في مدينة مَن ينظر إليها من علوِّ جبل الجد الأول فسيرى امتدادها الواسع، ويرى في جنوبها مُخَيمًا ضخمًا للغجر يقع على مساحة شاسعة أبعدتهم إليها عمودية المدينة على مراحل، فنشأ المخيم بلا شوارع،

ولا كهرباء، ولا أنابيب ماء، ولا مراكز صحية، ولا مدارس، غجر منبوذون، يسكن بعضهم إما في بيوت من الصفيح، وإما في بيوت متواضعة من الإسمنت، وأما معظمهم، فلم يجدوا خيارًا في المسكن إلا الخيام. كان الترحال الدائم سِمتهم الأشهر، لكنهم مع الأيام، وتراكم قسوتها، استقروا في ذلك المخيم الذي ما هو إلا ندبة في جبين مدينة الجد الأول، فالروائح الكريهة تمتد إليهم من منطقة تفصل بين المخيم وبين المدينة، منطقة شاسعة تحولت إلى مقبرة للنفايات الكيماوية والصناعية، والقمامة، وغدت حدودًا تفصل المخيم عن المدينة، وتعكر صفو لحظات يبتكرونها ضد كل ما لحق بهم من شقاء، وأمراض أدت إليها تلك النفايات، وما يصدر عنها. كارثة بدت كيدية، لا يرى مُدبروها في الغجر سوى حمولة بشرية فائضة يجب أن تنقرض. في مخيم الغجر مجرمون، وقُطاع طرق، ولصوص، وقَوَّادون، ونشّالون، وفيهم أناس طيبون يتوقون للحياة، لكنهم ممنوعون من دخول المدينة، إلا العاهرات اللواتي يعملن في دور الدعارة، وفي الحانات الليلية، والمرضى الذين يحتاجون لعمليات جراحية، والقلة ممن عُينوا عُمال نظافة، مع هذا فإنهم يتسللون إليها، رغم تعرضهم للمطاردة، والسجن، إذ يتسول بعضهم في أحيائها، وينفذ بعضٌ آخر عمليات سرقة خاطفة. أما الآخرون فقد احترف بعضهم مِهَنًا انقرضت منذ مئات السنين.

قبل أن تلفظهم مدينة الجد الأول كان الغجر يتنقلون بين أحيائها، يُصلحون الأواني، ويقرؤون الطالع، ويبيعون الآلات

الموسيقية، وبعض الأدوات المنزلية التي يصنعونها بطُرق تقليدية. ينصبون خيام السيرك في الأحياء، يشيعون البهجة وهم يمشون على حبال مشدودة، ويلاعبون قرودًا، وكلابًا، وطيورًا مُدربة. كانوا أناسًا مختلفين، يحافظون على شغفهم بالترحال، وتلك العلاقات القصيرة مع الناس.

تضخمت المدينة من دون أن يعلموا أنهم سيُطردون منها، وتتلاشى مصادر رزقهم إلا من محال قليلة يأتي إليها فقراء المدينة لإصلاح سياراتهم بأجور زهيدة، ومن صناعة بعض الأدوات التي يستخدمها بعض حرفيي المدينة، وصناعة الآلات الموسيقية، والحُلي، والسحر الذي برع فيه كثير من الغجر. مع هذا فإن حياتهم مليئة بشقاء لا يهون من سياطه إلا الموسيقى التي تئنُّ أرواحهم بفعل تأثيرها الحاد، وتصبح أجسادهم مثل عهن يحمله هواء خفيف. يحدث هذا عندما يصلون إلى الدرجة القصوى من الانفصال عما بهم من وجع كامن، لهذا، منذ أول الصيف، حتى أوائل الخريف، تتسع ساحات الرقص في المخيم، في بعض نهايات الأسبوع، لفتيات غجريات، ممشوقات القوام، وتدور الكؤوس بين الندامى. مرح لا يُقام في حفلات الزواج فقط، إنما يتحينون الفرصة لأي حدث ليحتفلوا، فتصدح الكمنجات بألحان مُترعة بالشجن، لعازفين جُنّوا بالموسيقى، مثل أشهرهم «باختو»، الذي يكنى بـ«العاقل المجنون».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

«لستم إلا أرواحًا، إن فارقت أجسادَكم، أو شُوّهت، ففي الحالتين أنتم في طريق تغادر بكم الحياة. القماش الأبيض لن يغدو أبيض إن مسَّه الرماد، والقماش الأسود لن يغدو أسود بالكامل إن لامسه البياض. أرواحكم مخلوق عليٌّ، أبديٌّ، فلا تخفضوها».

مخطوط الجد الأول

١

عند السادسة صباحًا، غادرت توليب شقتها التي تقع في الحي الثاني، ذاهبة إلى الحي الرابع، حيث تعمل في منظمة تُعنى بالأطفال ضحايا النزاعات الأهلية. تحت مظلة نُصبت على طرف الشارع لانتظار الحافلات، جلست على مقعد، وأرخت جانبًا حقيبة صغيرة تحتفظ فيها بكاميرا ذات تقنيات متطورة، وراحت تراقب في تلك اللحظات التي يسودها السكون العددَ القليل من المارة والسيارات، تبحث كعادتها اليومية عن لقطة استثنائية كمصورة احترفت هذه المهنة مؤخرًا، لكن وجوه الناس كانت خالية من أي تعبير يمكن أن تضمه صورة تحلم بها.

أخرجت الكاميرا من حقيبتها، والتقطت صورة لعصفور يقف على غصن إحدى أشجار القيقب، ثم حين تأملتها، وجدت أنها خالية من أي بُعد فني، أو أي تفصيل يميزها أو يُشعرها بذلك الإيقاع الخفي الذي يمكن أن توحي به صورة استثنائية. تميل توليب إلى وجوه الوحيدين، والمشروخة أرواحهم، تميل حتى إلى الشروخ في الجدران، وما تدوسه أقدام المارة من ورود،

وحشائش، فتحاول إسنادها. تلتقط صورًا لكل شيء يلامس منطقة في ذاكرتها التي يقف فيها قبالة آلامها شعور بالنقمة على كل مَن تسبّب بمذبحة وقعت قديمًا في الحي الثاني.

أغلقت عدسة الكاميرا، وأرخت رأسها على مسند كرسي الانتظار، تراقب زرقة السماء، بينما كانت الشمس تشرق للتو. تمتمت في سرها **لقد بلغتُ التاسعة والعشرين إذن**. تذكرت ذلك اليوم الذي أتت فيه إلى محطة الانتظار ذاتها، وجلست على المقعد ذاته، في الساعة ذاتها، إذ سمعت آنذاك موسيقى إحدى أغنيات «نوَّار»، فرأت شابًّا عشرينيًّا نحيلًا، طويل القامة، حنطي البشرة، يهبط شعره المتماوج على كتفيه. يرتدي بنطالًا من الكتان، وقميصًا موشى بالأحمر مفتوح الأزرار إلى منتصف صدره. في عنقه الطويلة عقد من أحجار متفاوتة الأشكال، والألوان، وعلى خاصرته هاتف نقّال تنطلق منه الموسيقى التي استرعت انتباهها. كان الشاب يكنس الشارع بطريقة لافتة، كأن المكنسة امرأة بين يديه، يراقصها بشغف كبير، يدفع بالمكنسة بخفة فريدة، ثم يُعيدها إليه بانسياب ساحر، ويقفز مع تصاعد وتيرة الموسيقى في الهواء، ثم يزجّ بحركة بهلوانية بما التقطته مكنسته من أوراق، وأعقاب سجائر، وعلب معدنية فارغة، إلى كيس بلاستيكي مفتوح الفوهة. يقفز من مكان إلى آخر، وعيناه تنظران في الفراغ بلذة عارمة.

لأول مرة ترى توليب إنسانًا تسلبه الموسيقى جاذبيته، فيبدو خفيفًا كما لو أنه سيطير. ولأول مرة ترى شخصًا غارقًا في عالم يستحيل على أحد غيره رؤيته. شعرت في تلك اللحظات النادرة

بما يمكن أن يشعر به غريق شاهدَ غريقًا ينجح في الوصول إلى الشاطئ. ما إن رأت ما يفعله ذلك الشاب حتى أحست بمطر يهطل في دواخلها، مطر هادئ، هادئ بلا ضجيج. حملت الكاميرا بعجالة، تسعى إلى القبض على لحظة وجدت أنها إحدى لحظات المنامات الجميلة، ثم التقطت للشاب صورًا بتتابع سريع. بدلت وضعية التصوير إلى خيار الفيديو، وصوَّبت عدسة الكاميرا نحوه، وراحت تسجل ما يحدث. جاء هاتف الشاب النقال بصوت نوَّار يغني ممتدحًا صباحًا تورق فيه الأشجار تكريمًا لحبيبته التي تمشي بين الحقول بتمهل أنثوي جميل، فدار حول نفسه، والمكنسة بيده مثل امرأة تحلق في الهواء، ويداها بيدَي مَن يراقصها.

وقف رجل تحت المظلة ينتظر الحافلة بتأفف، وامتعاض، رغم أنها تأتي في موعدها المحدد. نظر إلى توليب، ثم إلى الشاب، وأطلق ضحكة ساخرة: **هذا غجري مجنون، اسمه باختو، يعيش في مخيم الغجر. احذري جيدًا، إنهم خطيرون.** في تلك الأثناء كان باختو لا يزال يراقص المكنسة، إلى أن تلاشت الموسيقى، فألقى بهدوء لافت كيس القمامة في عربة معدنية تُدفع باليدين، وأخذ يتلفت حوله مبتسمًا. بات شخصًا آخر، غير ذلك الذي رقص بخفة متناهية، شخص مُغرق في التروي، حركاته البدنية هادئة جدًّا. **أي هدوء هذا، في مدينة تنتزع منك ما يجعلك على هذا النحو!** تمتمت توليب بصوت خفيض، وعيناها مُصوبتان على باختو، تحاول فهم ما ترى. لم تصعد إلى الحافلة حين اصطفت أمام

مظلة الانتظار، ولم تكترث بالرجل الذي بقي يلوح لها باستهزاء. قاومت رغبتها، وهي ترى باختو يتهيأ للمغادرة، بأن تتحدث إليه، كانت رغبة مدفوعة بأحاسيس مبهمة، رغم ما بينها وبين الناس من حاجز قديم، ورغم خشيتها من الغرباء.

حين حرك عربته إلى الأمام ومضى بخطوات مغرقة في التمهل، كانت توليب لا تزال تحدق إليه، تصارع حيرتها بين أن تمضي في طريقها، وبين رغبتها في اكتشاف سر ذلك الغجري الوسيم الذي يرتدي ملابس جميلة، وترتديه روح لم ترَ ما يشبه صفاتها العالية، بل حتى شعرت أنها أمام كائن غير بشري، قادم من خارج هذه المدينة التي كلما مضت السنين تتضخم أزماتها مُنبئة بانفجار مريع.

كاد باختو أن يختفي عند ناصية شارع فرعي حينما لحقت به توليب مسرعة، بينما الكاميرا وحقيبتها بيديها تتطوحان في الهواء. حين وصلت، وجدته واقفًا أمام متجر للآلات الموسيقية. أبطأت من خطواتها، وبقيت على بُعد أمتار منه، تنظر إليه وهو يتأمل من وراء زجاج واجهة المتجر كمنجةً بلون بُني لامع، يتأملها بتريث معنيّ بالتفاصيل. يبتسم، وعيناه كأنهما عدسة كاميرا، تَضيقان، وتتسعان. انتظرت أن يفرغ من انشغالٍ راقها، وهي تكابد أحاسيس أول اقتراب من شخص في حياتها، مدفوعة برغبة مبهمة.

نظر باختو في ساعة هاتفه النقال، ودفع عربته ببطء، ثم توقف عند رصيف تُظلله أشجار، ونباتات زينة. حمل قارورة ماء، وغسل

يديه بتروٍّ، ثم جففهما بعناية. أخرج كتابًا من صندوق جانبي في العربة، وورقة احتوت ساندويشة، وجلس على مقعد نُصب على الرصيف، يأكل ويقرأ في الآن نفسه، يمضغ ما في فمه ببطء، وعيناه تجوسان الكتاب بتركيز كبير. كان ذلك وقت استراحته من عمل يبذل فيه جهدًا، ودقة عالية، فما من حي عملَ فيه إلا وخلت الشوارع المعهود إليه بتنظيفها من القمامة. امتدحه كثيرون، رغم نعته بالجنون، ورغم عدم الاقتراب منه، خشية من الغجر الذين تكونت عبر الزمن عنهم صورة مُنفرة.

ما رأته توليب كان صادمًا لها، إذ إن هذا الشاب غريب، وآسر إلى الحد الذي جعلها تنتبذ مقعدًا على بُعد أمتار منه، وتصوب خلسة عدسة الكاميرا نحوه، فالتقطت له صورة أخرى، وحين كبَّرتها على شاشة الكاميرا، وجدته يقرأ كتابًا عن الموسيقى. لم يكن لها، أو لأي أحد أن يرى سلوك باختو، أو يفهمه على نحو عادي: غجري يكنس الشارع بأناقة كبيرة، على أنغام الموسيقى، ويراقص المكنسة، ويتحرك ببطء غير مفهوم الدوافع، ثم حين يستريح، ينظف يديه، ويستغرق بالقراءة وهو يأكل.

كادت توليب أن تُقلع عن فكرة حديثها مع باختو، لولا أنه صوّب إليها نظرة جانبية، فمشت نحوه بارتباك واضح، فهمَّ بدفع عربته إلى الأمام. عندما وقفت على مقربة منه لم تجد مَن رأته يراقص المكنسة، ويتصرف بهدوء فريد، ثم يقرأ باستغراق جميل، لقد استحال إلى نسخة أخرى. ما إن رآها قبالته حتى اكتسبت

ملامحه شراسة لم تكن توليب تدري أنها مفتعلة، كأنه قط أغلق عليه الباب، فتخلى عن وداعته. تذكرت ما قاله الرجل الذي صعد الحافلة، حينها تراجعت إلى الوراء، لكنها استعادت صورته وقد طبعت في ذاكرتها سريعًا. في تلك اللحظات الأكثر إرباكًا تقدمت نحوه مصابة بشيء من الطمأنينة. رمقها بنظرة قاسية، ثم مضى بعربته إلى الأمام، غير أنها وقفت أمامه بحزم لم تفعله من قبل، مما أجبره على التوقف. حدق إلى وجهها يتبين نيتها، فنادرًا ما يقترب منه أحد في هذه المدينة، وحين يمر الناس بقربه يترك بعضهم مسافة آمنة بينه وبينهم.

قالت توليب وهي تتأمل عينيه الجميلتين: **التقطتُ لك عددًا من الصور، وتسجيلًا قصيرًا، وأنت تراقص المكنسة.** تساءل باستغراب، واستنكار واضحَين: **لماذا؟** ثم أمال رأسه يمينًا، يتفرس ملامحها الجميلة، ويترقب إجابتها. داهمها خوف تعرف أثر ضرباته منذ الليلة التي فقدت فيها عائلتها في مذبحة الحي الثاني، لكن أمارات جديدة للاطمئنان اعترتها، قوَّضت محاولتها للتراجع عن الاقتراب منه. لم تُجبه سوى بابتسامة، وهدوء عفويين. لم تفعل ذلك عجزًا عن الكلام، إنما كانت لحظةً نادرة في حياتها، حاولت التقاطها لئلا تهرب منها. حرك عربته نحو اليمين، فقطعت عليه الطريق مرة أخرى، خاصة حين رأت في وجهه هدوءًا صافيًا. كاد باختو أن ينطق بكلمات اهتزت لها شفتاه، ففتحت توليب شاشة الكاميرا، ثم اقتربت منه أكثر، وراحت تطلعه على الصور. كان لا يزال يمسك

بمقبض العربة وينظر إلى الشاشة، وأصابع توليب البيضاء الناعمة تقلبها ببطء، ورائحة عطرها تسعى إليه بسلاسة، بينما ذراعه تحس بملمس ذراعها الطري. حين أطلعته على تسجيل التقطته له، بقيت عيناه على الشاشة، وفي وجهه نصف ابتسامة، ونصف قسوة، بينما توليب تتفرس وجهه، وتفكر في سِرها: **ما الذي أتى بي إلى هذا الشاب غريب الأطوار؟**

لم تكن توليب تعلم أنها وجدت تلك اليد التي توازي كفتَي ميزانها الداخلي، فقد قاست طوال سنين عمرها شعورين بعدم الاتزان: واحد بيولوجي، وآخر غير مفهوم يربك روحها. لأكثر من مرة داهمها الدُّوار، وجعلها تتهالك على أحد مقاعد الأرصفة، أو تسند جسدها إلى أي جدار قريب. وكانت إضافة لهذا الدُّوار تحس بأن ميزانًا في دواخلها ترجح كفته لجهة عبثية تنهكها. حين أخبرت طبيبها النفسي بتلك الأعراض، قال لها إن ما من دواء لها سوى تجاوُز كل شيء يُتعبها. لم تكن تعلم أن لكل مَن اختل ميزانه الداخلي يدٌ في مكان ما في هذه الحياة، لها أن تبدد تلك الفوضى بسلاسة غير معهودة، لهذا تساءلت عن سرِّ اندفاعها نحو ذلك الغريب. قالت على استحياء، والغجري لا يزال ينظر في شاشة الكاميرا، وقد اكتسى وجهه بسعادة غامرة: **هل تسمح لي باستخدام هذه الصور، وهذا التسجيل يا باختو؟** ما إن سمعها تنطق باسمه، حتى نظر إليها مباشرة هذه المرة، وبقي أسيرًا للحظة سهو لذيذة، ثم هزَّ رأسه مبتسمًا. شعر باختو بنوع طريف من الزهو العاطفي،

لأنها تعرف اسمه، ولأنها وجدت فيما يفعله أمرًا جميلًا، ولافتًا. شعر بالفرح لأنها لم تحتقره مثلما فعل الآخرون.

* * *

صعدت توليب إلى الحافلة، وجلست قرب إحدى نوافذها. كان الضياء في أوله خجولًا، يبدد على مهل عتمة تستلقي على بيوت ذات سقوف قرميدية، مائلة، وعلى الشوارع والأشجار التي تنمو على الأرصفة، وفي الحدائق المنزلية، في حي لكثرة أشجاره وحشائشه كان يسمى الحي الأخضر. راحت العصافير تدحر الصمت بزقزقاتها المتفاوتة، كأنه ليس ذلك الحي الذي شهد معارك أهلية ضحاياها العديد من سكانه.

بينما الحافلة تمضي في طريقها، ثمة صور أخذت تُضاءُ في مخيلة توليب، صور لرجال ملثمين راحوا يرفسون باب بيت عائلتها بأقدامهم إلى أن فتحوه. كانت في العاشرة من عمرها، ببنية نحيلة، ووجه متورد، وعينين جميلتين، لكنهما كعينَي غزالة تروحان باضطراب يمينًا وشمالًا، خشية من رصاصة الصياد، فقلبها يملؤه الرعب لما رأته من معارك دامية، نشبت على أساس ديني بين جماعتين في الحي. لم يتوقع أحد أن خلافًا بسيطًا يمكن أن يؤدي إلى كل ما جرى، إذ سخر شاب من طريقة أحد المنتمين لجماعة أخرى، في الصلاة، ثم اتسعت دائرة تراشق الكلمات، والاتهامات، والسخرية، وكأنهم ليسوا أولئك الذين أبصروا النور معًا. حدث ذلك على مرأى ومسمع

الجميع، من غير أن يحاول أحد تفادي بوادر الكارثة، إذ وُجد الشاب المُنتَقد فيما بعد مقتولًا، فاتُّهمت الجماعة الأخرى به. عند مساء اليوم نفسه قُتل شاب من الجماعة المقابلة انتقامًا، فتزايدت أعداد القتلى رميًا بالرصاص، وطعنًا بالسكاكين، وحرقًا بالنار. صار الناس ينامون ويستفيقون على صوت البنادق، والكراهية تملأ قلوبهم، وصارت كل جماعة تسعى إما لإبادة الجماعة الأخرى، وإما لتهجيرها.

لاحقت أصوات الرصاص، ومشاهد الجُثث الملقاة في الشوارع والطرقات، توليب في مناماتها، فغالبًا ما تصحو من نومها مفزوعة ترتعش بشدة. في إحدى الليالي استفاقت على صوت أيادٍ تضرب باب بيت عائلتها بقوة مفزعة. فرَّت من فراشها، وهرعت نحو طاولة في غرفة ينام فيها الجميع من باب الاحتياط، واختبأت تحتها غير ظاهرة بما يكفي لاكتشافها. رأت أقدام الرجال وهم يدخلون، ثم حين رفعت عينيها إلى الأعلى شاهدت وجوههم الملثمة. وقف والدها أمام زوجته التي طوَّقت بيديها بنتين وولدين، ملوحًا بخنجر قبالة خمسة رجال يحملون بنادق رشاشة، عرف أحدهم من طريقته في المشي، إذ كان يعاني من عرج خفيف. توقع الأب وبؤبؤاه يتراقصان في محجريهما ما سيفعله أولئك الرجال بعائلته، إذ يرى أن معظم المنتمين للجماعتين فقدوا الإحساس بالشفقة في غضون أشهر من الاقتتال، وأنهم ليسوا أولئك الذين كانوا يشربون القهوة معًا في حدائق بيوتهم، ويتبادلون أخبار الحي، ويُكركرون ضحكًا على نكات عابرة، لهذا أطلق صرخات، وتهديدات مرتبكة، تتقاطع

بتوسلات المرأة، وأنين صغارها المرعوبين، إنها فرصته الأخيرة في أن يحجب شبح الموت عن عائلته. وحين لم يجد نفعًا من صراخه اندفع نحوهم بخنجره، غير أن الرصاصة كانت أسرع منه، فسقط على الأرض ينتفض كنعجة حُزت رقبتها للتو، يلفظ أنفاسه الأخيرة. أطلقت المرأة وصغارها صراخًا مدويًا، حينها قذفت البنادق ما فيها من رصاص، وأردتهم قتلى. كانت توليب على مرمى خطوات من فوهات بنادقهم حين غادروا، مصابة بالرعب، والخرس، والرعاش، والدُّوار الفظيع، تحدّق بذهول طفولي إلى جُثث عائلتها، بينما يسعى إليها خيط دم ساخن، تفرع من بقعة دم كبيرة ترفل الجثث فيها بصمت جنائزي، لم يكسره سوى صوت الباب، والريح تدفعه أمامًا كلما عاد إلى مُستَقره، فيُصدر صريرًا يبعث على الوحشة، والفجيعة.

في صبيحة الليلة التي أُبيدت فيها عائلتها عثر عليها جندي من فِرق فض النزاع، وعهد بها إلى منظمة تأوي أطفالًا ما عاد لهم أهل، ولا مأوى. بقيت لسبع سنوات تعيش في دار رعاية تقوم عليها جهة محايدة، يتدبر شئونها متطوعون من مختلف أحياء المدينة. وحين انتهى النزاع الأهلي عاشت لثماني سنوات في كنف سيدة فقدت زوجها وابنها في نهار مشئوم من نهارات تلك المذبحة، إلا أن تلك السيدة ماتت حزنًا رغم تظاهرها بالتعافي من ذكرياتها المريرة. انتهت النزاعات التي خلّفت ضحايا كثر بين الجماعتين، وعاد السِّلمُ إلى الحي بعد تجربة موجعة، يتعجبون كيف بدأت في الأصل.

كانت بعض جدران بيت عائلة توليب مهدمة، مثله مثل كثير من بيوت الحي، بيت فارغ لا يصلح للعيش. دخلته مرتين بعد كل تلك السنين، الأولى بعد أن طلبت إدارة الحي أن يعود من هربوا من بيوتهم لأنهم ينوون ترميمها، والثانية حين أصبح صالحًا للسُّكنى، لكنها في الحالتين لم تستطع أن تصمّ آذان ذاكرتها عن صوت البنادق، وصراخ عائلتها، وهي تشعر به ككرة تتقافز بين جدران البيت، لهذا باعته واشترت واحدًا آخر، رغم ذكريات طفولتها الجميلة.

نشأ بين توليب وبين الناس حاجز كبير، فما عادت تثق بهم رغم عملها التطوعي. كانت تقول لطبيبها إنها تشعر حيالهم بخوف جعلها تؤمِّن باب شقتها ونوافذها بجهاز إنذار متطور رغم أن النزاعات باتت مجرد ذكرى أليمة.

إنها فتاة وحيدة، لا صديقات وأصدقاء لها. في النهار تمضي ثماني ساعات في عملها متنقلة بين بعض أحياء المدينة، مصطحبة معها الكاميرا سعيًا إلى صورتها الحلم. وفي المساء تمضي ليلها الذي ينتهي عند الحادية عشرة بمتابعة نشرات الأخبار، وقراءة الصحف عبر حاسوبها، وفي مطالعة كتب تُحلل واقع المدينة، إضافة إلى سِيَر كثير ممن سعوا إلى تطبيق العدالة، إذ تكونت لديها، في غضون سنوات، وجهة نظر عميقة حول ما يجري في الحي الثاني، بل حتى غدت تعرف بعض خفايا المدينة كلها.

٢

عند غروب الشمس، كان باختو في طريق عودته من المدينة إلى مخيم الغجر، يدفع بعربته التي احتوت على خبز، وقليل من الخضار لأجل عائلته. شعر بحاجة للتبول، فسار وهو يتجه بعربته نحو أشجار متشابكة على طرف شارع كان شبه معتم إلى أن توارى فيها. سمع في تلك اللحظات صوت سيارة في أقصى سرعتها، وحين نظر من بين الأغصان، وجد سيارة أخرى تطاردها باندفاع جنوني. إلا أن السيارة انقلبت، وارتطمت بها التي كانت تطاردها. في تلك اللحظة تناهى إلى سمعه صوت ارتطام شيء على مقربة منه. كانت لحظة مربكة، فالحادث مروع لا يمكن لغجري أن يفعل شيئًا حياله، خاصة أنه نجمَ عن مطاردة خطيرة لأشخاص مجهولين، فلو ظهر باختو في مكان الحادث ربما يجر عليه ظهوره ما هو بغنى عنه. مع هذا رأى أن بقاءه مختبئًا ربما يحرم أحد المصابين فرصة النجاة من الموت. لم يكن هناك صوت سوى طقطقة قادمة من جهة السيارتين المنقلبتين، وحفيف العشب تحت قدميه وهو يُغالب حيرته.

كاد باختو أن يهرع إلى مكان الحادث لولا أنه سمع زعيق سيارات الإسعاف والشرطة قادمين من بعيد. دفع عربته مسرعًا ليغادر المكان، لكنه تذكّر ما سقط قربه، فتوقف يفتش عنه، إلى أن وجد صندوقًا خشبيًّا متوسط الحجم. تلفَّت حوله ولم يجد أحدًا يمكن أن يراه، فحمله بيدين مرتعشتين، ووضعه في العربة، وأسرع من خطواته، سالكًا طريقًا فرعية معتمة نحو مخيم الغجر، بينما أخذت سيارات الإسعاف والشرطة تقتربان من مكان الحادث الذي لم ينجُ منه أحد.

في طريقه وهو في خضم ذهوله من الحادث، ولومه لنفسه على العودة بذلك الصندوق، خطر بباله احتمال واحد لا غير، هو أن ما بحوزته مال يمكن له أن ينقذه هو وعائلته من فقرهم المدقع. لم يفكر هكذا من قبل، ولم يتوقع أن يتحول إلى لص في لحظة مباغتة مثل تلك. بعد أن مضى في الطريق التي تمر بين أكوام القمامة، وتؤدي إلى المخيم، وما إن تجاوز حدود المدينة وبات في مأمن عمن يمكن أن يراه، أشعل مصباح هاتفه النقال، فوجده صندوقًا صنع من الخشب الفاخر، عثر فيه على ما لم يتوقعه.

* * *

رأى باختو منامًا غريبًا، يقف فيه عاريًا على قبر الجد الأول، بقامته الطويلة، وجسده النحيل، وشعره الطويل المبعثر، يطل على المدينة من رأس جبل الجد الأول. يرتفع القمر إلى ما قبل منتصف

السماء، لا نجوم حوله، وهو يرشق الأفق بلون يميل إلى الزرقة. الهواء ساكن وطري. السكون والسكينة يرسلان روحهما الفياضة إلى كل شيء. بين يديه ناي عتيق، لم يرَ مثيلًا له. يرفع الناي بتمهل نحو فمه، وينفخ فيه، فيعزف لحنًا يصيبه بلذة غير معهودة، لا تشبه لذة الجنس التي جربها لمرة واحدة مع إحدى الغجريات، ولا تشبه وقع البهجة، أو النشوة، لذة قريبة من الإحساس العميق بالسكينة في مكان لا وجود فيه للألم. كان يعزف وتلك اللذة تسري في روحه، إلى أن فرَّت من صدره طيور بيضاء بين عينَي كل واحد منها نقطة زرقاء مضيئة، هرعت نحو القمر، وتماهت به، كأنها تعود إلى مخدع البدايات.

حينما استفاق من نومه بقي باختو ساكنًا في فراشه، عيناه مصوبتان نحو سقف الخيمة، أسيرًا لتلك اللذة الجارفة، والشعور الغامر بسكينة تضمخ روحه بإمعان كبير. حين اضطجع على جنبه، وجد أنه يرى كل شيء بفائض من المحبة لم تعتره قبل ذلك المنام، كما لو أن يدًا تكفلت بتصويب رؤيته. راقب مساحة الخيمة التي لم تحفل إلا بشعاعٍ باهت لفانوس معلق بعَمودها الأوسط، يلقي على جنباتها ظلالًا عشوائية، بدت وهي تهتز كأنها كائنات خرافية جاءت للتو من عمق ذلك الليل الغزير. أسند رأسه بيده، بعد أن غرس كوعه في الوسادة، يفكر في أمر ذلك المنام الذي تمنى لو أنه لم ينتهِ.

عبر ساترٍ كان الهواء يحركه، انتبه باختو إلى أن والده الستينيّ شاندور يتودد لزوجته الثانية ميادة بما يشبه التوسل حينما تتمنع

امرأة عن رجل يحتله الشبق. اعتراه الخجل أمام ما اعتاد سماعه ورؤيته في خيمة لا تداري رغبات قاطنيها. مع مرور الأيام ما عادت الخيمة تتسع لعائلة شاندور، فوسَّعَها مستخدمًا دعائم خشبية لتثبيتها، وقسمها إلى ثلاث مساحات، واحدة لزوجته الأولى بدور، وأخرى لزوجته الثانية ميادة، أما المساحة الثالثة والتي ينام فيها باختو فهي للمعيشة. لا خصوصية في الخيمة سوى التواري عن الأنظار، فحتى النفس يمكن لأي أحد أن يسمعه من وراء فواصل واهية.

لميادة التي تصغر شاندور بخمسة عشر عامًا جسد نحيل، وعينان واسعتان تزينهما رموش طويلة. لها وجه رغم شظف العيش إلا أنه لا يزال يحتفظ بجمال تمتاز به الغجريات غالبًا. في البدء أخذت ميادة تصد شاندور بيديها النحيلتين، مستنكرة رائحة الخمر، ووخزات لحيته الكثة، وجسده الذي لا يخلو من القمل. أخذت تدفعه عنها من دون حيلة لها على ضخامته، بينما أساورها النحاسية تنزلق إلى كوعيها، وتحدث رنَّات تسري مع هواء تلك الليلة الصيفية. بهمة مرتعشة لستيني ثمل، تعرى شاندور تمامًا تحت ضوء الفانوس، فانحدرت كرشه المتهدلة، وهو يقف بقدمين مقوستين، مكسوتين بالشعر كسائر أنحاء جسده، ثم انقض عليها. لم تستطع ميادة مقاومته. كان يهمهم كوحش تمكّن من فريسته، فثبتها بيد، وبيده الأخرى جردها من بنطال ارتدته تحت فستان ملون، فضفاض وطويل. غمر باختو رأسه بالبطانية البالية

وما علاها من أغطية مهترئة، هروبًا من المشهد المخجل، ومن أنين ميادة الرافض، وهو يتوارى شيئًا فشيئًا، إلى أن حل مكانه صدى صوت القُبل النّهمة، فبقيت همهمات الرغبة تتسارع كمواء قطة، حتى سكنت أنفاسهما، كأنهما يودعان الحياة، فغرقا في نوم عميق يتخلله شخير متقطع، يختلط بصوت أنفاس أمه، وإخوته، ونباح الكلاب القادم من أطراف مخيم الغجر، الغارق في بحر الليل، على الأطراف الجنوبية للمدينة.

أزال باختو البطانية عن رأسه، وأطلق تنهيدة طويلة، ثم استعاد تفاصيل ذلك المنام. وجد أنه يحفظ اللحن الذي عزفه. ردده في سره لأكثر من مرة، فذهل، وتعجب من ذلك الأمر. تساءل مستغربًا: **كيف لي أن أحفظ لحنًا لم أسمعه إلا في هذا المنام الغريب؟** اعتراه شيء من الخوف، رغم اللذة التي كانت لا تزال تعمّر روحه، وداهمته تساؤلات عدة، أكثرها سطوة: **هل هذا منام ذو فأل حسن؟ أم أن فيه شرًا قادمًا؟**

اندسّ شاندور بحضن ميادة، كطفل وديع، كأنه ليس ذلك السكير الذي لا تهابه عائلته فقط، إنما معظم الغجر، فلا تُكسر له كلمة، أو أمر، حتى إنه يكاد يكون كبيرهم بلا تنصيب. إن اختصم فريقان احتكما إليه، فيَحلُّ الخلاف بطريقة يتعجب منها كل من شهدها، أو سمع بها، وهذا ما جعل له في قلب زوجته الأولى بدور وزوجته الثانية ميادة احترامًا يغفر له زلاته الكثيرة، كالاستيلاء على بعض ما يجنيه باختو، وما تتحصل عليه زوجتاه من التسول

المحفوف بالمخاطر في المدينة، فينفقها في مقارعة الخمر، وصُحبة بعض نساء المخيم.

أخرج باختو هاتفه النقال من تحت الوسادة، كتب لتوليب يُخبرها عن حلمه الغريب، لكنه خشي ألا تصدقه، فحذف رسالته، وراح ينظر في صورتها التي يحتفظ بها في هاتفه. تذكر بتلذذ لقاءه الثاني بها بعد أسبوع من تعارفهما: في ذلك اليوم كان يدفع عربته مغادرًا قبيل غروب الشمس وهي تتماثل للتواري وراء جبل الجد الأول. لم يدرِ أن توليب في انتظاره، جالسة إلى طاولة في شرفة أحد مقاهي الحي الأول، الذي انتقل للعمل فيه بعد أيام من تعارفهما. ما إن رأته يهمّ بالمغادرة حتى أسرعت نحوه. لم تجد فيه قسوة كما في اللقاء الأول، بل وجدته صامتًا، تخبئ ملامحُه ابتسامة عريضة، تردد في أن يفلت لها العنان. دعته إلى أن يترك عربته أسفل شجرة أشارت إليها، ومن ثَمَّ يمشيان باتجاه حديقة لا تبعد كثيرًا عن مظلة انتظار الحافلات. اعتذر في البداية، اعتذر بكلمات فيها شيء من الريبة والشكوك والخجل، إلا أن وجهه كشف حيرته وهو يتلفت يمينًا وشمالًا تارة، وتارة أخرى يسهو بها بما يشبه البلاهة، إذ كان يفكر في سره: **ماذا تريد فتاة جميلة، مثل هذه، من عامل تنظيفات غجري**؟ مع ذلك بدا مثل طفل مطيع حين مضت توليب بعربته إلى جوار الشجرة، واقتادته من يده، ومضيا، غير قادر على رفض دعوتها. اختلست نظرة إليه، والهواء يبعثر شعره، وعيناه تلمعان ببهجة كبيرة. تساءلت في سرها: **ما مغزى**

أناقة غجري يزيل القمامة من الشوارع طوال ساعات النهار، وما مغزاه في أن يفعل ذلك بالرقص، والموسيقى؟

في الحديقة اشترت توليب كوبَي قهوة، واختارت مقعدًا يطل على مساحة بدا اخضرارها داكنًا تحت أشعة الشمس وهي تتهيأ للمغيب. كان باختو يتأملها بنظراته المتفحصة، يترقب أن تُفصح عن سبب مقنع لدعوته. التفتت إليه، وقالت بصوت خفيض هادئ: **رأيتك في ذلك اليوم تقرأ. لماذا؟** نظر إلى السماء، ثم التفت إليها: **أحب أن أقرأ.** شعرت توليب بأنها وجّهت له سؤالًا ساذجًا، حاولت أن تتدارك أثره بعجالة مرتبكة: **ولكن هناك أشياء كثيرة نحبها ولا نفعلها.** صوبت إليه نظرة تترقب ما سيقوله: **نعم هناك أشياء كثيرة أحلم بها، أتمناها، ولا أفعلها، إنما القراءة هي أول الأشياء التي أتيحت لي، فأحببتها. هناك أشياء كثيرة عالقة في البال.** بادلَته توليب بابتسامة عفوية، وهي تتتبع انفعالات وجهه أثناء حديثه: **فقط تقرأ لأنك تحب القراءة؟ أقرأ لأمحو من ذاكرتي ذلك اليوم الذي طُردت فيه من المدينة.**

أخبرها عما حدث في ذلك اليوم الذي لم يُمحَ من ذاكرته، حدَّثها بوجع مَن يبوح بما ينوء به لأول مرة، يحكي، وكأنه يتخلص من تلك الأشواك العالقة في روحه، بينما توليب تنصت له مُدركة حاجته الجوانية، وحين انتهى من تلك الحادثة، تساءلت من جديد: **من أين تشتري كتبك المفضلة؟**

قال لها: **كثير من الكتب التي قرأتها، وجدتها ملقاة في القمامة، فقد تراجع عدد الذين يقرؤون في الحافلات، والقطارات، والمترو، والحدائق العامة. استبدل الناس الهاتف النقال بالكتاب، صاروا عبيدًا له، واستحالوا إلى كائنات صامتة، يحدقون إلى شاشته، ولا يتحرك منهم سوى إبهام، يتنقل بين تسجيلات لا شيء فيها، سوى المزيد من الشروخ النفسية.** دهشت توليب بما سمعته، ولو أن أحدًا أخبرها أن هذا الغجري يفكر بهذه الطريقة لظنتها دعابة، أو شيئًا من هذا القبيل. أخبرها عن مخيم الغجر، وكيف يعيش سكانه، وكيف تَعَلَّم القراءة، وعن أول يوم زار فيه المدينة. مع هذا توقع أن هناك كلامًا آخر لم تقله توليب، خاصة حين رآها تستسلم للصمت، والشرود. قالت ويداها تتحلقان حول كوب القهوة، وعيناها تتفرسان وجهه: **ربما تتساءل عن سر إصراري على أن ألتقي بك.** كان لا يزال ينتظر ما سوف تقوله بلهفة متوارية، فقد مضى عليه أسبوع لم تغب عن باله، إنها واحدة من الأشخاص القلائل الذين تحدثوا إليه بلا عدوانية، أو خشية من غجري يمكن أن يرتكب كبعض الغجر جريمة مباغتة، بل إنها أول امرأة خارج المخيم تتحدث إليه بلُطف جعله يمضي ليالي مُستلقيًا في فراشه، يستعيد بلا ملل تلك الدقائق المعدودة التي جمعتهما.

استغرقت توليب في صمت قصير، تنظر إلى بنايات الحي الأول الشاهقة، وهي تقف في الأفق كأنها كائنات عبثية. في الحقيقة هكذا يرى باختو الحي الأول، إذ كثيرًا ما شعر بأن تلك البنايات

تهتز، وربما تسقط عليه. وكثيرًا ما أحس بأن خطواته أسرع مما هي عليه في بقية الأحياء، فيداهمه اللهاث. كثيرًا ما رأى ضجيج الحي يستحيل إلى طيور سوداء تحجب عنه الشمس. كانت تصورات خارجة عن سلوكه الهادئ، الذي بطبيعة الحال يقبع خلفه سلوك صاخب، تشكّلَ في المنطقة الواقعة بين باختو قبل أن يرى المدينة، وبينه حين غدا جزءًا يوميًّا منها.

قالت توليب وصوتها يعتريه هدوء يشوبه حزن لم تنجح بمداراته: **منذ أن تعلقت بالكاميرا التقطتُ كثيرًا من الصور لأشخاص، وحيوانات وطيور وأشجار، وحتى لأحذية بالية ومهملة. لكن الوجوه أكثر ما يستحوذ على رغبتي في تصويرها. ثمة وجه كنت أشعر أن لا بد من العثور عليه.** صمتت قليلًا، ثم رفعت رأسها، تنظر إلى السماء: **وجه يزيل ولو شيئًا بسيطًا من خوفي.** نظرت إليه وهو ينصت باهتمام، ثم استأنفت حديثها رغم أنها تعي ألَّا شأن له بما فيها من قلق وحزن لا يغادرانها: **أنت صاحب هذا الوجه يا باختو.** اعتقدت توليب أنه لم يفهم كل ما تحدثت به، رغم ملاحظتها لمهارته في الإنصات، إذ بقي صامتًا لم يعقب على ما قالته. أسندت جسدها إلى المقعد، ويداها تُمسكان بكوب القهوة، تنظر إلى طفل يحدّق إلى إوزة تعوم في بِركة تتكسر أشعة شمس الغروب على مائها المشوب بالاخضرار.

استعادت كيف كانت الأيام السبعة التي أعقبت لقاءهما، إذ كانت دائمة التفكير به، تنظر كل يوم في الصورة التي التقطتها

له، حتى إنها استثمرت مهاراتها في مونتاج التسجيلات، وأضافت موسيقى أغنية نوَّار لمقطعٍ سجلته له، ليكون الصوت أكثر وضوحًا. تدخلت في بعض حركاته وهو يراقص المكنسة، وأبطأت من بعضها. حين كانت تأوي إلى فراش النوم تجد باختو يحدق إليها بعينيه الجميلتين، فيعتريها هدوء مُفتقَد. كل ما توصلت إليه أن هذا الشاب خلق عندها توازنًا غير متوقع مع ماضيها الموجع.

لم تستطع توليب أن تحدد هل كان يراقب الحديقة وهي تنظر إليه؟ أم أنه منشغل بأمر ما؟ مع هذا كان عليها أن تخبره بسبب دعوتها له: **كل ما هنالك أني وجدت بك شكلًا فريدًا للسلام.** اقترب منها أكثر ولامس يدها مواسيًا، غير أنه أعاد يده بسرعة، كأنه يعتذر عن تصرف لا إرادي، لم تُبدِ توليب حياله أي ردة فعل. أخبرته عن اليوم الذي ستُقيم فيه معرضًا لصور فوتوغرافية، وأهمها صورته. دعته للمعرض، وأخبرته أنها ستحتفي به. في طريقه إلى مخيم الغجر كان يتحسس يده التي لامست يد توليب، ويردد بشجن كبير إحدى أغنيات نوَّار أشهر المطربين القدامى. كان ذلك اليوم أكثر أيام حياته سعادة، إذ إنه لم يشعر بما يمكن أن يشعر به غجري منبوذ، بل وجد بأن اخضرارًا ما أخذ يدحر عنه يباسًا يداريه ببراعة مَن يسعى إلى الحياة.

* * *

في تلك الليلة، بقي باختو في فراشه، أسيرًا للذة منامه الغريب، إلى أن جاء الضياء. من فتحة في الخيمة رأى السهوب الشرقية وهي تنأى بعيدًا عن المدينة، جرداء رمادية، تلوح منها النباتات الناشفة كما لو أنها أبدان لصوص يكمنون انتظارًا للحظتهم المناسبة. شعر بلسعة برد تجتاح بدنه النحيل، فشد عليه غطاء النوم أكثر من ذي قبل، وراح يرنو إلى مدينة الجد الأول، وأضواؤها تخفت واحدة تلو الأخرى، بينما الشمس تصعد من الشرق، فاكتست الأشياء بحمرة ذهبية. من مخيم الغجر أتى صياحُ الديكة، ونباح الكلاب، وشتائم لنساء بصوت متحشرج تلعن الحظ العاثر. أتت نسمة الهواء برائحة مكب النفايات، ثم أتت من البعيد سعلات لرجال يمضون إلى وادٍ اعتادوا أن يقضوا حاجاتهم فيه، وجاء من وراء ذلك الخليط من الأصوات بكاء أطفال متفاوت الوتيرة. هزّت بُدُور بدَن باختو، بعد أن لمت ضفيرتها السوداء الطويلة، التي كانت تحجب نصف وجهها الطفولي، وغطت رأسها بمنديل ملون كألوان ثوبها الطويل الفضفاض: **انهض، حتى لا تتأخر. أنسيت أنك بالكاد حصلت على هذا العمل؟** بقي في فراشه، إلى أن أزالت بدور عنه غطاء النوم، ونهرته، فجلس يفرك عينيه بباطن يده مبتسمًا. إنها ليست ابتسامته المعهودة، وهو يتأمل ما حوله بهدوء مفرط، بل إنها ابتسامة جديدة، شعرت أن وراءها أمرًا لا تعرفه.

قرفصت بدور قرب حفرة النار، ورشّت على قليل من الحطب والأخشاب قطرات من الكاز، وأشعلتها بعود ثقاب، ثم راحت

تنظر إلى الأفق بعينين واسعتين اشتد سوادهما، في منتصف بياض ساطع، تحاول فهم سر ابتسامة باختو. قالت وهي تمسك بطرف ثوبها، وتهزه قبالة النار لتزيد اشتعالها، بينما الدخان يجتاح المكان، ويُدمع عينيها: **عليك في المرات القادمة أن تعود من الحفلات الليلية باكرًا، حتى لا تتأخر عن عملك. أنت لا تجني إلا القليل من وراء هذه الكمنجة اللعينة التي أفسدت والدك من قبلك.** نادته بصوت مرتفع، حين وجدته لا يزال ساهمًا، ومبتسمًا. فكر باختو لحظتها أن يخبرها بما رآه في نومه، إلا أنها لن تصدقه، حتى لو دندن باللحن الذي وجد أنه يحفظه عن ظهر قلب. حتمًا ستقول إن حالته تفاقمت، وأصيب بالجنون.

حمل باختو أنبوبة معجون لتنظيف الأسنان، وفرشاة، ومشى نحو برميل معدني صدئ قبالة الخيمة، وبتمهله المعهود أخذ منه قليلًا من الماء، وشرع ينظف أسنانه، والابتسامة ذاتها لا تفارق وجهه. غرف من البرميل عدة حفنات من الماء، وراح بالصابون يغسل رأسه، ووجهه الذي يشبه وجه أمه النحيل الصافي. من صندوق خشبي يوصده بقفل، حمل مشطًا ومرآة، وسرح شعره مستعينًا بزيت لهذا الغرض. ارتدى بنطال جينز، وقميصًا من الكتان، وحذاءً رياضيًّا، ورش عنقه وملابسه بشيء من العطر، ثم أغلق الصندوق. كانت أمه تراقبه وعلى وجهها ابتسامة عريضة، مسرورة بذلك التصالح بين ابنها ونفسه، وهو يتجهز للذهاب إلى مدينة ما عاد الكثير من سكانها يكترثون بشيء. رغم أنه ليس

من عُمال النظافة الذين عُهد إليهم بالعمل على الآليات التي تجوب المدينة، وتجمع القمامة، بل عامل على عربة، لم يلتزم باختو بالزي الرسمي لهكذا مهنة، بل انحاز إلى طريقته في اللباس منذ اليوم الأول لعمله هذا، إذ إنه يدخر القليل من المال كل حين، فيشتري ما يقوى على ثمنه من الملابس والعطور، وكل ما يلزمه ليبدو أنيقًا.

في بدايات عمله، رأى أن ما يفعله سلوك أناني نحو عائلة فقيرة، لكنه لم يجد طريقة غير تلك ليتقبل عالم المدينة، إذ أخذ يتابع أحدث ما وصلت إليه الموضة في الملابس والعطور وقصات الشعر. كان يفعل ذلك تحت غطاء النوم، متتبعًا تلك الصيحات عبر هاتفه النقال، وحين يغلق الشاشة، ويرفع الغطاء عن رأسه، تصطدم عيناه بسقف الخيمة، فيضحك ساخرًا. استغرب البعض في البداية سلوكه وأناقته. هناك مَن امتدحه، وهناك من رأى أنه مجرد مجنون، خاصة عندما شاهدوه يكنس الشارع على أنغام الموسيقى، ولا يعلمون ما وراء سلوكه الغريب هذا. جلس باختو على سطل معدني، يشرب الشاي على مبعدة من حفرة النار التي كانت ألسنتها تتطوح كأفاعٍ تستفيق للتو.

من طرف الخيمة كان شخير شاندور يأتي متتابعًا يجرح السكون الصباحي، وزجاجة الخمر ملقاة قرب رأسه كأنه لم ينم منذ أعوام. استفاقت ميادة من نومها على صوت رضيعها، ألقت بتكاسل تحية الصباح، وجلست في فراشها، ثم مدت ساقًا وثنت أخرى، وأخرجت ثديها، تُرضع طفلًا يغالب سعلاته المتكررة، بينما بقية

إخوة باختو الصغار يَغطون في نومهم. ترك شاندور فراشه، بشعره الكث وكرشه المتهدلة وعينيه الغاضبتين، مشى بضع خطوات كسولة نحو الجهة الخلفية للخيمة، وراح يتبول وهو ينظر إلى المدينة التي امتنع عن دخولها منذ سنوات، رغم تلك الليلة التي مرض فيها، فقد أصابته الحمى آنذاك، يهذي بكلمات لم يفهمها مَن كانوا حوله، وينادي على أشخاص ماتوا منذ سنين طفولته. أتى له باختو بدواء من أحد الغجر وصفه له أحد أطباء المدينة، لكن شاندور رفض أن يتعاطاه. كانت حرارته مرتفعة جدًّا، وجسده يرتعش، رغم الكمادات القماشية المغمورة بالماء. أيقن الجميع أن تلك الدقائق كانت الأخيرة في حياة شاندور، إذ جلست بدور على مبعدة منه، تبكي بصمت، بينما ميادة تولول وهي تروح وتجيء في مساحة الخيمة، تضع يديها على بطنها المنتفخ بمولود جديد، أما الآخرون، فكانوا ينتظرون لحظةً يطلق فيها شهقته الأخيرة، إلا أن شاندور نهض من فراشه، ومشى مترنحًا نحو حفرة النار. وقف على مقربة منها، نظر إليها، ثم التفت نحو باختو، وزوجتيه، وبعض من أتوا يطمئنون على حاله، ومرة واحدة وقف على الجمر. في البدء أطلق أنينًا متصاعدًا، ثم ما هي إلا لحظات حتى تمخض ذلك الأنين عن صرخة قوية، ورائحة جلد قدميه المحترق. ابتعد عن حفرة النار، وسقط مغشيًّا عليه، فنجا.

أقفل شاندور سحاب بنطاله، وهو لا يزال يراقب المدينة بعينين غاضبتين. عند برميل الماء، عاونته بدور على الاغتسال، ثم جلس

قرب النار يشرب الشاي ويدخن. التفت نحو باختو وقد تهيأ للذهاب إلى عمله. قال بصوت ساخر: **حتى لو ارتديت ثياب عمدة هذه المدينة، فسينظرون إليك كغجري قذر.**

بعد خطوات قليلة في الطريق الترابية التي تنطلق نحو المدينة، توقف باختو وألقى من فوق كتفه نظرة كسولة إلى الوراء، حيث المخيم الذي توقف أبناؤه منذ زمن عن الحل والترحال. ثمة أدخنة لنيران أشعلها ساكنو الخيام كانت تصعد عاليًا في الهواء، وثمة نسوة خرجن إلى الوادي لقضاء حاجاتهن الطبيعية. رأى أطفالًا يحومون حول الخيام، يتشاكسون، ويلعبون نصف عُراة. ألقى نظرة متفحصة على جبل الجد الأول الجاثم على الطرف الغربي للمدينة، ثم استأنف مسيرَه، يسد أنفه بيده، سالكًا طريقًا تمرُّ بين تلال القمامة، نحو المدينة، حيث حدث ما لا يمكن حتى لمخيلة أحد أن تتصوره.

٣

دخل باختو المدينة من جهتها الجنوبية، ليمر عبر الحي الرابع، نحو الحي الثالث، الذي عُهد إليه بالعمل فيه هذه المرة. أحبَّ هذا الحي أكثر من غيره، ففيه يسكن نوَّار، مُغنٍ ما عاد يكترث به أحد بعد انتشار موجة الأغاني الجديدة، بل يرونه مجنونًا، لغرابة تصرفاته التي لم يستطع أحد أن يثنيه عنها سوى باختو. عند رأس شارع يفضي إلى الحي الرابع، أوقف باختو عربته، وراح بنظرته الثابتة وردّة فعله، التي تبدو آلية في بعض الأحيان، يتلفت مستغربًا وجود سيارتَي شرطة، يعترض عناصرُها كل مَن يمر في الشارع، ويقومون بتفتيشهم. وحين لم يستطع فهم ما يجري مضى في طريقه، فاستوقفوه، فتشوا عربته بدقة، ثم سمحوا له بالمرور. لو فعلوا ذلك معه فقط لتعلق الأمر بسرقة، أو جريمة ارتكبها أحد الغجر، لكن التفتيش طال الجميع، ما دل على أن هناك أمرًا غريبًا. هكذا فكر باختو الذي ما إن دخل المدينة حتى صُدم بما رأى.

كانت حركة المرور شبه مُعطلة في الحي الرابع. تقف سيارات

كثيرة في الشارع بشكل فوضوي، ينظر بعض سائقيها في المرايا، وفي هواتفهم النقالة، أما الآخرون فقد تركوا سياراتهم مفزوعين، منهم مَن يحوم حول نفسه، كأنه يرى شيئًا غامضًا، ومنهم مَن مشى على غير هُدى. تتعالى أصوات سيارات الشرطة وزعيق سيارات الإسعاف، إلى جانب ضجيج تتخلله صرخات لرجال ونساء وأطفال مفزوعين.

ترك باختو عربته يفتش عن الإجابة في وجوه الناس، ولم يجدها إلا حين وصل متجرًا في الحي الثالث، لبيع المرايا، وإطارات اللوحات. كان مالك المتجر فاغرًا فاه أمام مرآة كبيرة، مسندة إلى الجدار، يبتعد عنها، ويقترب إليها مرتبكًا، غير مصدق ما يرى. يتلفت حوله، يفرك عينيه، ويصرخ: **هذا غير معقول**. ما إن شاهده مالكُ المتجر يقف بالباب حتى صرخ به: **تعالَ أيها الغجري**. اقترب باختو منه متوجسًا، ينظر في الوقت نفسه إلى آخرين يحدقون في المرايا، بعضهم يبكي، والبعض الآخر يبدو منذهلًا ومشوشًا. قال مالك المتجر بتوسلِ غريقٍ يأخذه الماء إلى النهاية: **هل ترى نفسك في المرآة؟** وقف باختو أمام المرآة، ثم التفت نحو الرجل: **نعم إني أرى نفسي**. أمسكه الرجل من كتفيه، وهزه بقوة، وشيء من زَبَده يتطاير من فمه، بينما يلتف حوله عدد من الرجال والنساء: **أمتأكد أنت؟.. نعم متأكد**. انفجرت امرأة بالبكاء، ثم خرجت مسرعة: **كنت أعتقد أن الخلل في مرآتي**. تعالى صوت نحيب رجل كان يقف بالباب، وينظر إلى كل الجهات كالممسوس: **حتى في كاميرا**

الهاتف النقال، لا يمكنني أن أرى نفسي. جربت أن ألتقط لي صورة، وما رأيت إلا الفراغ. ثم ما هذا الذي أراه حولي؟ انقضّ مالك المتجر على المرايا، يهشمها، إلى أن سقط أرضًا مضرجًا بدمائه.

حينها خرج باختو، ووقف على الرصيف مذهولًا يتساءل في سره: **هذا أمر لا يصدق، كيف لا يرى الناس وجوههم في المرايا؟ لو أن واحدًا اشتكى من هذه الحالة لعزوت سبب ذلك لعارض صحي، لكن أن يُصاب الجميع بهذه اللعنة، فهذه هي الكارثة بعينها.** كان الضجيج قد ازداد واجتمع عدد من سكان الحي حول رجل قال إن امرأة تملّكتها رغبة غريبة بالانتحار، فألقت بنفسها من الشرفة. ثمة سيارة كانت تصطفّ على طرف الشارع ينصت سائقها إلى بيان يُذاع عبر الراديو:

> **«تُعلن إدارة الحي الثالث أن الحي يتعرض لوباء لا يُعرف إلى الآن أسبابه، ويبدو أن انتشاره سريع، يؤدي إلى فقدان صفة الانعكاس، بحيث يصبح المصاب غير قادر على رؤية نفسه في أي وسيلة، ولهذا الوباء إغراءات نفسية خطيرة تدفع بالمصاب إلى استسهال الانتحار، لذا ما نرجوه منكم ألا تستسلموا لتلك الدوافع الغريبة، وأن تلزموا بيوتكم، وتكونوا أكثر صبرًا لنتجاوز هذه المحنة، ونُعلمكم أننا سنفرض حظر التجوال بعد يوم غد»**.

في تلك اللحظات المربكة، كان باختو يعاني ألمًا مباغتًا في رأس معدته، وشعورًا بما يسبق التقيؤ. **يا إلهي ما هذا البلاء!** صرخ

وهو يتلفت حوله من دون قدرة على التركيز: **هذا جنون، جنون.** تذكّر توليب، وتساءل كيف استقبلت تلك الفاجعة. اتصل بها، ولم تُجب. كانت خشيته عليها تعادل خشيته على مدينة الجد الأول، إذ شعر لوهلة أن الجناحين اللذَين منحهما له الحب، باتا على مشارف النهاية، وبالتالي سيعود إلى ما كان يلفه من أسى، ويَباسٍ عتيق. حين أجابت اتصاله الثالث وجدها مشوشة، وفي الآن نفسه تضحك ساخرة من هذا الوباء الغرائبي. كان سيتصل بأمه غير أنه قدَّر أن تصرفه هذا ليس في مكانه، إذ إنه سيربك عائلته في الحالتين.

خلال وقت قصير، غرق الحي في فوضى عارمة، فأُغلقت المحال بأمر إدارة المدينة، وحثت الشرطة الناس على العودة إلى منازلهم. في تلك الأثناء خشي باختو وهو لا يزال تحت أثر الصدمة، على مخيم الغجر، غير مدرك لماذا يرى نفسه، بينما الآخرون لا يستطيعون ذلك. كان واقفًا على الرصيف ساكنًا، يُحدِّق إلى الناس الذين يمرون مسرعين، والذعر يملأ وجوههم. تخيل للحظة ماذا يعني ألا يصبح الإنسان قادرًا على رؤية نفسه، وكيف يستسهل الموت، فأصابته قشعريرة، وشعور جارف بالخوف.

مر قربه رجل طاعن في السنّ يتوكأ على عكاز عتيق، ويمشي بخطوات ضعيفة، شعره أبيض يسترسل على كتفيه، يرتدي ثوبًا وحذاءً قديمين. في وجه الرجل حزن، وخشية كبيرة. نظر إلى عدد من الرجال والنساء وهم ينصتون إلى نشرة الأخبار عبر هاتف نقال،

ثم بعينين على أهبة البكاء تفرس بوجه باختو: **ما ظهر الداءُ إلا لأنهم حاولوا إحراق الدواء. ما ظهر الداء إلا لتواجهوا الحقيقة، ودواؤكم مخطوط الجد الأول الذي رأى كل شيء. ابحثوا عنه، لكن عليكم الحذر من أبناء الطائر الأسود، سيفتشون عنه، وسيقتلون مَن يعرف سره الكبير، سر أخفوه على مر السنين، إنهم بينكم، إنهم يتوارون وراء أقنعتهم الكثيرة.** التفت باختو إلى امرأة تصرخ لشدة خوفها من الوباء، وحين عاد ينظر إلى الرجل المسن لم يجده. فتش عنه بين زحام تسارعت كثافته، وسأل عنه شابًّا كان بقربه، لكن الشاب أكَّد أنه لم يره في الأصل.

تساءل باختو وقشعريرة تنتابه بقوة: **هل ذلك المخطوط العتيق الذي وجدته ليلة البارحة، هو ما تحدث عنه ذلك الرجل؟ ومَن هم أبناء الطائر الأسود الذين حذَّر منهم؟**

٤

كان العمدة جالسًا في مكتبه المنزلي، مقابل نافذة تطل على الجهة الغربية من الحي الأول، حيث لاحت له البنايات الشاهقة، والبيوت ذات الطراز الهندسي الحديث، والحدائق الخضراء تحيط بكل جهاتها. كان مستغرقًا في التفكير بواقعة سرقة مخطوط الجد الأول، حين سمع صراخ زوجته الستينية. هرع إليها، فوجدها تقف أمام المرآة، تنظر فيها، تبكي والارتباك يشتت حركاتها. سألها بعد أن تأكد بعجالة من أنها لم تتعرض لشيء سبَّب لها أذى: ما بكِ؟ كان وجهها في المرآة ممتلئًا بالفزع. حين وقف وراءها تمامًا، انتبه إلى أنه لا يرى إلا وجهها. تجاوزها بخطوات، وراح يفتش عن وجهه في المرآة، ولم يجد إلا زوجته تقف خلفه خائفة كما لو أنها على حافة هاوية سحيقة. شعر لحظتها أنه مجرد شبح لإنسان مات منذ سنين. أرعبه ذلك الخاطر، فأحس بحلقه جافًّا، وبشفتيه ناشفتين. عاد إلى الوراء وجلس على طرف السرير، فرأى نسخته الشبحية مستلقية على الأرض. جفل، ثم تراجع نحو الباب، تمامًا مثلما فعلت زوجته.

في تلك اللحظات الأكثر رعبًا في حياته شعر العمدة أنه مات. ليس هناك من احتمال آخر. وإن كان هذا مجرد وَهْم، فما هذه النسخة الشبحية التي تمد لسانها له، وعلى وجهها ابتسامة شامتة؟ كان سيُخبر زوجته عما يرى، لكنه خشي أن تنعته بالجنون، رغم فداحة ما يجري. هرعت إليه، تُولول: **يبدو أنني مت. إني أرى روحي تخرج مني، إنها هناك عند المرآة، تنظر إلينا، وتبتسم. إنها تتحرك في أرجاء الغرفة.** اختلط الأمر على العمدة، هل تعرّض هو وزوجته لحادث وماتا، أو أنهما قُتلا وهما الآن في عوالم الموت، أم أن هذا مجرد كابوس؟ فتحت ابنة العمدة الباب والخوف يُعيقها عن نطق ولو كلمة واحدة. تضع يدها على فمها، وتئن، ثم حين وقفت أمام المرآة أطلقت صرخة قوية، وأُغمي عليها.

رن هاتف العمدة. كان مدير مكتبه على الجانب الآخر، يتحدث بارتباك: **لقد تعرضت مدينة الجد الأول إلى وباء سريع الانتشار، يُزين الموت لمن يُصاب به، عن طريق شبح طبق الأصل عن الشخص المصاب.** سقطت زوجة العمدة على الأرض مغشيًّا عليها هي الأخرى، فأسرع يرش الماء على وجهها، ويقرب قليلًا من الكولونيا إلى أنفها، وإلى أنف ابنته إلى أن استفاقتا، بينما زوجته تهذي بالموت. أخبرها أن هذا وباء أصاب المدينة. بعد دقائق ما عاد العمدة يرى شبحه، وكذلك زوجته التي جلست أمام المرآة تحتضن وجهها بيديها، وكأنها ما عادت متأكدة من وجوده: **كيف لي أن أداري ما خلَّفته ستون سنة في وجهي بعد هذه الكارثة؟**

أشعر أني قد كبرت مائة عام إضافية. أصابعي تحس بالتجاعيد تتكاثر بسرعة. الآن أدركت أني كنت أوهم نفسي لا غير، لا غير. وجد العمدة أن زوجته ستنهار وهو يشاهد وجهها في المرآة متعبًا ومهزومًا، ويديها ترتعشان، وصدرها يعلو وينخفض، وأنفاسها تأتي متسارعة. التفت نحوها، ولامس وجهها، ثم افتعل ابتسامة باهتة: **أنا مرآتكِ يا حبيبتي. إنكِ أجمل سيدات المدينة.** تفحصت وجهه، وتذكرت بعض أفعاله القذرة، وكيف اختاره أبناء الطائر الأسود، ليخوض انتخابات عُمودية المدينة وفاز بها زورًا: **أنت تكذب. لستَ من أولئك الذين يمكن أن يكونوا مرايا للآخرين، فيقولوا الحقيقة.** قالت ذلك، وغادرت بخطوات مصابة بالوهن.

أدى الوباء الذي انتشر في مدينة الجد الأول إلى نسخة شبحية يراها معظم المصابين تحرضهم على الانتحار، نسخة مطابقة لهم، شعروا بسببها أن أجسادهم أضحت مثل غصن قُد من شجرة، ومُني بالبياس. إنها أغرب عملية انشقاق يمكن أن تحدث في تاريخ الإنسان على نفسه. لعينة تلك النسخ الشبحية، وماهرة على نحو متقن في تبديد مخاوف البَشَر من الموت، بل تستبدلها برغبة جارفة في الإقدام عليه. أكثر ما أرعب سكان المدينة هو ظهور تسجيلات مصورة لأشخاص بدوا كممسوسين وهم يُقدمون على الانتحار، فاستشرى الفزع بينهم. وجدوا أن هوة فارغة حلّت بينهم وبين أنفسهم، وباتوا على مقربة من الفناء. انشغلت المدينة بهذا المصير الغرائبي، إلا الذين عُطبت حواسهم، إذ لم يبالوا بعدم قدرتهم

على رؤية أنفسهم في المرايا، ولم ينتبهوا في الأصل لنسخهم الشبحية، ولم يخشوا الموت.

غير أن الأمل حاضر حتى في المصائب الكبرى، فقد تدافع الكثير في كل الأحياء إلى الأسواق بشراهة، وشراسة غير مسبوقة، لشراء ما يحتاجونه قبل الدخول في مرحلة حظر التجوال؛ إذ تزاحموا، وتشاتموا، ونشب بينهم كثير من العراكات. بعد يوم من الصخب والضجيج التزم الناس بيوتهم، وغدوا أسرى لتلك الكارثة الغريبة التي حلت بهم، من دون أن يتساءل أحد، خلال السنين التي مضت: ماذا لو لم يعد قادرًا على رؤية نفسه في المرآة، أو في أي وسيلة أخرى؟ وحين حدث ذلك لم يستطع أحد استيعابه، لم يفكروا لماذا، وكيف حدث ذلك. باتوا منشغلين بأشباحهم، وبأثر القطيعة التي حلت بينهم وبين وجوههم. عيونهم إما على هواتفهم النقالة، حيارى بآراء تُفتي بأسباب ما حدث، أو على شاشات التلفاز التي لا يغلقونها إلا في ساعات متأخرة من الليل.

عند الظهيرة أطلّ عمدة مدينة الجد الأول عبر شاشة التلفاز، وطمأنهم بأن العلماء سيعملون على إيجاد حل لهذا الوباء اللعين. كان واضحًا أنه يجاهد في أن يُبقي كلامه متوازنًا، ومُبشِّرًا بالأمل، لكنه في الحقيقة كان يقاسي استهزاء نسخته الشبحية به، نسخة طبق الأصل عنه، تقف وراء الكاميرا، وتمد لسانها له، بابتسامة ساخرة، شامتة. حين انتهى النقل المباشر لكلمته طلب، وبقليل من التفاؤل أن يتركوا له تسجيلًا ليستمع إلى ما قاله. كانت خطواته وهو يترك

طاولة مكتبه المنزلي الفاخر الذي يقع في الحي الأول، مرتبكة، وهزيلة. اقترب منه مدير مكتبه، وحارسه الشخصي ـ اللذان حضرا لأجل اللقاء ـ تحسبًا من أي تعثر يمكن أن يحدث له. حين غادر طاقم التصوير، وخلا المكان إلا من العمدة، رأى شبحه يمشي نحوه، فتراجع خطوات إلى الوراء، وتهاوى على الكرسي. وضع الشبح يديه على كتف العمدة، واقترب من وجهه. قال له بنبرة صوتية معدنية، ساخرة: **ما عاد هناك أمل لك إلا في الموت**. لولا أن العمدة يعرف أن كل المصابين بهذا الوباء يعانون تلك الأشباح، لاعتقد أنه أصيب بالجنون، من هذا المنطلق تحلى بشيء من الصبر لكن شبحه وقف أمامه يعقد يديه على صدره: **رغم ما فعلت، إلا أنك لا تزال تنتمي إلى تاريخ أسود، عليك أن تفعل الكثير لتُبيِّض جانبًا منه، قبل أن تستشري بك لذة الذهاب إلى الفناء.**

جاء مدير مكتب العمدة بشريحة فيها تسجيل لكلمته، ألقمها في جهاز مربوط بشاشة مسطحة في صالة الجلوس. أرخى العمدة بدنه على الكرسي، يهز قدمه بلا توقف. سمع صوته، ولم يرَ نفسه، شاهد فقط كرسيًّا فارغًا، وراء طاولة على سطحها ميكروفون. رغم أنه يعرف النتيجة مسبقًا إلا أنه صرخ بمدير مكتبه: **هل تراني؟** أجاب مدير مكتبه بردة فعل مصطنعة: **نعم، نعم يا سيدي إني أراك.** قال العمدة بصوت خفيض وهو ينظر إلى الجدار: **هل أبدو متوترًا؟** استغرب مدير مكتبه وجه العمدة، كيف ينزلق على شاشة التلفاز ضعيفًا ومهزومًا ومتوترًا: **لا يا سيدي، بل إن هناك راحة كبيرة، وثقة**

عالية تبدو في وجهك. همس العمدة، يكتم غيظه: **إنك تكذب.** قال ذلك ثم صعد إلى الطابق الثاني من القصر العُمودي بخطوات واهنة، وشبحه يسبقه. في تلك الأثناء انشغل مدير مكتب العمدة بنسخته الشبحية وعلى وجهه خليط من أمارات الخوف والدهشة والاستغراب. هرع إلى الباب حيث مرآة معلقة، نظر في فراغها، وردّد بتلعثُم: **يا إلهي أكاد أُجن، أكاد أُجن.**

كان العمدة يحاول جاهدًا ألا تنهار زوجته أمام وباء خلط كل شيء في لحظات مفاجئة، حين رن أحد هواتفه الشخصية، مشيرًا إلى رسالة من أبناء الطائر الأسود، التي تلتقي مرة واحدة كل شهر: **اجتماع طارئ.**

* * *

عند ظهيرة اليوم الذي انتشر فيه الوباء، التقى أبناء الطائر الأسود في مزرعة خاصة، شمال الحي الأول. مزرعة كثيفة الأشجار، حولها سور مرتفع جدًّا، شيد من الأسمنت المسلح، وزود بكاميرات مراقبة ومجسات تطلق تحذيرًا صوتيًّا لحراس في غاية الشراسة تم انتقاؤهم بعناية فائقة، ولها بوابة صُنعت من الحديد المصفح، لا يمكن أن تُفتح إلا لمن يحملون رمزًا إلكترونيًّا يستبدل من حين إلى آخر. لا يعلم أحد من سكان المدينة عن هذه الجماعة السرية، إلا القليل، منهم مَن يقول إنها تشكلت منذ مئات السنين، ومنهم من يرى أنها نشأت مع بداية المدينة،

واستطاعت عبر مراحل مدروسة أن تتحكم خفية بمعظم شئون سلالة الجد الأول. في السنين الأخيرة، وحينما اتسعت قليلًا دائرة من يعرفون بأمر هذه الجماعة، ظهرت آراء تشجع على عدم الإيغال في الشكوك لئلا يكثر الوهم.

كان العمدة آخر الذين وصلوا إلى تلك المزرعة. عَبَر باب القصر، ثم هبط بمعية أحد الحراس مستخدمًا مصعدًا، نحو طابق تحت الأرض، بينما نُسخته الشبحية ترافقه، وتهزأ به، بل إنها أقفلت كل الأبواب بوجهه، وما تركت إلا باب الموت، هكذا كانت تحاصره طوال الطريق، لهذا بدا وجهه لسائقه داكنًا على نحو ما، رغم بياض بشرته، وريقه ناشفًا، يشرب الماء باستمرار. كان حزينًا، وفاقدًا لقدرته على التفكير، يشعر بالهشاشة، وهو يرى نسخة منه تدفعه إلى الموت. إن أكثر أشكال الوجع سطوة هي التي لا تعرف لها سببًا، إذ تبدو الحال كأنك في طريق تجهل نهايتها، وفجأة، وأنت توهم نفسك بالخلاص، تحيطك عاصفة رملية، فتخسر كل رهاناتك.

وقف العمدة على بُعد مسافة قصيرة يراقب وجوه من أتوا للاجتماع. كانوا في ردهة يُفضي منها باب إلى القاعة التي سيلتقون بها، معظمهم غارقين في صمت جاف، يصوبون عيونهم إلى الجهات بلا معنى لالتفاتاتهم، إلا أصغرهم جوناثان الذي تجاوز قبل أيام سن الأربعين. كان يقف في زاوية تُتيح له رؤية الجميع من وراء ابتسامة غامضة لم يفهمها العمدة، الأشهر بينهم، شهرة

لا تعني شيئًا في اجتماعات مثل هذه، ولا حتى صداقاته العميقة التي تربطه بأكثر من شخص من أعضاء تلك الجماعة. حاول أن يحافظ على طريقة مشيته، ومصافحته، وتعابير وجهه. مع هذا كانوا يعرفون أن سلوكه مصطنع، لأنهم فعلوا ذلك حين جاءوا، ثم ما هي إلا دقائق حتى استسلموا إلى صمتهم المترع بالخوف، وإلى مراقبتهم لنُسخهم الشبحية.

كان السبعيني أوديسان، رئيس جماعة أبناء الطائر الأسود، يستند على عكازه، حين اقترب منه العمدة، يتفرس وجهه، ويفتش عن ردة فعله حول ما حدث. قال أوديسان وكأنه يترقب تلك النظرة المتوسلة: **أرأيت ما حل بنا؟** سار العمدة نحوه بقوة مفتعلة: **كارثتان لم ننتبه إلى احتمال وقوعهما، سرقة المخطوط، وهذا الوباء اللعين.** تململ أوديسان، إذ بدا كما لو أنه يريد أن يصرخ لشدة غيظه: **ما عاد هناك معنى لشيء. هذا هو إحساسي الآن على الأقل، خاصة وأنا مُطارد من نسخة مني.** مرَّ جوناثان بقربهما، يبتسم برعونة مقصودة: **لا تُحمِّلوا الأمر أكثر مما يحتمل. لدينا ما هو أهم. لقد كنا على وشك العبور إلى المرحلة النهائية في إحكام قبضتنا على هذه المدينة، ولا بد أن نجد المخطوط، ونحاول من جديد.** حدَّق أوديسان إلى وجهه غاضبًا، وتمتم بكلمات غير مفهومة، بدت للعمدة على أنها شتيمة.

صدقوني هي كذلك.. قال جوناثان بنبرة فيها كثير من التبسيط المستفز، وهو ينظر إلى ساعته التي أشارت إلى أن دقيقتين تبقتا على موعد الاجتماع، فمضى نحو الحمام. كان يفكر وهو يتبوَّل

بما حدث للمدينة، وكيف اختلف هذا الوباء عن الأوبئة التي حلت بها، ويعرف سرها. قبل أن يغسل يديه، ابتسم لفراغ المرآة: **أعرف أنه من الصعب عليَّ ألا أراني، مع هذا فإنها أكبر خدمة تقدمينها لي. حين أنظر إليَّ فيك فإني أجلد ذاتي، ألومها حدَّ الإعياء، إذ إنكِ غالبًا ما تُظهرينني على أني لست رجلًا صالحًا، بخلاف ما يظنه الآخرون. من الآن فصاعدًا لست بحاجة إلى أن أهشمكِ، بما أنكِ ما عدتِ ضدي. ربما أكون الوحيد الذي فرح بوباء أتمنى أن يستمر إلى الأبد، فأنا لست من أولئك الذين تدفعهم مراياهم الخاوية إلى إنهاء حياتهم.**

فجأة ظهر شبح جوناثان واقفًا عن يمينه، يتكئ على جدار غرفة الحمام. جفل جوناثان، غير أنه تصرف كما لو أن الأمر عادي جدًّا. لن ترعبني، قال بثقة مصطنعة. حينها سمع صوت شبحه يتردد بين الجدران: **أنت تكابر على نفسك. تغريك عقدة الاستحواذ السوداء على كل شيء. لقد دأبت سلالتك على السعي إلى تهشيم كل النواميس، ومع ذلك ما زلت تكابر.** أطلق جوناثان ضحكة هازئة تجاوز صداها الباب: **قلت لك لن ترعبني.**

تذكر جوناثان كيف سُرق المخطوط. كانوا قد قرروا أن يُحرق في طقس غرائبي تكمن مآلاته في مخيلاتهم السوداء. انتبذوا ست عذارى: سوداء، وسمراء، وبيضاء، وشقراء، وحنطية، وصفراء. حدث ذلك في إحدى قاعات القصر الذي يقع في تلك المزرعة، قاعة أضواؤها حمراء خافتة. تجتاحها رائحة غريبة، لمادة مخدرة

تحرق كالبخور، ويأتي من جنباتها صوت موسيقى موغل في الوحشية. دخلت ست فتيات عاريات، إلى دائرة حولها مقاعد يجلس فيها ستة من أبناء الطائر الأسود، عُراة. تجثو الفتيات على رُكبهن، وقد شكّلن دائرة كاملة، أياديهن ممدودة نحو هرم زجاجي، ثُبت المخطوط على رأسه، فأمسكن به. علت الموسيقى، وتكاثر دخان المادة المخدرة في المكان. كانوا قد خططوا أن تسقط كتلة من اللهب من أعلى القاعة، وتُحرق الفتيات والمخطوط، وهم في لحظة النشوة، وسط هتاف أبناء الطائر الأسود، لكن القاعة أعتمت فجأة، وحدثت حركة مفاجئة، أعقبتها جلبة، واستنكار، وأصوات متسائلة. وُجد باب القاعة مغلقًا، حين حاولوا فتحه، وبعد وقت من التخبط، والضجيج، عاد الضوء. كانت وجوه أبناء الطائر الأسود مخذولة، غير قادرة على فهم ما جرى. حين نظروا إلى منتصف الدائرة، وجدوا أن المخطوط ليس في مكانه، لقد سُرق.

* * *

جلس أبناء الطائر الأسود إلى طاولة مستديرة، تتوسط غرفة واسعة لا نوافذ فيها، جدرانها مطلية باللون الأسود، يتدلى من سقفها حبل في آخره ضوء ساطع يسقط على الطاولة، بينما بقية أرجاء الغرفة تعتم تدريجيًّا. كان جوناثان، مالك أشهر مصانع وشركات الأدوية، على شمال «أوديسان» رئيس الجماعة، وأكثرهم ثراءً. أما عن اليمين فقد جلس «نعيم الأصفر» المصرفي الشهير صاحب

سلسلة البنوك والشركات المالية، وبجانبه عمدة المدينة. هكذا اختيرت مقاعد أعضاء الجماعة هذه المرة، إذ تتغير في كل اجتماع، ولا يحق لأحد أن يسأل عن سبب ذلك. أما الأعضاء الآخرون فاتخذوا أماكنهم: «سيرجي» صاحب شركات معامل تهجين البذار الزراعية، «إيثان» مالك أكبر شركات الإعلام والإنتاج السينمائي، «كارتر» إمبراطور الأسلحة، «أمبرويسيو» المسيطر على قطاع الغذاء، «باسيلي» مالك أكبر شركات الحاسوب والاتصالات وتطبيقاتها. كانوا بأمزجة متعكرة، ووجوه شاحبة، ومشاعر طاغية بالضياع. الحال مختلفة هذه المرة، أصبحوا متساوين بسكان هذه المدينة التي يعرفون جيدًا كيف وقعت أحداثها وحوادثها. يشعر معظمهم أن كل ما بنوه عبر تاريخهم الطويل، المتوارث ما عاد يساوي شيئًا.

حينما أشارت الساعة إلى وقت بدء الاجتماع، كان أوديسان منشغلًا بالتحديق في نسخته الشبحية، لكنه تجاهلها عندما وجدهم ينتظرون ما سيقوله. نظر إليهم، والسهو يُحكم قبضته عليه، إذ بدا كما لو أنه عاجز عن الكلام. التفت جوناثان نحوه، ورمقه بنظرة فيها تحذير خفيّ، فانتبه أوديسان، وعلى غير عادته قاطع يديه على صدره، يتحدث بصوت هش:

صحوت عند السابعة صباحًا على صراخ زوجتي وهي تردد: «أُصِبت بالعمى»، كنت لا أزال تحت صدمة سرقة المخطوط. بدت كالمجنونة تمسك بفرشاة الأسنان، تركض في الغرفة، وتشكو فقدان بصرها. ألقت الفرشاة من يدها، وأمسكت بوجهها تفتش

عنه في المرآة. كنت لا أزال في سريري ووجهها الذي يسيطر عليه الفزع يحتل نصف مرآة قبالة السرير. نهضتُ بتمهل، ومشيت نحوها: «كيف أُصبتِ بالعمى وأنتِ تتحركين ولا ترتطمين بشيء؟ لا بد أنكِ تحلمين»، وجّهت إصبعها نحو المرآة قائلة بصوت باكٍ: «لا أستطيع أن أراني»، حين عاينتُ المرآة لم أرني أيضًا. رن هاتفي، فأجبت بيدين مرتعشتين، كان ابني يخبرني عما حدث في المدينة. في تلك اللحظة تحديدًا، رأيت نسخة مني ترافقني في الغرفة، فشعرت أن جسدي مثل بالون غادره الهواء، وسيصبح مجرد قطعة مطاطية ستتلاشى في غضون أيام قليلة. ما يحدث يا سادة أمر لا يصدقه العقل رغم أنه حقيقة لا يمكن التهرب منها. أمر جعلني في ارتباك وفوضى، لأول مرة يداهمانني بهذه الضراوة. كيف لم ننتبه إلى ما تقدمه المرايا لنا؟ وكيف لم نتوقع ذات يوم أن ذواتنا ستختار نهايتنا؟

كان الصمت سيد تلك اللحظات الأصعب في حياة أبناء الطائر الأسود، إذ إن القاعة الواسعة رددت صدى كلمات أوديسان كأنها تؤكد على ما يقوله. نظر في وجوههم واحدًا واحدًا، ثم قال والحسرة بادية في عينيه: **إن ذواتنا تحكم علينا بالموت.** حين انتهى أوديسان من حديثه، وبخلاف اجتماعاتهم السابقة، أنفقوا وقتًا شكا فيه معظمهم أثر الوباء. شكوا ببكائية متضرعة، جاهدوا كثيرًا بإخفائها وراء قناع الشكيمة، وخلف سؤال صامت: **لماذا؟** كان جوناثان يعبث بقلم بين إصبعيه، ويحدّق إليهم، وحينما تحدث

الجميع، تكلم: هل سنبقى نندب حظنا في اجتماع مثل هذا اعتدنا فيه تقرير مصير المدينة برمتها؟ ألا تلاحظون أنكم لم تتطرقوا لسرقة المخطوط؟ اكتسب وجه أوديسان شيئًا من الجدية الباهتة، انسحبت على الآخرين: قُل ما عندك.

صمت جوناثان لثوانٍ، ثم تحدث بصوت هادئ، وواثق: كلكم تعلمون كيف تسير أمور هذه المدينة، وتعرفون الحقيقة، الحقيقة بعينها. غير أننا لا ندري شيئًا عن هذا الوباء. مع هذا أقول إننا لم نخسر ما يجعلنا نبدو بكل هذا الضعف. علينا أن نعثر على المخطوط أولًا، ومن ثَمَّ ننشغل بما يحدث. قاطع إيثان حديثه بنبرة غاضبة، جعلت أوديسان يُصوّب إليه نظرة فيها كثير من اللوم: كيف لم نخسر شيئًا؟ نعم، لم نخسر شيئًا، كل ما هنالك أننا أصبحنا غير قادرين على رؤية أنفسنا، وبتنا نرى نسخة منا. قال أمبرويسيو بنبرة صوتية متهكمة: وهل هذا أمر بسيط يا جوناثان؟ إلى هذه اللحظة، أقدم المئات على الانتحار. إن مكث هذا الوباء طويلًا فستفنى المدينة.

ضرب جوناثان الطاولة بيده: إنهم يختارون الموت لأنهم تبنوا الحقيقة الخادعة بأنهم ماتوا في الأصل، فهذا الوباء يُجرد الناس من نصف دلائل وجودهم، ويُبقي على النصف الآخر. ستصبح النسخة الشبحية حقيقة إن أنصتنا لها. لن أنصاع لهذه الخديعة، وعليكم أن تفعلوا ذلك. عليكم أن تتمثلوا حالة جندي بُترت ساقه في المعركة، فاستعان بقدم صناعية، ليمشي، حتى لو بمشية عرجاء، الأهم أنه لم يخسر كامل حياته. ضيق أمبرويسيو عينيه، وصوبهما

نحو جوناثان: **لن يفكر كل سكان هذه المدينة بطريقتك. تذكر أننا نسعى إلى الإنسان الخالد، هذا الذي تتشارك فيه التكنولوجيا بنسبة نختارها نحن من عقله، فكيف نحقق ذلك إن أفنى الوباء المدينة!**

مسألة الوفيات نسبية. حينها ستتراجع حدة الازدحام. ألا ترى كيف تختنق المدينة؟ قال جوناثان ذلك، ثم مضى في حديثه، وهو يتفرس وجوه أعضاء الجماعة واحدًا واحدًا: **كل ما نحن فيه بسيط، إذا ما تجاوزنا الخوف، وفكرنا كيف نستثمر هذا الوباء غير الأبدي. إن كان ما حدث هو غضب الطبيعة، فإنها ستأخذ حصتها من الضحايا، وينتهي الأمر. الناس ينتظرون قشة يتشبثون بها، لهذا أقترح أن تُصدر العُمودية بيانًا تعلن فيه أن سبب هذا الوباء فيروس مصدره شرق الحي الثالث، بهذا نكون قد كسبنا أمرين: الأول نطوِّع ذلك الجانب من الحي لمصالحنا، والثاني سيكون البيان توطئة لإعلاننا عن اكتشاف الدواء.**

خلال كل ذلك الوقت الذي مضى لم يقل العمدة شيئًا، خلا وجهه من أي تعبير يشير إلى سر صمته. وجَّه جوناثان له سؤالًا مباشرًا، كأنه يأخذ عليه حياده غير المبرَّر: **ما رأيك أيها العمدة؟** أرخى العمدة رأسه على مسند الكرسي، وعيناه على المصباح الذي يتدلى من سقف القاعة: **مع أن كل ما قلته مقنع يا جوناثان، إلا أني أشعر أن ساعة رملية تتراءى لي بين عينَي، وما تبقى في تجويفها العلوي سوى القليل من الرمل.** بدت وجوه معظم أعضاء المجموعة حيرى بين إحساسهم بما حدث، وبين جدوى ما قاله

جوناثان، وما قاله العمدة، إذ بقوا صامتين ينظر بعضهم إلى بعض، ويحدق آخرون إلى الفراغ يفتقدون تلك العزيمة التي اعتادوا التحلي بها.

ضرب أوديسان سطح الطاولة بيده فأحدثت صدى أجفل البعض: **أؤيد مقترحات جوناثان، وأرى أنْ لا حل آخر لهذه المعضلة غير استغلالها من جهة، والبحث عن دواء لها من جهة أخرى.** ابتسم جوناثان وهو يرى سذاجة أوديسان بادية في وجهه: **حسنًا سيدي الرئيس. لا بد من البحث عن الدواء لنشفى، وقبل ذلك علينا أن نبيع الناس دواءً، نقول إن مفعوله يظهر بعد أشهر.** دار جوناثان حول طاولة الاجتماعات، يعقد يديه وراء ظهره مستمتعًا بالدور القيادي الذي يناله للمرة الأولى. قال بصوت هادئ، وهو يتجاهل شبحه الواقف على الطاولة: **أنتم تعرفون أننا حاولنا كثيرًا أن نفهم الإشارة التي وضعها جدنا الأول في مخطوطه لنجد الناي، وللأسف فشلنا كثيرًا، مثلما فشل الذين من قبلنا.** صرخ جوناثان، بعد برهة من الصمت: **ماذا لو وقع المخطوط بين يدَي شخص تمكن من فهم الإشارة، وبالتالي عثر على الناي؟** عاد إلى مكانه، وأخذ ينظر إليهم، ثم قال بصوت منخفض لم يدارِ غضبه: **حينها ستكون نهايتكم يا أبناء الطائر الأسود؛ لذا علينا أن نعثر على المخطوط مهما كان الثمن.**

كان الإحباط يسيطر على معظم أبناء الطائر الأسود، فما كان من جوناثان إلا أن يعيدهم إلى الحقيقة:

تعلمون أننا أحكمنا قبضتنا على المدينة بشتى الوسائل: المال، الجنس، الاغتيالات، الإشاعات، ابتكار النزاعات، اختراع الأوبئة، القوة، مساعدة من يتوافقون مع مصالحنا لنَيل المناصب، تهميش أحدهم مقابل الإعلاء من قيمة شخص آخر. لقد آمنّا بتاريخ هذه الجماعة ومبادئها، وعملنا على أن ينسى الناس جدهم الأول، ومخطوطه، وقيمته التي لو أدركوها لانتهينا، لا يمكن للسواد أن يستمر أمام البياض، والبياض في مخطوط الجد الأول، لهذا ضرب أجدادنا موعدًا لإحراقه حتى تكتمل سيطرتنا على هذه المدينة فننفذ ما تبقى من رؤانا.

في ذلك الاجتماع اتفقت الجماعة على أن يجدوا المخطوط بأسرع وقت، ووزعت الأدوار فيما يخص الوباء بين أعضائها، وكان أولها الإعلام، وقد تعهد إيثان بإعداد خطة سريعة ليُهيئ المدينة لما اتفقوا عليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٥

حين عاد باختو إلى المخيم في ذلك الصباح الذي أصيبت فيه المدينة بالوباء، كان خائفًا على توليب من ألا تعود حاضرة في حياته. ثمة أفكار سوداوية تناثرت في مخيلته مثل مزق قماش سوداء. حين وصل المخيم وجدَ والده شاندور يجلس على فرشة إسفنجية أمام الخيمة، وظِلُّ جسده الكبير يستلقي على الأرض التي بات ترابها مع الأيام قاسيًا كأنه شُيد من الأسمنت، يشذب بكسل لحيته الكثة، مستخدمًا مقصًّا ومرآة صغيرة. أوقف باختو عربته قرب الخيمة، وبقي ساهمًا بأبيه وهو ينظر إليه بطرف عينه، والمقص ينهي اعوجاج شعرات بيض سقطت على فخذه. أخرج شاندور من جيبه زجاجة خمر، وعيناه لا تزالان على باختو، ثم شرب منها جرعة، وأشعل سيجارة. قال وهو يضحك بصوته الأجش: **هل طردوك؟** ثم عاد يشذب لحيته. اقترب باختو منه، بمشيته المتمهلة، ووقف خلفه.

كانت بدور تقرفص قرب صحن معدني كبير تغسل عددًا من الأطباق، وأواني الطبخ حينما رأت باختو، فهرعت إليه تجفف

يديها بطرف ثوبها الفضفاض الملون، والهواء يدفع شعرها الأسود الناعم الممتد أسفل نهديها، فغطى نصف وجهها: **هل طردوك؟** قالت ذلك بخوف، وراحت تترقب ما سيقوله ابنها الذي لولاه لساءت حالهم أكثر مما هو عليه. قال باختو بصوت كسول، ووجهه يجاور وجه أبيه في المرآة: **هل ترى وجهك في المرآة يا أبي؟** وضع شاندور المرآة جانبًا ثم أطلق ضحكة عالية: **ماذا أصابك؟ هل تعتقد أني كبرت إلى هذه الدرجة؟** اختطف باختو المرآة من يد أبيه، ووضعها قبالة وجه أمه، ووجّه لها السؤال ذاته، فأخبرته رغم استغرابها، أنها ترى وجهها. أسرع إلى داخل الخيمة ووجّه السؤال ذاته لزوجة أبيه ميادة، فنظرت إليه متفاجئة، ثم التفتت نحو شاندور: **نعم إني أرى نفسي**. مشى شاندور نحو باختو، والقلق يدفعه لتصويب مشيته الكسولة، ثم وقف أمامه يطالعه بعينين خائفتين: **هل أنت على ما يرام؟** اعتقد شاندور أن حالة ابنه قد تفاقمت، وأن الجنون تمكّن منه هذه المرة.

افترش باختو الأرض، وعقدَ يديه على صدره، ينظر إلى مدينة الجد الأول، وقال بصوت باهت يتخلله الخوف: **سكان المدينة ما عادوا يرون أنفسهم، لا في المرايا ولا في أي شيء. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الوباء يصيب الناس برغبة في الانتحار، إنهم يعانون مطاردة أشباحهم**. صمت قليلًا ثم راح يخبرهم بما حدث بالتفصيل، وهم ينصتون باهتمام مشوب بالاستغراب. حين انتهى باختو من حديثه رجع شاندور إلى حيث كان يجلس غير مصدق ما سمعه، بل بقي عند اعتقاده بأن ابنه أصيب بالجنون.

أمسك بالمرآة، وعاد يشذب لحيته، ثم ما لبث وأن ألقاها من يده. قال بغضب وخوف باديَين على وجهه: **يبدو أنه جُنّ يا بدور؟** أسرع باختو نحو تلفاز يعمل على بطارية، وأدَارَه، فجاء صوت المذيع يقرأ عناوين إخبارية عن الوباء. اقترب شاندور من التلفاز يضع يديه على خاصرتيه، وينصت لما يقوله مذيع تبدو على وجهه ملامح الريبة والانهزام.

مشى شاندور أمام الخيمة، وأشعل سيجارة، ونفث دخانها عاليًا: **هذه المدينة اللعينة تستحق أكثر من هذا. كلما كبرت أكثر، ازدادت شهوتها بطردنا نحن وأمثالنا.** أخرج زجاجة الخمر من جيبه، وشرب منها جرعة، وراح يحدق إلى الأفق. قال كأنه يتحدث إلى شخص لا يراه أحد غيره: **منذ أن وعيت على نفسي ومعظم الناس يعاملون كلابهم أفضل مما يعاملوننا، وكأن جدنا «كين» لا يمُت بصِلة لجد هذه المدينة.** لم يستطع شاندور أن يُقصي ملامح الحزن من وجهه، إذ بدا مثل ولد يشكو أمرًا ما: **ربما أننا ـ مثلما أخبرني أبي ـ ندفع ثمن ما فعله جدنا حين قتل شقيقه فهامَ في الأرض. منذ تلك الحادثة غدا الرحيل خلاصنا، ونحن نمشي وراء الشمس. لكنهم لم يرحمونا، فمنهم من كان يطردنا من دياره، ومنهم من كان يقتل من يتجاوز عمره الثامنة عشرة، ومنهم من كان يضعنا نُصب عينيه لئلا نعيش كالآخرين، وبعضهم كان يمنحنا فقط قوت يومنا مقابل عملنا. لم نجد أمامنا إلا الموسيقى لنهزم حزننا الكبير. وها نحن نعيش في هذا المخيم القذر.** هرس شاندور

السيجارة بقدمه، وصوب عينه على باختو: **هذه المدينة كالغول، وكل مَن فيها ملوثون، حتى الغجر الذين تسلل بعضهم إليها، وسكنوها بعد أن استحالوا إلى أثرياء على نحو مجهول.**

سمع بهذا الحديث مرارًا من أبيه، وهذه المرة بدا له أنه يقوله بوجع أكبر مما مضى. يحب باختو والده كثيرًا رغم إدمانه على الخمر والنساء، ورغم عبثيته وفوضويته. يحبه كحكيم، وموسيقي كبير، ويخشى موته. وقف باختو بقُربه، وطوق جذعه بيده، لا يجد الكلمات المناسبة ليقولها له. لامس شاندور رأسه، وقال مادحًا: **جميل هذا العطر الذي يفوح منك أيها الغجري الوسيم رغم عملك في القمامة.** في تلك اللحظات كانت بدور تتأكد من رؤية وجهها في المرآة، ولا تُلقي بالًا لما قاله زوجها. تركت المرآة، وعادت بارتباك تُكمل تنظيف الصحون، غير أنها نظرت نحو باختو، وتساءلت بخوف مَن لا يفهم شيئًا مما يجري: **هل هذا مرض سيصيبنا؟** قال شاندور بحزم وبنبرة آمِرة: **دعكم من هذه القصة، الشر يقترب ممن يتحراه.**

رغم ما تحمله في داخلها من غضب من شاندور لكثرة علاقاته النسائية، إلا أن بدور تثق بما يقول، وتراه حكيمًا كبيرًا، وقد ترسّخ رأيها هذا حينما شهدت مرة كيف جَنَّبَ المخيم، وبحيلة ذكية، اقتتالًا أهليًّا بسبب امرأة، إذ أشاع أحد الغجر أن ثمة علاقة سرية بين شاب وامرأة متزوجة، وكاد الدم يسفك بسبب ما قيل، فالغجر حينما يحتربون يفعلون ذلك بقسوة مفرطة، دونما أي تفكير في النتيجة.

عرف شاندور ما جرى، والتقى بزوج تلك المرأة، وأبي الشاب، وأمرهما بأن يحتكما إليه، وبأن عليهما أن يرضيا بما يراه مناسبًا، فوافقا. وكما أمر، اجتمع الفريقان اللذان يتجاوز عددهما الثلاث مائة، في أطراف المخيم، عند ظهيرة شمسه الحارقة، وطلب أن يجلسوا حول دائرة اختُطت في التراب، ولا يبرحوا مكانهم إلا حينما يأتي، وينتهي الاحتكام. كان قد طلب أيضًا من الطرفين المختصمَين قبل موعد اللقاء بليلة، أن يأتي كل واحد منهما بديك من دِيَكتهم، وفعلوا. كان شاندور في الخيمة يراقب العدد الكبير من الغجر، وهم يلتفون حول الدائرة، وقد مضى عليهم ما يزيد على الساعة بلا ماء، إلى أن سمع أصواتهم المتذمرة، فجاء بالديكين وسقاهما شيئًا من الخمر، وانتظر إلى أن بدآ يترنحان، فحملهما تحت إبطيه، ومضى نحو الفريقين بخطواته الكسلى، ثم جلس بعد أن أفسحوا له مكانًا. حدق إلى زوج المرأة تارة، ثم بأب الشاب تارة أخرى. قال بصوته الجهوري الخشن، وفي عينيه غضب، وتروٍّ في الآن نفسه: **أعرف أن حتى دِيَكتكم تحترب في أوقات مثل هذه، تمامًا مثلما نحترب الآن مع هذه الشمس الحارقة، التي كنا قديمًا لا نرتحل إلا عندما تتوسط السماء. ليس كل ما يقال حقيقة، وليس كل حقيقة تُقال.** رغم اشتداد حرارة الشمس، والعرق الذي يُخضّب وجوه مَن جاءوا إلى الاحتكام، إلا أن لا صوت يُسمع سوى صوت شاندور: **ليس هناك من سبيل لمعرفة حقيقة ما قيل إلا أن نحتكم لهذين الديكين. سنطلقهما إلى منتصف هذه الدائرة، والغالب هو صاحب الحق، حينها سيكون حُكمي.** أمر شاندور أحد

الشباب بأن يحمل الديكين إلى وسط الدائرة، ويضع أحدهما قبالة الآخر. وبالفعل قام الشاب بذلك، إلا أن الديكين أخذا يترنحان، يسقطان، وينهضان. ضحك رجل على ما يرى، ثم ضحك آخر، وانتشر الضحك بين الجميع حتى المتخاصمان ضحكا، حينها أشار شاندور بيده آمِرًا أن يصمتوا: **أرأيتم، ليس هناك من أمر لتتخاصموا عليه**. بعد أن غادر الفريقان، ذهب شاندور إلى الرجل الذي وشى بالمرأة المتزوجة. سار معه إلى أطراف المخيم، إذ تبين أن سبب ما قاله الرجل هو رغبته في تلك المرأة، فأمره شاندور بألا يتحدث بما رأى.

* * *

في ذلك اليوم ذهب باختو إلى عدد من خيام الغجر وبيوتهم، والمرآة بيده، لكنه لم يجد أثرًا للوباء بينهم. في طريق عودته كان يفكر في أمر المخطوط الذي وجده، وبمدى صحة ما قاله ذلك الرجل المُسِن. شعر بخطورة ما بحوزته، وخشي على نفسه إن افتضح أمره، فأكمل طريقه نحو الخيمة مسرعًا، ليتأكد من أنه أغلق الصندوق، وأن المخطوط لا يزال في مكانه، خوفًا من أن يراه والده الذي يعتقد أن أي ورقة تحتوي على كتابة، بالضرورة ستجلب الشرور. يؤمن شاندور بما ورثه عن أجداده من معتقدات، ولا يجرؤ أحد من مخيم الغجر على التهاون بأمرها أمامه، رغم الاختلافات بين سكان المخيم، لهذا كان قد عارض رغبة بدور، في أن يتعلم باختو القراءة والكتابة على يدَي أستاذ المخيم.

حين عمل باختو في المدينة، خبّأ الكتب عن عينَي والده في صندوقه، كتبًا وجد عددًا منها مُلقى في حاويات القمامة، والعدد الآخر اشتراه من مكتبات المدينة. يقرأ بعضها سرًّا عن أبيه، يدُس الكتاب تحت قميصه، ويمشي بعيدًا عن المخيم، نحو جبل الجد الأول، يفترش التراب، ويقرأ. يقرأ في نهايات الأسبوع، وفيما تبقى من النهار عندما يعود باكرًا. حين يقرأ يشعر بطائر يحمله بعيدًا عما يُثير فيه الحزن، وهجمات المشاعر السوداوية، فيجد أن الحياة أكثر رحابة من مخيم الغجر ومن المدينة. وكلما توغل في القراءة، غدا أكثر زهدًا، وهذا ما حدث له، فحين لم يتبقَّ لديه ما يقرؤه، وجد الكُتب المجانية الإلكترونية بديلًا جيدًا، خيار لن يعلم عنه والده. في أحد الأيام نسي باختو صندوقه مفتوحًا، وفي غيابه، حمل شاندور ما وجده من كتب وأحرقها، وهو يلعنها خشية من الشرور الكامنة في صفحاتها.

حين وصل باختو الخيمة كان نفَسه سريعًا، ومتلاحقًا. تفقّد الصندوق، وإذا به مغلق، والمخطوط لا يزال فيه، فاستلقى على الأرض، بينما شاندور يجلس ساهمًا في السهوب الجرداء، في وقت تجاوزت فيه الشمس منتصف السماء نحو جبل الجد الأول. سأل والده: **هل تعرف شيئًا عن أبناء الطائر الأسود؟** قال شاندور دون أن ينظر إليه: **سمعت عنهم وأنا في بدايات شبابي، يبدو لي أنهم عصابة، أو شيء من هذا القبيل.**

التفت شاندور إلى باختو مستغربًا: **لماذا تسأل عنهم؟** توسد باختو يده يرنو إلى الأفق، وأجاب بطريقة توحي بعدم الاكتراث:

جاء ذكرهم في فيديو رأيته البارحة. قال ذلك ثم راح يفكر: **ماذا يحتوي ذلك المخطوط؟ وأين يمكن أن أداري شيئًا مثل هذا، إما أن يجلب لي الحظ، وإما الشرور؟** خطرت بباله اقتراحات كثيرة أقربها لقلبه أن يخبئه عند توليب التي أيقن أنه أحبها منذ ذلك اليوم، وبات يرى الحياة على نحو أجمل مما كان يراه من قبل.

استلقى على ظهره ينظر إلى السماء وقد خلت من الغيوم في ذلك النهار. تذكر اليوم الذي ذهب فيه مُلبيًا دعوة توليب إلى معرضها الفني. كان محتارًا، وخائفًا، لكنه مدفوع بشغف غريب. رأى أن يضيف لمعرضها الفني لمسة تفاجئها، فحمل كمنجته معه. ثمة أشخاص عرفوه في المترو الذي يذهب إلى الحي الثاني، كانوا يرمقونه بنظرات متعالية، يعلم باختو أنها نظرات استهجان لوجود غجري بينهم، أما الآخرون فكان معظمهم يحدقون إلى هواتفهم النقالة، ولا يرفعون رؤوسهم عنها إلا عندما يشير المنبه إلى قرب الوصول إلى المحطة القادمة. استغرب باختو كيف أصبح الناس أسرى لتلك الهواتف، وكثيرًا ما امتعض من أن الكثير منهم لا يرفعون أعينهم عنها حتى وهم يمشون في الشارع. قرأ ذات مرة مقالة يرى كاتبها أن الكلام قل بين الناس جراء عوالم الاتصالات الحديثة، شحّت العلاقات بينهم، وما عاد لروح الجماعة أثر إلا القليل، وتخلقت أعطاب نفسية جديدة، وبات الكثير منهم شغوفين بتوثيق أي مشهد يُحقق متابعات عالية.

كان باختو يراقب الركاب، وهو يشك بصواب ما هو ذاهب إليه، هل يمكن لحفل معظم رواده من الفنانين أن يقبلوه بينهم!

أما صورته فقد شعر بأنها مجرد لقطة استغلتها فتاة ربما تسعى إلى الشهرة! لهذا غادر المترو عند أول محطة، لكنه بقي ضحية تردُّده لدقائق كان فيها يصارع رغبته بلقاء توليب، وخشيته من مجتمع لا يتقبل الغجر، مع هذا صعد من جديد إلى المترو، متسلحًا بتوقعات مسبقة لما يمكن أن يحدث.

على بُعد أمتار من الجاليري توقف باختو يلتقط أنفاسه. رأى توليب تقف عند الباب قلقة، ويعتريها ما يشبه الخجل، وأحاسيس أخرى لم يفهمها. توقع أن ترتدي ما يناسب ذلك الحدث، لكنه وجدها بالملابس ذاتها التي كانت ترتديها يوم التقيا آخر مرة: بنطال من الجينز، وبلوزة بيضاء، وحذاء خفيف. كان يحدق إليها وأثر اللقاء الأول يسري في روحه، ويضفي عليها إحساسًا طاغيًا بالسكينة، لحظات منحته فرصة أن يرى الفتاة التي باتت مدار تفكيره من زاوية جديدة، إذ بدت له لا تشبه نساء المدينة، بل الفتاة التي كثيرًا ما حلم بها، فتاة غادرت ورق الروايات التي استحوذت على مخيلته الخصبة، وحطَّت على أرض هذه المدينة. يؤمن باختو أن النساء اللواتي قرأ عنهن في الروايات حقيقة وليس خيالًا، وأن العثور على إحداهن أمر مرهون بالإيمان العميق بوجودهن الأبدي. حدث ذات مرة أن أعجب بفتاة غجرية كانت ترقص في إحدى حفلات المخيم على أنغام موسيقاه، وصارا يلتقيان ليلًا في أطراف المخيم، لكنه وجدها مجرد امرأة على هامش ما يحلم به، فقرر ألا يكرر تلك التجربة.

* * *

أخرج باختو كمنجته من حافظتها، وسار باتجاه توليب، يعزف أغنية نوَّار التي كان يرقص على أنغامها يوم التقيا في الحي الثاني. فوجئت توليب، وراحت تُديم النظر إليه، وهو يرتدي بذلة سوداء، اشتراها بما ادخر من مبلغ لا تعلم عنه عائلته التي استغربت هيئته حين غادر المخيم بكل تلك الأناقة. بدلت الدهشة ملامحها، ولمعت عيناها بسرور غير معتاد، بينما باختو يسند بيده الكمنجة إلى كتفه، وبيده الأخرى يلامس الأوتار بالقوس، فيشيع في صالة الجاليري لحنًا حزينًا يدعو للتأمل. كان هناك ما يفوق الثلاثين شخصًا راحوا ينصتون لتلك الموسيقى. عرفه بعضهم، أما الآخرون فلم يعرفوا أنه الغجري، عامل النظافة، وقد بدا في ذلك اليوم أكثر وسامة وأناقة، وأكثر ثقة بنفسه، خاصة حين لم يجد نفورًا من أحد.

عندما توقف عن العزف، عرّفت توليب من حضروا معرضها بباختو، وأشارت إلى صورته التي وضعتها في مكان بارز، ولاقت إعجابًا كبيرًا من المهتمين بالتصوير الفوتوغرافي. وقف باختو أمام الصورة التي طُبعت بمقاس ١٠٠ سم في ٥٠ سم: جسمه مرتفع في الهواء قليلًا، وقدماه مثنيتان إلى الوراء، وشعره متناثر، وعلى فمه ابتسامة عريضة، وعيناه مُغمضتان، وبين يديه المكنسة. شعر باختو بزهو كبير، خاصة حين وجد الصورة تنال إعجاب مَن التفوا حوله، وهو ينظر إلى توليب بعينين مفعمتين بالبهجة والقُرب، غير أنه خشي تلك المشاعر السريعة من غجري نحو فتاة لا تمت لعِرقه بشيء.

٦

أحس باختو، حين دسَّ المخطوط تحت قميصه، أنه يُخبئ مدينة الجد الأول بأسرها هناك، إذ كان صوت ذلك الرجل المسن يرن في أذنيه، وسط ذهول الناس مما فعله الوباء. كل ما شعر به وهو يمشي تاركًا المخيم نحو جهة جبل الجد الأول، أن سرًّا ما تداريه تلك الرقع الجلدية البالية، يتعلق بحال تلك المدينة التي باتت مثل لغز يستحيل تفكيكه. ابتعد مسافة كافية عن المخيم، واختار مكانًا قريبًا من صخرة كبيرة يستلقي ظلها على الأرض، وجلس مفترشًا التراب. عن يمينه مخيم الغجر، وأمامه المدينة، وعن شماله جبل الجد الأول، وقد اقتربت الشمس من قمته، فسعى ظله ببطء، يبدل لون تلك المنطقة الجرداء.

إلى جانب فضول كبير لمعرفة ما تضمه صفحات المخطوط، اجتاحت باختو الدفقات الشعورية ذاتها التي أحس بها في المنام. أغمض عينيه للحظات، ثم بيدَين مرتعشتين، لامس رقع المخطوط الجلدية الخشنة، وشمَّ رائحتها الغريبة، وبرهبة طاغية، فتح دفتَي المخطوط، وراح يقرأ:

«أنا جدكم الأول، وما تقرؤونه الآن بعض مما رأيت. أتيتُ من قرية بعيدة، تصحبني جدتكم، إلى حيث تعيشون الآن في هذه البلاد التي لم يكن فيها إنس، فعمرناها رغم الحيرة، والظلمة، والبرد، والوحشة، والجوع، والخوف، والوحوش الضارية، وألفناها عندما غدا كل منا أنيسًا للآخر، وملاذًا له. عند الفجر الذي وُلد فيه أول نسلنا، رأيتُ طيورًا بيضاء كثيرة، تأتي من الأفق، وتحط على شجرة قرب الكهف الذي يأوينا. كانت بشارة خير منحتنا الكثير من البهجة. وحين وُلِد طفلنا الثاني جاءت طيور سوداء وحطت على الشجرة ذاتها، فلم أنم لسبع ليالٍ متتاليات، وأنا أتساءل مرهقًا: تُرى هل هذا نذير شر، أم أنها محض طيور أتت لتمضي؟ لم أجد الإجابة رغم ما فعلته هواجسي بي من خوف، إذ إن الطفل كان وسيمًا بشوشًا، ليس في وجهه ما يبرر تخوفاتي. إلى أن كبر الولدان، واتضحت الفوارق بينهما، فالأول طيب مِعطاء، والثاني وراء قناعه وجه آخر غير الذي كان يُبديه لي ولأمه.

مع هذا لم يخطر في بالي أن تمر الأيام ويتقاتل أحفادي، مدفوعين بما فيهم من شرور لا جذور لها، لا عندي، ولا عند جدتهم التي هزل جسدها، ومرضت عيناها، وأعتمت روحها، فالجناة والضحايا أبناء رحمها. في تلك الليلة السوداء، رأيت، والناي بين يدَي، ما يمكن أن تئول إليه سلالتي. كان الأمر مرعبًا، ولم أَبح به لأحد. مضت سنوات طويلة، وكثر

أبناؤنا، فتناسلوا. كثرت البيوت، وراحت تجتاح الفراغ، ومشهدا الطيور البيضاء، والطيور السوداء لا يفارقان ذاكرتي. أخذ الشر يتمدد بين سلالتي كهواء مسموم، فما إن تمضي أعوام حتى يُقتل أحدهم، أو يضع أحد يده على ما ليس له. وكلما تكاثروا، قصرت يدي عن فعل شيء. في تلك الأيام ضاقَ بي المكان، ولم أستطع أن أبقى في القاع، رأيت موطننا الجديد قاعًا، يهبط بي منذ تلك الحادثة، لذا اخترتُ رأس الجبل، فأصبح ملاذي، أتبصر الطبيعة، وأتمعنُ بها، في ليلها ونهارها، وأنصت لموسيقاها، فأدركت حكمة الله من وراء فكرة البذرة. وأدركتُ حقيقة ذلك الناي الذي كان بحوزتي حين مضينا هائمين على وجوهنا نحو هذه البلاد. عرفت الحكمة من علاقته بتلك الشجرة التي صنع منها، ولماذا نُذِرَ لزمن قادم. ومن هناك، من ذلك العلو، ومع مرور كل عام، بتُّ أرى بفضل ذلك الناي ما ستئول إليه سلالتي. لست عرافًا، ولا عالِمًا بالغيب، لكني كلما فكرت في أحفادي حين كانوا صغارًا، ثم كبروا، وتقاتلوا، عرفت أكثر. وكلما عرفت تملّكني الخوف على مصير أحفادي، لهذا أدوّن ما رأيت».

أحسّ باختو كما لو أنه يطل لأول مرة على الحياة، من وراء صخرة كبيرة، كثيرًا ما حَجبت عنه الحقيقة. إن ما قرأه ليس إلا تأريخ لأول الآلام، وضوء على مدينة أخذت العتمة تتفشى في جنباتها منذ زمن بعيد. التفت نحو الجبل وطرف قرص الشمس للتو يلامس رأسه العالي، ثم إلى المخطوط، وثيقة استبصر كاتبها

في ذلك الزمن العتيق ما يفجع له القلب، وما يحيط الروح بخوف مما سوف يأتي من جهة الغيب الذي ما عاد غيبًا، ولا نبوءة، بل حقيقة مُرة.

عاد من جديد يقرأ في المخطوط بتمعن مشوب بالخوف والترقب، إلى أن وصل إلى ما وجده نداءً من الجد الأول:

«ستتكاثر سلالتي، ومع كل مولود سيولد شر، لكن الخير سيقف له بالمرصاد، إنها حرب أبدية، سيخوضها أحفادي بلا نهاية. اعلموا أنه لن يمر عام يسوده الخير وحده، ولن يمر عام يسوده الشر وحده، فهما خطان متوازيان، لا لقاء بينهما، ولو شُبِّه لكم. فستعتقدون في أحيان أن الخير انتصر، وفي أحيان أخرى ستجدون الشر يعلو كما لو أنه سيدوم أبد الدهر. هكذا هي حياتكم، صراع هذين الخطين. مع مُضي كل قرن يمر ستتبدل أشياء كثيرة: طباع الناس، ميولهم، رغباتهم، نظرتهم إلى ما حولهم، قوتهم، ضعفهم، أذواقهم، مبادئهم. كل شيء سيتبدل: الأماكن، الأشجار، الطيور، الأنهار، إذ تُمحى أشياء، وأشياء تدوم، إلا ذلك الضوء الذي ينيره الله في أرواحكم، فتتيقنون أن هناك طريقًا واضحًة في الأفق. ستنقسم سلالتي إلى جماعات، كل واحدة منها ستحتمي بنفسها، وهي تضمر للأخرى ما لا يُشاع. ستطمع جماعات بأخرى، تسطو على قوتهم، وأمكنتهم. سيتقاتلون، فتسيل الدماء، وتمضي عجلة الزمن، وينسى البعضُ، والبعضُ الآخر يبقى رهين ذاكرته. ستحل الفوارق

بين الناس، على ألوانهم، وأديانهم، وبما يملكون. ستتبدل عادات الناس، ويصير ما كان مُحرمًا مباحًا. وما كان مُباحًا يغدو ممنوعًا. ستكتشفون في زمن ما، أن زمرة قليلة ستستغل ما تبدل، وتمضي به، فتُحكم قبضتها عليكم، فتقف وراء معظم ما تُمْنَونَ به، أشخاص لن يجمعهم لا عِرق، ولا دين، ولا لون، بل شهوة التَّحَكُّم، التي لا تتحقق إلا بالولاء المطلق للشر. إنهم يعرف بعضهم بعضًا، إذ إن لهم ميولًا، وسمات، وطبائع واضحة، رغم الأقنعة. سيتحركون بينكم، وربما تُخدعون بهم، فتحبونهم. سيُغيرون حتى طعم الهواء. ستشتعل حروب، وتستفحل أمراض تعتقدون ألا دواء لها. ستُلقون بفئوسكم، ومعاولكم حين ترون ألا طائل منها. ستصبحون شرهين في الطعام، رغم أن كثيرًا منكم لن يجده، فيفنى. ستصيرون عبيدًا لأجسادكم، فتغرقون. إنها جماعة مصابة بشهوة الهيمنة، ستبدل القوانين التي تضبط شركم من ألا يختلط بخيركم، فتحل الكارثة. سيبذلون جهودًا في تغيير معتقداتكم. سيعبثون بأجسادكم، ويدفعونكم للحرية المطلقة، والخرافة، والزهد بالعقل، والروح، سعيًا إلى الإنسان الخالد، الذي ما هو إلا كائن في قبضة أيديهم. ستعرفونهم حين يعلنون عن أنفسهم بانتمائهم للطائر الأسود، سيفعلون ذلك حينما يرون أنهم على مقربة من الهيمنة المطلقة. لكن أمرًا محتومًا سيحدث، فتصبحون غرباء عن ذواتكم، بما فيهم أولئك المنتمون إلى السواد،

لحظة قاسية لا يبددها إلا عثوركم على الناي، وطريقكم إليه: طائر أبيض، بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة. من يجده عليه أن يبيت ثلاث ليالٍ في مكانه. سيسمع في منامه معزوفتين: الأولى عليه أن يعزفها منتبذًا كل ليلة جماعة من سلالتي، حينها سيشفون، لأَجَلٍ هم مَن يطيلونه، أو يقصرونه. أما الثانية فيعزفها إن تعاظم الخطر، حينها سيكون ما نذر الناي لأجله».

توقف باختو عن القراءة، ينظر تارة إلى المدينة، وأخرى إلى جبل الجد الأول. كان كمَن أشرعت أمامه نافذة عريضة لرؤية ما لم يره، وفي الوقت ذاته شعر بأن ذلك المخطوط اختطفه إلى لذة بداية هذه المدينة، وإلى مفتتح خساراتها. ثمة دويٌّ ألَمَّ برأسه، فالأمر ليس هينًا على الإطلاق. عاد إلى المخطوط، وقرأ الدليل من جديد: **طائر أبيض، بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة**. تمتم في سره: **رأيت تلك الطيور في المنام**. قال ذلك وكأنه يُحدّث أحدًا يشاركه فَهْم تلك الإشارة. تأمل المدينة، وجبل الجد الأول مرة أخرى، غير مصدق أن الجد نفسه يخاطبه بهذه الكلمات. وجد للمرة الأولى في حياته ألا فرق بينه وبين أحد في مدينة الجد الأول، وشعر أنه معنيّ بما حلَّ بها، بل إنه الوحيد المعنيّ بذلك، وأن عليه البحث عن الناي. خطر بباله ما حذّر منه الرجل المسن، فحدَّث نفسه بشيء من الخوف: **من المحتمل أن أبناء الطائر الأسود يبحثون الآن عن المخطوط.**

أدرك باختو أنه للمرة الأولى في حياته يمتلك شيئًا خطيرًا، بل إن بمعيته شيئًا فيه حَلٌّ لما حدث للمدينة بأسرها. أطلق صرخة ابتهاج مردها الإحساس بأهميته، بعد زمن من الشعور الدفين بالدونية والخوف والقلق في مدينة ترى الغجر مجرد حشرات عليهم مكافحتها. فتح المخطوط، وأعاد قراءة الإشارة: **طائر أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة.** تفحص تلك الكلمات، يسعى لمعرفة ما بين الطائر والناي من رابط يدله إليه، غير أن خشيته من أبناء الطائر الأسود شوشت قدرته على التركيز، فقد احتار أين يخبئ المخطوط: في مُخيم الغجر، أم عند توليب، أم عند نوَّار؟

كان نوَّار أشهر مُغنٍّ في المدينة، حينما يقام له حفل في المسرح البلدي يتدافع الناس على حجز تذاكرهم قبل أشهر من يوم الحفل، ويصطفون طوابير لأجل الدخول. كان نجمًا تتناقل محطات التلفزة أغنياته، وأخباره، ومع تقدم سنه التي تجاوزت السبعين، ومع موجات الأغنيات الجديدة أخذ نجمه في الأفول شيئًا فشيئًا، بالكاد تذكره وسائل الإعلام مرة في العام. نسيه الناس، ونسيه حتى كثير ممن كانوا يحبون أغنياته، فأدرك أنه ما عاد مناسبًا للمرحلة الجديدة، لهذا اختار عزلته، وما عاد يخرج إلا مساءً أول خميس في كل شهر، يتأنق، ويجلس صامتًا لساعتين متتاليتين، بباب المسرح البلدي المهجور، ثم يعود إلى منزله تجرحه الذكريات. في بدايات سلوكه هذا تعاطف معه البعض، وانتشرت أخباره في وسائل الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي، مع هذا لم يطرأ على حاله

شيء، إذ بقي فقيرًا يتقاضى راتبًا زهيدًا من النقابة، يعتاش عليه في وحدته بعد أن انفصل عن زوجته.

انفضّ الكثير من حوله إلا صديقه الدكتور أدهم، وباختو، الذي صار يعرف موعد ذهابه إلى المسرح البلدي، فتقرب منه، لكن نوَّار صدَّه رغم تكرار محاولاته، إلى أن سمع باختو عن عاصفة مفاجئة في مساء اليوم الذي سيخرج فيه نوَّار إلى المسرح البلدي. كان في طريقه إلى حفل زفاف في أطراف المخيم، فعاد وقد أخذت السماء تمور بالغيوم، واشتدت الرياح مرة واحدة. تلبّسه القلق على نوَّار، إذ كان يمكن أن يفقد حياته في طقس عاصف مثل ذاك. كان نوَّار قد خرج من بيته، واستقل سيارة أجرة إلى المسرح البلدي، بينما الرياح تتدفق بشدة في الشوارع، حاملة معها أوراقًا، وعلبًا فارغةً، وغبارًا، وتشيع كثيرًا من الوحشة بصفيرها العالي. مع ذلك وبصعوبة بالغة، صعد درجات تؤدي إلى بوابة المسرح العريضة، والرياح تدفع بجسده يمينًا وشمالًا، على مرأى من السائق الذي توقف قليلًا، يحاول أن يفهم ما الذي يأتي بعجوز في طقس مثل هذا إلى مكان مهجور ستهدمه البلدية. بتمهل كبار السن جلس نوَّار على عتبة مرتفعة قرب البوابة، والرياح تدفع ببعض مزق الأوراق والغبار عند قدميه. أرخى يديه المجعدتين على رأس عكازه، يحدّق إلى الشارع الذي خلا من المارة، والسيارات. ما هي إلا ثوانٍ حتى أفرجت السماء عن زخات رعدية من المطر، بدأت خفيفة ثم اشتد هَطْلها إلى أن باتت تحجب عن عينيه الشارع، وما وراءه من بنايات،

لكنها لم تحجب عنه رؤية جمهوره المتخيَّل. في تلك اللحظات والماء يُبلل رأسه، انزلقت خصلات شعره التي كانت تغطي جزءًا من صلعته، واستقرت قطرات الماء على نظارته، وابتل جسده الهزيل. أخذ يُغني بصوت مرتجف، متخيلًا أمامه جمهورًا عريضًا، وخلفه فرقته الموسيقية.

لم يرَ باختو، وقد توقف أمامه لاهثًا بالكاد يقوى على التقاط أنفاسه، جراء تلك المسافة التي عَبَرها جريًا، خلال ما فعلته العاصفة. حثّه باختو على العودة إلى منزله، بل إنه توسله. كان يتحدث إليه كما يتحدث ولد خجول أمام أناس ينظرون إليه بعيون مترقبة. وحين رأى أن العجوز ربما يفقد حياته، أمسك بذراعه، وراح يصرخ به، يطلب منه أن يغادر ذلك المكان. لم يره نوَّار، ولم يسمعه، كان مستغرقًا بما في ذاكرته من عالم مُفتقَد.

تراجعت غزارة المطر قليلًا، ولم يبدر من نوَّار سوى نظرة لم يفهم باختو ما وراءها. حينها أخرج باختو كمنجته من حافظتها، وعزف أغنية شهيرة من أغاني نوَّار. في البدء لم يُبد العجوز أي اهتمام، غير أنه مع استمرار العزف، أخذ يغني بصوت خفيض جدًّا، ثم شيئًا فشيئًا علا صوته المرتجف مع الموسيقى. نهض من مكانه، ووقف بصلابة مفتعلة، ينظر إلى الأفق، وغزارة المطر تعود من جديد، كأنه يواجه جمهورًا عريضًا، يغني ويداه ترتفعان وتنخفضان، بينما الماء يُغرق ملابسه، إلى أن سقط أرضًا. كان نوَّار بين الإغماء والصحو، حين هرع إليه باختو، وطوّق عنقه

بيده، وهو يغني بصوت مُشتت. أسند رأسه على حافظة الكمنجة، وركض نحو الشارع يفتش عن سيارة أجرة، ثم عاد وحمله بين ذراعيه، ووضعه في المقعد الخلفي للسيارة، وطلب من السائق أن ينطلق إلى منزله الذي لا يبعد كثيرًا عن المسرح البلدي.

في البيت بدَّل باختو ملابس نوَّار، وقرَّبه من المدفأة، ثم أعدَّ له كوبًا من الشاي. كان مطيعًا له، وكأن هذا ليس اللقاء الأول بينهما، بل غدا أكثر هدوءًا، وإحساسًا بالطمأنينة. ليلتها بقي نوَّار ينظر صامتًا إلى باختو، وباختو يبادله الصمت، ليمنحه فرصة ليتخلص من توتره، وليتأكد من أن مكروهًا صحيًّا لم يُصبه. إلى أن تساءل نوَّار: **ماذا تريد مني؟** لم يدرِ باختو لحظتها بماذا يجيب، هل يقول له إنه يحفظ معظم أغانيه منذ الصغر، وإنه يحس جيدًا بما يوجعه، أم يصمت؟ كرر نوَّار سؤاله، بشيء من الحزم: **ما الذي تريده؟ لا أريد منك شيئًا.** نظر نوَّار إلى النافذة، والمطر يصفع زجاجها بقوة، ومن ورائها تلوح له شجرة سرو تكاد الريح تقتلعها، ثم أشار إلى باختو أن يقترب منه، وحين استجاب باختو، لامس نوَّار رأسه بحنو، ووجهه يمتلئ بالوقار: **لست مجنونًا يا بني، ولست شخصًا يسعى إلى التعاطف.**

كاد نوَّار أن يمتثل للبكاء لولا أنه صمت قليلًا، ثم عاد يخبر باختو بما لم يسمعه أحد من قبل: **أعرف يا بني أن لهذه المدينة نسخة أخرى لا تعترف بأمثالي. كثير ممن رأوني بباب المسرح البلدي اعتقدوا أني مجنون، إلا أنت. لكنهم لا يعلمون أني لو لم أفعل ذلك لجُننت. أتذَكَّرُ اليوم الأول الذي أتيتَ فيه تجلس قريبًا مني**

عند باب المسرح، رأيت حينها في عينيك ما لم أره في عيون الذين سخروا مني وهم يمرون كاتمين ضحكاتهم، حتى إني لم أره في عيون من أنفقوا لأجلي عواطف مؤقتة وغادروا. أمسك نوَّار كوب الشاي، بينما باختو يتفكر فيما يسمعه: **في داخل كل واحد منا وحش كاسر، قبالته حمَل وديع، وكل له دائرة لا يغادرها، لأن ثمة ضوءًا يُلقي بشعاعه عليهما بحيث لا يترك أي منهما مكانه، حينها إما أن يصبح ضعيفًا، وإما متوحشًا. مكتبة سُر مَن قرأ**

ترك نوَّار الأريكة التي كان يجلس عليها على مقربة من المدفأة، وسار بخطوات بطيئة نحو مكتبة في صالة الجلوس، اختار كتابًا، وعاد إلى مكانه. كانت نظارته ترتكز على مقدمة أنفه، ووراءها عينان حادتا الذكاء: **الإنسان كائن موسيقي قبل أن يكون لُغويًّا، إذ إنه عرف الموسيقى قبل اللغة، فقد أنصتَ للريح وهي تمرّ بين الصخور، والأشجار، والجبال، وعبر الوديان، وقلّدها. عرَّفته الطبيعة رغم ما فيها من قسوة، وحيوانات متوحشة، على جوهرها، فأدرك ما معنى أن يكون إنسانًا، ثم تكلم.**

أغلق نوَّار الكتاب، وراح يُبسِّط ما قرأه، من غير أن يعرف أن باختو يقرأ أكثر مما يتكلم. أمسك باختو بالكتاب، وتساءل بدهشة: **كل هذا تفعله الموسيقى؟** قال نوَّار بصوت مليء بالطمأنينة: **الموسيقى هي الضوء الذي يحافظ على المكان الطبيعي للوحش والحمَل.** ليلتها حدَّث نوَّار باختو عن الموسيقى التي لا تنحصر فقط فيما تُطلقه الآلات، بل أيضًا عن الموسيقى الصامتة، جوهر الطبيعة التي على الإنسان أن يعود إليها ليتخلص من معظم أزماته.

لم يسمح نوَّار لباختو أن يعود إلى مخيم الغجر في ذلك الطقس العاصف، بل طلب منه أن ينام في بيته. اتصل باختو بأمه، اطمأن على حال الخيمة أمام تلك الريح الشديدة، وأخبرها أنه سيبيت في المدينة. ابتسم نوَّار وهو ينظر إلى هاتف باختو النقال: **إنه مشهد شديد الغرابة يا بنيَّ. تتيح لك المدينة عبر هذا الصندوق الصغير، أن تُجري اتصالًا بعائلتك التي تقطن خيمة في ليلة عاصفة، وهي في الوقت نفسه تطردك خارج حدودها.**

ذهب نوَّار إلى سريره ونام سريعًا، وبقي باختو في صالة الجلوس، حيث لا صوت سوى صفير الريح، ونقرات عقارب ساعة حائط عتيقة. وقف إلى نافذة تطل على حديقة تهتز أشجارها بقوة، ومن ورائها يلوح بعضٌ من أضواء بيوت الحي الثالث المتفاوتة في طُرزها المعمارية، وحداثتها، فمنها ما بُني من الأسمنت المسلّح، ومنها ما بُني من الحجر. هناك بيوت لا تزال صامدة رغم أنها شُيدت من الحجر والطين، وهناك عمارات قديمة سقطت على رؤوس ساكنيها. إنه حي نصفه تقليدي في البناء وسُبل العيش، ونصفه الآخر حديث، مُقَلِّدٌ للحياة في الحيَّين الأول والثاني.

فكر باختو في أول ليلة له يبيت فيها في منزل له باب ونوافذ، ولا أثر فيه للريح إلا صدى صفيرها. لم يخشَ على المخيم في طقس مثل هذا، فقد اعتاده ساكنوه، وباتوا قادرين على التعامل معه، إنما أشغلته طبيعة الاعتياد نفسه، إذ كان يعتقد قبل أن يزور المدينة ألا حياة خارج حدود المخيم، ولا بد أن كثيرًا من الغجر

يرون أن صراعهم مع طقس عاصف مثل هذا أمر طبيعي، ولا سبيل إلا تقبله. قَرَّبَ المدفأة الكهربائية من المقعد الذي جلس عليه، يقرأ في الكتاب الذي يتطرق إلى حكاية الإنسان مع الموسيقى. كان يقرأ الصفحة لأكثر من مرة، ويدقق بما يقال فيها. تأمل أسطرًا لفتت انتباهه: «**عندما خاف الإنسان الأول، التجأ بلا وعي إلى الموسيقى، كانت مجرد أصوات عشوائية يُطلقها إما طردًا لما يعتقد أنها أرواح شريرة، وإما للتقارب مع الآخرين**». فكر في تعلق أبيه الكبير بكمنجته، وبما دفع نوَّار إلى أن يخرج نحو المسرح البلدي في طقس مثل هذا. في تلك الليلة قرأ باختو نصف صفحات الكتاب، ونام وهو يحلم بالموسيقى.

في الصباح، عند الباب بينما باختو يتهيأ للمغادرة إلى عمله، قال له نوَّار بصوت هادئ إن **عزفه مُتقن، وما يميزه أن فيه روحًا لا تشبهها إلا أرواح الطيور التي ترى الأرض من مسافات عالية**. منذ ذلك اليوم صارا صديقين، يزوره باختو ثلاث مرات في الأسبوع، ونجح في إقناعه بألا يذهب إلى المسرح البلدي.

٧

هبطت الشمس وراء جبل الجد الأول، فاستلقى ظله الخرافي على ذلك السهل الممتد، الذي نشأ فيه مخيم الغجر. ندبة لن تُمحى من جبين المدينة، بعد أن صنعت فكرة اللجوء، والتهجير، سعيًا إلى نقاء زائف، وإلى شبع وهمي. شيئًا فشيئًا انداحت الظلمة من الأفق، وسطعت أضواء المدينة. من جنوبها، جنوبها الحزين، أخذت مصابيح المخيم الشحيحة، ببيوته الهزيلة، وخيامه التي تخشى الرياح دومًا، تفاوض العتمة لتعود عن شيء من وحشتها القاسية. في تلك اللحظات كان باختو يُقلب المخطوط بين يديه، يحتار أين يخبئه. كان يمكن أن يعهد به لتوليب، لكن ما من طريق تؤدي إليها إلا ومحفوفة باحتمالات كثيرة من افتضاح أمره، حينها سيقتلونه كما قال الرجل المسن، لهذا ما كان أمامه سوى أن يتوارى خلف الصخرة التي تبعد عنه مسافة قصيرة، وحفر حفرة، على بُعد متر منها، باتجاه الجبل، ودفنه فيها. تساءل: **ما مصير المخطوط لو حدث مكروه له؟** حينها اختار حجرًا رأسه مدبب وأخذ ينقش

على الصخرة شكلًا لطائر جناحه يتجه نحو جهة اليمين، كانت إشارة إلى مكان المخطوط.

في ذلك اليوم لم يعد باختو إلى المخيم، بل سار عبر الطريق الترابية نحو المدينة ليلتقي توليب. كان بحاجة قصوى إلى أن يخبرها بأمر المخطوط، إذ إن ما حدث قد أشاع فيه مشاعر مختلطة من الغبطة والخوف والارتباك. كانت الطريق معتمة، لا أصوات عبرها سوى نباح كلاب تأتي متفاوتة من مخيم الغجر. لم يقل لها إنه آتٍ للقائها، صار أكثر حرصًا، وخوفًا، وتتلبسه الحيرة أمام أسئلة تعبث برأسه: هل هي محض صدفة أن يجد المخطوط في مساء ذلك اليوم، وهل عليه الذهاب للبحث عن الناي، وكيف سيجده، وليس هناك من دلائل سوى بضع كلمات قالها الجد في تلك السنين الغابرة؟!

وهو في طريقه إلى توليب تذكّر باختو كيف صارا، بعد معرض الصور الفوتوغرافية، يلتقيان في الأسبوع مرتين وثلاثًا. كان يسارع إلى اللقاء بها، مدفوعًا بأحاسيس غير معهودة، أكثرها سطوة ما جعله بلا حاجة إلى أن يداري تلك المنطقة الفارغة في داخله، كأن توليب ملأتها دفعة واحدة، فمنذ أن عرفها لم ينشغل بإحساس الغجري المنبوذ، بل حدّثها عما عرفه من أبيه عن تاريخ الغجر، وكيف يرون الحياة. أخبرها بما يعرف من حكايات غجرية، وغنّى لها أغنيات حفظها منذ الطفولة. كانا يتحدثان بأمور خارجة عن نطاق ما يعتريه من مشاعر نحوها، لكن ما بان على وجهه يفضحه

بوضوح لا يكون إلا في الحب الذي ليس مثله شيء يذيب الفوارق، ويوحد الدنيا في شرفة واسعة، لا حدود لها إلا البهجة. أما توليب فقد أدركت أن باختو أحبها، ولا يعلم أنها تركت ما تُكنه له من مشاعر بلا عنوان، ليس لأنها ترى في العناوين مؤقِّتًا سيبدأ بالعد التنازلي إلى أن يتوقف، فقط، بل أيضًا لأنها استصعبت شرح ما تحس به على نحو مكتمل.

التقيا ذات مرة في حديقة تقع في الحي الثاني حيث تقيم توليب، كان ذلك في أول خميس يبتدئ به شهر تشرين الثاني. تملّكه التردد في القرب منها، فحل بينهما صمتٌ يلوي باطنُه على صخب كبير، رغم أنه حمل معه كمنجته لعل أوتارها تفصح نيابة عنه. شعر بما كان يشعر به سابقًا من مزاج غريب، جذوره في طفولته التي لم تكن مثل طفولة أقرانه وأكثرهم كانوا يلعبون في العراء حفاة، بمؤخرات مكشوفة في الصيف، وسراويل مرقعة في الشتاء، غير مدركين من الحياة شيئًا سوى لهوهم، ومشاكسات تتلاشى مع غروب الشمس، حيث تتراجع الأصوات في المخيم، فيحل سكون لا يجرحه سوى نباح الكلاب، ومواء القطط الضالة.

ولد باختو بصفات لافتة، فهو لا يبكي إلا حين يصير القمر بدرًا. كان بكاؤه أميل إلى أنين لا ينقطع إلا عندما يتوارى البدر وراء جبل الجد الأول. أمْر لم تجد أمه حلًّا أو تفسيرًا له. أما في الأيام الأخرى، فلا يمكن لأحد أن يرى على وجهه إلا ابتسامة ناصعة، بشوشة، فيها الكثير من السكينة. حين مشى في طفولته،

لم يبتعد عن الخيمة سوى خطوات قليلة، حتى بعد أن كبر، ونطق، وجدت عائلته أنه شحيح في كلامه، وأن خطواته هادئة، يتجول حول الخيمة، وينظر إلى كل الجهات بتأمل غريب. لم يرق سلوكه هذا لوالده، لهذا دفعه إلى الانخراط باللعب مع مَن هم في مثل عمره، لكن ذلك لم يُجْدِ نفعًا، فقد اكتفى بمراقبتهم وهم يلعبون، ولا يخالطهم إلا قليلًا.

في تلك السنة من طفولة باختو تكفّل رجل في مخيم الغجر، يُدعى الأستاذ، بتعليم الصغار القراءة والكتابة، فليس لهم مدارس ليذهبوا إليها. وجدت بدور أن تَعلُّمَ باختو على يد ذلك الرجل ربما يساعده على الخروج من حالته الغريبة تلك، غير أن شاندور رفض ذلك. ذات ليلة وقعت حادثة أجبرته على أن يوافق على ما اقترحته زوجته، فقد غادر باختو فراشه، ومشى بلا وعي في الظلمة نحو جبل الجد الأول، ولولا أن رآه رجل كان يختلي بعشيقته بعيدًا عن المخيم، لتاه، أو حدث له مكروه ما.

تعلم باختو القراءة والكتابة في غضون سنوات قليلة، كان هذا مثار استغراب أستاذ المخيم، ومصدرًا لسعادة أمه، فقد كان يمضي نهاره بعد العودة إلى خيمة عائلته إما يملأ صفحات دفتره بكلمات وجُمل غير مترابطة، وإما يُعيد قراءة ما تعلمه. مضت عليه عشر سنين يذهب يوميًّا إلى الخيمة التي استحالت إلى مدرسة تضم عددًا قليلًا من التلاميذ، مرحلة انتهت بوفاة ذلك الأستاذ، لكنها زادته هدوءًا.

رغم تشاؤم شاندور من الكتب، إلا أن باختو كان يمضي جل نهاراته منكبًّا على قراءة ما أهداه له الأستاذ قبل وفاته بشهرين: روايات، ودواوين شعرية، وكتب في اللغة. أمر لم يرُق على الإطلاق لوالده، ولم يجد حتى إنها ساهمت بتبديل سلوكه الهادئ حد نفور كل من يراه، بل بقي في تلك السنين من مراهقته على حاله: ودودًا مع عائلته، قليل الكلام، كثير الشرود، لا يختلط بأقرانه إلا نادرًا، من دون أن يدري أحد أن عالمًا آخر كان ينمو في داخله، ورؤية جديدة أخذت تتشكل حيال ما يعيشه. لكن تغيرًا لافتًا طرأ عليه أشاع الغبطة في نفس والده، إذ رآه مرة يستمع خلسة عبر المُسجِّلة، إلى أغنيات يحبها شاندور الذي يخرج ليلًا حاملًا كمنجته، إما إلى حفلات في مخيم الغجر، أو إلى سهرات خاصة مع أصدقائه، أو مع إحدى عشيقاته.

ذات صباح وجده يتأمل الكمنجة، وعلى وجهه ابتسامته المعهودة. رآه يلامسها، كأن بين يديه امرأة تقرأ كفه انحناءات خصرها الفاتن، إلى أن سمعه يردد أغنية بصوت عذب، ومن يومها أخذ يصطحبه إلى الحفلات في مخيم الغجر، خطوة ناجحة جعلت باختو يخرج عن صمته، ويتحرر من بطئه الغريب، فقد كسر مرة واحدة طوق طباعه الساكنة، وراح يرقص مثل طائر مبتهج. ليلتها عزف شاندور على كمنجته حتى منتصف الليل، ورقص باختو باستغراق جميل، لكن حاله تبدلت، حين دخل المدينة لأول مرة في حياته، عندما أصيب بالتهاب الزائدة الدودية، واصطحبته أمه إلى

الحي الرابع، حيث المستشفى الوحيد المسموح للغجر بمراجعته. وصلَا أطراف المدينة عند السابعة صباحًا، واستقلا حافلة عمومية إلى المستشفى. كان باختو طوال تلك المسافة يحدق من وراء أصابع الألم إلى البيوت، والبنايات الشاهقة، والسيارات، والأعداد الغفيرة من الناس الذين يتجهون نحو أعمالهم، بوجوه صافية، وخطوات رشيقة، وملابس نظيفة. قبل أن تطأ قدماه أرض المدينة كان باختو يعتقد ألا حياة خارج مخيم الغجر، رغم أن المدينة ماثلة أمام عينيه من تلك المسافة، ومن وراء تلال القمامة التي تفصلها عن المخيم. في ذلك الصباح بينما رأسه يلامس زجاج الحافلة، شعر كأن دماغه كرة من معجون ضغطها أحد ما، ومنحها شكلًا جديدًا، مفلطحًا، معالمه مشوهة. تجاوز الأمر صدمة مشاهدة الأشياء الجديدة، نحو آلام المقارنة. كان يقارن بين الخيمة والبيت، بين الشارع والطريق الترابية، بين روائح قمامة لا تبرح هواء المخيم وبين روائح المدينة، بين المبتهجين من جيله في شوارع المدينة وبين أولئك البائسين في مخيم الغجر. كانت مقارنة فجائعية، أكبر من عمره، تتجاذب فيها صور، وتتنافر بشدة.

حين خرج من غرفة العمليات كان يهذي بطريقة غريبة، يمد ذراعيه كأنه طائر، ويُردد دونما توقف: **أريد أن أراها كلها**. في اليوم التالي للعملية الجراحية، وقف باختو إلى نافذة الغرفة التي يقيم فيها، يلصق رأسه بزجاجها، ويُتمتم بالكلمات ذاتها. اعتقدت أمه أن ذلك ما هو إلا أثر طويل الأمد للمخدر، لكن ذلك تكرّر وهما

في طريق العودة إلى المخيم. اختفت الابتسامة التي ولدت معه، وحلت محلها ملامح لحزن جديد. يمضي وقته مفترشًا التراب، عيناه على المدينة لساعات طويلة لا تنتهي، إلا عندما تجبره أمه على العودة إلى الخيمة، والخوف يتملكها من أن يفقد ابنها عقله، فلجأت إلى عرافة أنفقت عددًا من ساعات في الليل تطوف به، حاملة إناءً يحترق فيه شيء من البخور، تتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم ترشه بماء أحمر. نام باختو بلا هذيان. في الصباح شوهد يمشي عاريًا بين الخيام، ويردد كلمات ليست مترابطة. استدعوا العرافة مرة أخرى، فأغرقته بطقوسها الغريبة.

بعد أيام غادر باختو نحو المدينة متناسيًا أن أبناء جلدته ممنوعون من دخولها، يسعى إلى لحظات غير التي عاشها في مخيم الغجر، إذ كانت المدينة آنذاك فردوسه المفقود. إلى أن أمسك به شرطي، ومنعه عن وجهته. أمام ممانعة باختو، انهال الشرطي عليه ضربًا، ثم حمله في السيارة، وألقى به خارج حدود المدينة. في سره كان باختو يعي ما يحدث حوله، وما حدث له في مدينة الجد الأول. انحاز إلى الصمت، والعزلة، والقراءة أكثر مما مضى.

اصطحبه شاندور ذات ليلة إلى حفل زواج كان الجميع فيه يرقصون على أنغام كمنجته، بينما الطبلة تضبط إيقاع الراقصات مرة، وتفلته في مرات كثيرة. ليلتها كان عزف شاندور شجيًّا أكثر من المعتاد. تلمع عيناه ببهجة مختلفة، وفي الوقت نفسه تبدو عليه الأمارات الأولى للبكاء وهو يحدق إلى الفراغ الذي يعلو

أكتاف من يرقصون، ومن يتمايلون بكؤوس الشراب كما لو أنه يعزف لكائنات لا يراها إلا هو. كان باختو ابن الستة عشر عامًا آنذاك يتفحص أباه، كأنه يعرفه للمرة الأولى، إذ أحس أن ثمة أمرًا جديدًا طرأ عليه.

في طريق العودة التزم شاندور الصمت، يمشي بهدوء، عاقدًا يديه خلف ظهره، وينظر أمامه كأنه يسعى إلى شخص ينتظره. فجأة أخذ يردد واحدة من أغنيات نوَّار اعتاد باختو سماعها من مُسجِّلة قرب أبيه في نهارات وليالي مخيم الغجر. كانت أغنية شجية تحكي عن العمر الضائع، والأحلام، والأمنيات التي لم تتحقق. في صوته رغم خشونته عذوبة، وحزن شفيف. قبل أن يصلا الخيمة شعر شاندور بالتعب، فجلس على صخرة في طرف الطريق، إلى أن استقرت رئتاه، حينها التقط الكمنجة وراح يعزف. كان القمر ليلتها بدرًا، يتربع في منتصف السماء، يمسح الأشياء بفضته الغزيرة. بينما أخذ باختو يستسلم للذة الموسيقى تذكر شاندور كيف كان باختو وهو في المهد يبكي عندما يصير القمر على هذه الشاكلة. ظل شاندور مستغرقًا في ذاكرته إلى أن أرخى الكمنجة على قدميه، ثم بحركة مباغتة، أعطاها لباختو: **هذه الكمنجة لك.** قال ذلك بصوت حزين، ثم قاطع يديه على صدره، يحكي بهدوء مَن خسر قدرته على المضي في طريقه: **أنا فخور بأني غجري، وفي الوقت نفسه أتألم لأني كذلك يا بني، إذ تُعاملنا المدينة منذ تاريخنا العتيق على أننا حمولة زائدة على سلالة الجد الأول. لم تتعبني الموسيقى فأعتزلها، إنما يتعبني أننا ضعفاء**

إلى الدرجة التي لم نفعل شيئًا، ولم نرفض حتى ما فعلوه بنا. هل تعتقد أني أشرب الخمر وأصاحب النساء للمتعة؟ بل للهرب مما نحن عليه. فعلت أشياء كثيرة لأتناسى، إلا الموسيقى، فهي التي كنتُ بسببها قادرًا على الوقوف على قدمَي.

نظر شاندور إلى المدينة، ثم إلى جبل الجد الأول والقمر يتجاوزه، فبدا كأنه كائن خرافي يستسلم لنوم عميق: **أيُعقل أننا جميعًا أحفاد لهذا الجد؟ أنظر إلى المدينة كيف تفيض ضوءًا بينما المخيم تثقله العتمة. ما يوجعني أيضًا أن ضعفَنا جعلنا على هذا النحو المخجل.** بدا شاندور حزينًا يتحسر على حال مخيم الغجر، لكنه راح فجأة، وعلى غير عادته، يمازح باختو، ويحكي له عن الفتيات اللواتي فيما بعد سيهمن به، حين يطلق ألحان كمنجته بينهن في الليالي التي تشهد رقصهن الماجن. بدا شاندور عطوفًا أكثر من ذي قبل، يرخي يده على كتف باختو وهما يمضيان في طريقهما بتمهل، بينما المخيم غارق في الصمت.

وما هو إلا عام واحد حتى أكمل باختو ما ينقصه من تعلُّم العزف على يدَي أبيه، وبعد مضي عدد من السنوات بات أشهر العازفين في مخيم الغجر، مأخوذًا بكمنجته التي حينما تستقر على كتفه، ويلامس قوسُها الأوتارَ، يثير دهشة كل مَن ينصت له، خاصة حينما يعزف أغنيات نوَّار.

رغم انغماس باختو في الموسيقى إلا أن حاله بقيت على ما هو عليه، لهذا رأت بدور أن شفاءه يكمن في المدينة، فتوسطت عند

أحد سكانها، وتدبّر له عملًا في تنظيف الشوارع. عندما أخبرته بما سعت إليه، غادر الخيمة وجلس في مكانه المعهود يحدق إلى المدينة التي ما عادت فردوسه بعد أن ضربه الشرطي، وألقاه خارجها، وبعد أن حدثه والده كيف طُرد الغجر منها، مع ذلك رضي بتلك الفرصة. لا أحد يدري لماذا ذهب باختو في ذلك اليوم إلى عمله متأنقًا، ولماذا يكنس شوارع الحي، على أنغام موسيقى يطلقها هاتفه النقال، ومكنسته بين يديه، يراقصها ببراعة متناهية، كأنها امرأة يثمل بحبها.

* * *

في ذلك المساء الذي التقيا فيه في الحديقة اقترح باختو على توليب أن يُعرفها بنوَّار. لم يدرِ بالضبط لماذا خطر ذلك الاقتراح بباله. هل هو هروب من الاعتراف بحبه لها، أم لأنه يحب نوَّار، ولأن توليب مثله تحب الموسيقى والأغنيات؟ ركبا «المترو»، ومن محطة في الحي الثالث، سارا نحو شارع شعبي، تفوح منه روائح الفلافل المقلية، والدجاج المشوي، والكباب الذي يُقلَّب على مشاوٍ على الرصيف، وتضج منه أصوات الباعة، والأغنيات الشعبية. كان عدد الناس الذين أصيبوا باختلال الحواس قد ازداد أكثر منذ ذي قبل، يسيرون في الشارع كما لو أنهم بلهاء، يحدقون إلى نقطة ما في الأفق، لا يلفت انتباههم شيء، إلا إذا نادى شخص على واحد منهم، ولا يثير أحاسيس الرجال منهم سوى مؤخرة امرأة، أو روائح الطعام. ولا يستفز النساء غير جسد

ذكوري شهواني، لم تطله سمنة بات كثير من أولئك المعطوبين يتصفون بها. كان لدى توليب شك أن سرًّا ما وراء ما طرأ على ذلك العدد المتزايد منهم. وارتفعت نسبة شكوكها حين قرأت مقالة للدكتور أدهم يتهم فيها جهة خفية بذلك الداء، ويشير إلى أنه يسعى إلى إيجاد دلائل علمية تثبت صحة رأيه. الدكتور أدهم الذي عمل أستاذًا لطب الدماغ في أكثر من جامعة، وبات أشهر جراحِيه، وبسبب آرائه اللاذعة خسر عمله، وأصدقاءه، فعاد من الحي الأول للعيش في الحي السابع، حيث ولد وعاش أيام شبابه.

أشاحت توليب وجهها يمينًا حين رأت رجلًا يضاجع امرأة في أحد الأزقة، ورأت في سيارةٍ رجلًا يقُبل رجلًا آخر. رغم رغبته بها، إلا أن باختو كان يُعلي من شأن المساحة الروحية التي تحتلها توليب عنده. ومع أن مشهد المرأة والرجل في الزقاق بدا له خاليًا من أي عاطفة، فقد تحرّى أي ردة فعل منها تنتصر لما يُكن لها من حب جارف، إلا أنه لم يجد شيئًا مما انتظر. في الطريق إلى بيت نوَّار الذي يقع في حارة عتيقة لا تبعد كثيرًا عن ذلك الشارع، وجهت توليب له سؤالًا مباشرًا بتر تفكيره في العثور على وسيلة إلى قلبها: **ألم تتأثر حواسك؟** التفت نحوها، وقال وكأنه يعاتبها: **لو أصابني ذلك الخلل، لما التقينا**. توقف عن المشي، ولامس كتفيها، كأنه على مقربة من أن يُقبلها. قال وهو يتوسل عينيها بشوق عجز عن مداراته: **ولن أوجه لكِ السؤال ذاته، لأني أدرك أن حواسكِ بخير**. أفلتت من يديه، ومضت في الطريق، غير قادرة على أن تبدد

ما طرأ عليها من أمارات الخجل: **هل هناك مَن تضررت حواسه في مخيم الغجر؟** أجاب باختو وهو لا يزال يحلم باكتشاف ما في قلبها: **لا، حواسهم لا تزال على حالها.**

حين كان نوَّار جالسًا في الشرفة، ينصت لمقطوعة موسيقية كلاسيكية، ويقرأ كتابًا عن تاريخ الموسيقى، قرع باختو الباب. بعد دقائق قدَّر أن نوَّار أمضاها في مسيره البطيء نحوهما، أطل عليهما وجهه باسمًا، وأشار بيده إلى الداخل يرحب بمجيئهم. نظر نوَّار إلى توليب وقد توقفت في منتصف صالة الجلوس، تتأمل صورة قديمة له حين كان في أوج نجوميته. لم يكن نوَّار من مطربيها المفضلين، مع هذا تعرفه، وتعرف أغنياته الشهيرة، وتتذكر ما أخبرها عنه باختو بعد أفول نجمه. على الواجهة المقابلة للباب ثمة صور لنوَّار، ولوحات فنية أهديت له، ورفٌّ خشبي بُني اللون عليه كثير من الأوسمة، والدروع التكريمية، والهدايا. وعلى الجهة اليمنى لصالة الجلوس مكتبة على رفوفها العديد من الكتب. وجدت توليب أن بيت نوَّار حميمي ودافئ، وفيه روح مريحة. أغلق نوَّار باب الشرفة، ودعاهما للجلوس في الصالة.

على شاشة التلفاز الذي كُتم صوته، كان المذيع يقرأ نشرة الأخبار، وفي أسفل الشاشة شريط يستعرض أهمها، راحت توليب تقرؤها، بينما جلس باختو على أريكة تقابل نوَّار. قال يداري حرجًا وقع فيه لأنه اصطحب فتاة إلى بيت صديقه، ولم تنطق ولو بكلمة واحدة: **توليب؟** انتبهت توليب وتداركت الأمر، ثم جلست بقرب

باختو. قالت وكأنها تعتذر عن انشغالها بما يبثه التلفاز: **باتت متابعة الأخبار عادة سيئة عندي، تسبب لي مزيدًا من القلق**. قال نوَّار، وهو يضع الولاعة قرب غليون خشبي أسود، ويشعل فيه التبغ: **وهل تعتقدين أن ما ترينه على شاشة التلفاز من أخبار، يعبر عن الحقيقة؟** نفث دخانه في الهواء، وقد لاحت في وجهه أمارات الإحباط: **إنهم يُحكمون قبضتهم على كل شيء**. صمت نوَّار لقليل من الوقت، ثم قال بصوت مشوب بالحسرة: **عدد كبير من سكان هذه المدينة عطبت حواسهم، إنهم موتى يمشون على أقدامهم**.

شعر باختو أن غمامة سوداء ألقت بظلالها على المكان، فحمل كمنجته وتأهب للعزف، إلا أن نوَّار أشار له بأن ينتظر: **قلة من تحدثوا عن اختلال الحواس الذي ربما يكون مقدمة لحدث أكثر فظاعة**. كان باختو يضع الكمنجة على فخذيه، حين لامسها نوَّار، ومضى يتحدث لتوليب: **لم يقل أحد شيئًا عن السبب الذي يقف وراء سلامة حواس الغجر الذين يقدمون الموسيقى على أي شيء، رغم ما يعيشونه من فاقة وفقر وإقصاء**. قالت توليب: **بتُّ أخشى على حواسي، أتفقدها حين أصحو صباحًا، وقبل أن أنام، أخشى فقدانها**.

عزف باختو على كمنجته، وغنى نوَّار الذي لم يخنه ذكاؤه في اكتشاف ما يُكنه باختو لتوليب من حب صادق، لكنه احتار في تقييم شعور توليب نحو باختو، لهذا غنى أغنيته الشهيرة: «سيبقى الطائر يحط على شجرة الصبار».

في طريق العودة بقيت توليب صامتة وباختو بقربها يتجهان نحو محطة المترو. كان يفكر في سِره بكلمات مناسبة تشرح حبه لها. لكنه شعر بارتباك جعله يقف قبالتها ويعترف: **أعرف أن غجريًّا مثلي لا يحق له أن يحب فتاة من غير جنسه.** حدقت توليب إلى عينيه، كأنها تلومه على ما قاله، ثم لوحت له بيدها وغادرت.

* * *

في الحافلة التي ستأخذه إلى الحي الثاني ذاهبًا إلى توليب ليخبرها عن المخطوط، كان باختو يراقب الركاب من وراء إحساسين يستحوذان عليه، واحد مردّه خشيته من ذلك الوباء الذي أصاب المدينة، والثاني شعوره بالغبطة بأن الحل ربما يكون بين يديه، شعور بالزهو من غجري أمضى سنين عمره يقاسي يد المدينة التي دفعت الغجر خارج حدودها. كان سائق الحافلة قد أعلى من صوت الراديو وهو يبث أخبارًا حول الوباء، وإرشادات وتطمينات لسكان المدينة. لكن بعض الركاب كانوا شاردي الذهن، والبعض الآخر يحدقون بين الفينة والأخرى إلى كاميرات هواتفهم النقالة بحثًا عن وجوههم المفقودة.

رأى باختو امرأة خمسينية تجلس إلى جوارها امرأة في مثل عمرها. كانت تنظر طوال الطريق إلى الأشياء وهي تعدو إلى الوراء. فركت رقبتها بأصابعها، وعادت تنظر إلى الأمام، إذ بدا أنها آلمتها. لمحت المرأة التي بجوارها بكاءها الصامت، فقدمت لها منديلًا،

وأخذت تحاول أن تهدئ من روعها. أدرك أنهما صديقتان، حين رأى المرأة الأولى تضع رأسها على كتف الثانية، ثم سمع الأولى تتحدث بإعياء وأسى واضحين: **أتعرفين ما معنى ألا نعود قادرين على رؤية أنفسنا؟** رفعت رأسها عن كتف صديقتها، وتمخطت، ثم عقدت يديها على صدرها، كأنها تخنق ما في صدرها من قلق: **حين تتراكم العقبات في طرقنا، وتبدو الحياة مثل خرم الإبرة، نهرب إلى ذواتنا، ونستعيض عنها بما فقدناه. تعرفين أني أحببت رجلًا لم أرَ للحياة قيمة في غيابه، وحين خانني، ورحل عني، وجدت نفسي تشرع ذراعيها لي، وتعوضني عن ذلك الفقد. أما الآن فإني أراني ماثلة في نسخة شبحية تدفعني إلى الموت. ما عادت ذاتي لي، صرنا غرباء، رغم أنها تتحدث إليَّ بإشفاق، لا يمنعها من تعبيد طريقي نحو نهاية رحيمة.** أرخت جسدها على الكرسي غير قادرة على مقاومة ما فيها من وهن. قالت بصوت ساخر: **تخيلي أن كل تلك السنين التي أمضيتها في دراسة الطب، وممارسته فيما بعد، لم تقدم لي إجابة حول هذا الوباء اللعين!** ودّ باختو لو يطمئنها، غير أنه لا يملك طريقًا إلى الحل سوى تلك العبارة الدليل، التي كتبت في سطر منفرد في مخطوط الجد الأول، ولا يدري هل يَنْفذ من خلالها إلى الناي، أم لا.

* * *

رغم استياء مزاجها، وصدمتها بما فعله الوباء، فوجئت توليب حين نظرت من عين الباب السحرية، ووجدت باختو قادمًا إليها،

فراحت تُدير المفتاح بالباب بعجالة فرحة، إلا أنها مشوبة بالخوف من أن مكروهًا قد حدث له. عادت إلى الداخل مسرعة، وارتدت روبًا يستر نصف جسدها شبه العاري. قبل أن تفتح الباب تساءلت في سِرها: **وهل هناك من مكروه أكثر من هذا الوباء اللعين؟!** كانت تلك المرة الأولى التي يزورها فيها باختو، رغم أنه يعرف عنوان شقتها، إذ رافقها ذات مرة حتى الباب، ولم يدخل، مع أنها دعته راغبة بأن تمضي معه وقتًا. كانت شقة صغيرة، تغلبت توليب على ضيق مساحتها بأن اختارت لجدرانها اللون الأبيض، واللون الزهري الخفيف للسقوف، لتُبعد الإحساس بضآلة الأمكنة، شقة مكونة من صالة جلوس مزودة بشرفة تطل على الشارع، وغرفة نوم وحمام ومطبخ. في الصالة ثمة طاولة وراءها مكتبة صغيرة، وقرب الطاولة مقعد طوليّ للاسترخاء تستخدمه للقراءة.

مشى باختو إلى الداخل باستحياء تحايل عليه بأن سألها عن سر تلك الصور القديمة للحي الثاني، والمعلقة على الجدران. قالت له وهي تعرف أن سؤاله مجرد التفاف على خجله وارتباكه: **إنه حيّنا قبل أن يتبدل، وقبل أن يتوحش ساكنوه، فحدثت تلك المعارك بينهم، وقبل أن تبتلع المرايا وجوهنا.** طلب كأسًا من الماء، وحين أتت به، أمسكه، وسار متمهلًا نحو مرآة قرب الباب، ووقف ينظر فيها. تبعته توليب، واستقرت وراءه، وهو يسهو في عينيها الجميلتين، وشعرها الناعم، ووجهها الذي ذكّره بإحدى افتتاحيات أغنية لنوَّار، بعنوان «النهر، والبحر، والنوارس الحالمة». قالت بصوت هادئ

لا يخلو من الحسرة: **تخيل أن لعنة هذا الوباء لا تتمثل فقط في ظهور نُسخنا الشبحية، وفي أننا لا نرى أنفسنا، بل أيضًا أننا أصبحنا رهينة للآخرين ليخبرونا عنا.**

انسحبت توليب، وجلست على الأريكة، ترفع قدميها وتحتضنهما، وترخي ذقنها على ركبتيها، تراقب باختو، كأنها تنتظر شيئًا ما: **أتذكر أني قرأت في كتاب أن الأصل هو مَن يقف أمام المرآة، والصورة هي الانعكاس، لكن من دون هذا الانعكاس لا وجود للأصل.** قال باختو ممازحًا: **يمكنك اعتمادي مرآة لك، سأقف مثل الروبوت وأدلك على كل ما تفتقدينه.** قالت توليب: **أعرف أنك مرآة صادقة، لكنك ستتحدث انطلاقًا من الصورة التي تكونها عني، بينما صورتي من المؤكد أنها مختلفة تمامًا، فحينما نكوّن صورة عن الآخرين فإننا نفعل ذلك انطلاقًا من مخزون ذهني يخصنا، لهذا تختلف صورنا في أذهان الناس.**

جلس باختو قبالتها، وقد لفَّها صمتٌ مفاجئ، إذ كانت عيناها على الجدار، تحدق إليه. أدرك أنها منشغلة بنسختها الشبحية: **أرجوكِ تجاهليها.** قال ذلك وهو يدرك كيف يمكن لهذه النسخة أن تبدد حلمه بامرأة أنقذته من هاوية خشيها طوال عمره. عقدت توليب يديها على صدرها، وأمالت برأسها إلى اليمين، كأنها تريحها على كتفها: **ترى من الأصل، أنا أم هذه النسخة الشبحية التي تحكي لي عن الموت كما لو أنه قصيدة نادرة؟ مع هذا فإني لا أكرهها، إنها ودودة معي، رغم لومها. تلومني على سنين لم أقل**

عبرها شيئًا يفضح خراب المدينة. تقول إن تقصّي الحقائق وحده لا يكفي، ثمة صوت عليه أن يعلو، لتخبو المكيدة.

أرخت قدميها على الأرض، وراحت تفرك أحد كفيها بالآخر: **منذ الصباح وأنا أشعر كأن فراغًا في رأسي يتسع باستمرار، وأتساءل: ما الذي سيحدث بعد هذا الاتساع، هل سينفجر؟** مشت في الصالة، تعقد يديها خلف ظهرها، تفكر في أسوأ نتيجة أدى إليها الوباء. التفتت نحو باختو: **لا أكترث بغياب وجهي عن المرآة لأغراض نسائية تجميلية، إنما لأني بتُّ أشعر أني موجودة، وغير موجودة في هذه المدينة اللعينة. أنا خائفة، خائفة جدًّا يا باختو.** صمتت توليب لقليل من الوقت، ثم داهمها النشيج فجأة، وتلبسها الرعاش. هرع باختو إليها مرتبكًا، ثم حين لم يجد ما يفعله دار حول نفسه كأنه يفتش عن شيء ما يوقف ما حل بها. ناولها كأسًا من الماء، لكنه سقط من يدها، فتناثرت شظاياه في كل الجهات. جلس بقربها، واحتضنها. تحلقت يداها حول كتفي باختو ونشيجها يزداد.

في اللحظات الأولى لذلك القرب عجز باختو عن أن ينطق ولو بكلمة واحدة تعيدها إلى هدوئها. بعد مرور ثوانٍ، همس لها بكثير من الثقة: **دواء هذا الوباء عندي.** ضحكت حين سمعت ذلك، ثم اعتقدت أن باختو يقول ذلك فقط لتهدأ. عندما كرر ما قاله، ابتعدت عنه قليلًا، ونظرت في وجهه: **كيف؟** أخبرها بما حدث، منذ أن وجد ذلك الصندوق، ومنذ صباح ذلك اليوم الذي ظهر فيه الوباء، وبما قاله الرجل المُسِن، إلى أن قرأ مخطوط الجد الأول.

كانت تستمع إليه والدهشة تبدو على وجهها، تشعر أن ما يقوله أمر بين الحقيقة والخيال. لكن الذي جعلها تميل إلى تصديق ما قاله باختو ليس قناعتها به كشخص لا يكذب فقط، إنما لأنها قرأت ذات يوم رأيًا للدكتور أدهم يلمح فيه إلى أن هناك مخطوطًا للجد الأول توارثت جماعة ما مهمة إحاطته بسرية تامة منذ القدم، وأن واحدًا من تلك الجماعة قال في إحدى مقابلاته التلفزيونية على الهواء معلومات تؤكد صحة ذلك الخبر، إلا أن سيارة دهمته، وهو يخرج من مقر القناة. حُذفت المقابلة على الفور، ولم يعد هناك أصل لها. بعد أن أخبرته بما تعرفه عن أبناء الطائر الأسود اعتراها خوف إضافي على باختو، فاقتربت منه، ولامست يده: **ولكنك في خطر كبير.** قال باختو: **لا أعتقد أن عثوري على المخطوط جاء من قبيل الصدفة. لهذا أومِن أني منذور لهذه المهمة، وأن عليَّ القيام بها حتى لو كلفتني حياتي.** أخبرها عن مكان المخطوط، وعن الإشارة التي نقشها على الصخرة، وأنها الوحيدة التي تعلم بما قاله لها، وأنه سيبدأ من صباح الغد في رحلة للبحث عن الناي. نبهت باختو إلى كثير من الأخطاء التي يمكن أن يقع بها، وربما تؤدي إلى افتضاح أمره، حينها ستنتهي حياته. أمضت ساعات تحاول أن تخلق لديه حرصًا كبيرًا. كانت في أعلى درجات اهتمامها بكثير من التفاصيل، وكأنها هي التي ستقوم بتلك المهمة الخطرة.

عند الباب وباختو يهمُّ بالمغادرة، ولأول مرة منذ أن عرفها، سمح لنفسه أن تلامس يداه وجهها. شعر بدفء مُفتقد يعتري

روحه، وبموسيقى موطنها أحلام يقظته الوردية، تغزو قلبه. قال لها: **كلما فكرت في الطائر الأبيض، وتلك النقطة الزرقاء التي بين عينيه، يتدفق في روحي شعور فائض بالحب لهذه المدينة التي عرّفتني بك**. داهمته رغبة عارمة في أن يُقبلها، فاقترب منها، وقلبه يخفق بشدة، إلا أنها تمنعت عنه، وعلى وجهها أمارات غير مفهومة. مُني باختو بما مُني به طائر فرَّ من القفص، وحلق لأول مرة، نحو صورة عريضة، زرقاء، اعتقد أنها سماء شاسعة، فارتطم بها. قال لها قبل أن يغادر: **سأبحث عن الناي لأجلك، ثم لأجل مدينة الجد الأول**. عند باب شقتها بقيت توليب تُلوح له، وعلى وجهها ابتسامة وخوف وبهجة وأمارات غامضة.

٨

استفاق الجنرال من نومه عابسًا، بعد مرور يومين على ظهور الوباء. تأمل سقف الغرفة، ثم استدار بكسل على جنبه الأيمن، يحدق إلى المرآة التي ما عادت زوجته تجلس قبالتها منذ أن أصابها الوباء. كانت عيناه تضيقان وتتسعان وهو يرى في المرآة كل شيء خلفه: خزانة الملابس، الستارة التي تغطي نافذة الغرفة، زوجته المستغرقة في نومها، الروب الحريري المعلّق على الشماعة، أما مكانه الذي يرقد فيه فقد كان فارغًا. راقب ذلك الفراغ بلوعة، لوعة جارحة يخالطها دبيب غضب شعر به يسري في عروقه كالملح في الجرح، بينما سؤاله معلق في ذلك الفراغ، لا إجابة له: **هذا حلم أم حقيقة؟**

قبل الوباء كان الجنرال يقف أمام المرآة يوميًّا، يتفحص قامته الطويلة، وكتفيه العريضتين، وهو يرتدي بزته العسكرية، وقبعة تعتلي رأسه الكبير. يدرب نفسه على الحفاظ على تعابير وجهه الجادة، ونظرات عينيه التي يخيف بها خصومًا يسعون للإطاحة

به، والحصول على منصبه ومكتسباته، عبر الوشاية به عند عمدة المدينة. كانت تلك الوقفة الصباحية المعتادة كفيلة بأن تشحن معنوياته ليوم كامل، ينتهي بعودته إلى البيت، فيتخفف من مخاوفه، وقلقه. أما الآن فما عاد قادرًا على ممارسة طقسه هذا، صار يشعر بالضعف يسري في روحه، كما يسري السوس في الخشب. بات على قناعة بأن هزيمته وشيكة، ربما على يد أصغر ضحاياه. ازداد شعور الجنرال بالغضب والذهول، وهو يحملق في المرآة، كأنه يكتشف إصابته بهذا الوباء للتو.

في صباح اليوم الذي انتشر فيه الوباء في المدينة، استفاق الجنرال باكرًا كعادته. وقف أمام المرآة ليحلق ذقنه ففاجأه الفراغ. للوهلة الأولى اعتقد أنه يحلم. فرك عينيه، وحدق إلى المرآة من جديد، وحين تأكد أنه لم يجد نفسه فيها، هرع إلى غرفة النوم. وقف قرب زوجته وهي نائمة، وأنفاسه تتعالى باضطراب. تقصى جهات الغرفة بحركة لا إرادية، ثم حين وقعت عيناه على مرآة الزينة، تكرر المشهد المفجع، إذ رأى فيها كل شيء، إلا نفسه. تمتم في سِرِّه: **يا إلهي، ماذا لو أن هذا ليس إلا كابوس ثقيل؟** تمنى ذلك بتوسل ورجاء.

خرج إلى الشرفة، ثم مسح الشارع بنظرة سريعة، في تلك اللحظات الأولى ليوم جديد من أيام يكرس جلها لعمل يحرص على ألا يتهاون فيه على الإطلاق. لم يرَ من المنطقة الراقية التي يقطنها سوى ما يخلفه السكون. التقط ساعته، ونظر إلى التاريخ،

ثم فتح هاتفه النقال، فوجد معلوماته الزمنية مطابقة لما في الساعة. أخذ جسده يتعرق، وتراجعت قدرته على التركيز. اجتاح رأسه دويٌّ، واختلطت عليه الجهات وهو يمشي مرتبكًا، يصطدم بأثاث الغرفة. بالكاد استطاع أن يفتح كاميرا هاتفه، وحاول أن يرى نفسه في خيار التقاط الصورة الأمامية، ولم يجد إلا ما وراءه من أشياء. شعر بما يشبه الماء البارد يهبط إلى جوفه، وأصيب برغبة عارمة في البكاء. اجتاحه ثقل، وضجيج داخلي مُربك.

فوجئ بنسخته الشبحية، فمشى نحوها بترنح، إلا أنها ابتعدت عنه إلى الجهة الأخرى، ثم اختفت. وما هي إلا لحظات حتى سمعها تهمس له بصوته ذاته: **ما عاد هناك أمل لك إلا في الموت.** هرع نحو زوجته، ولامسها بيده، غير قادر على النطق. حين استفاقت، كان وجه الجنرال مصفرًّا، وشفتاه ناشفتين، والذهول يكتسح وجهه. ما إن تساءلت عن سبب ذلك حتى أشار إلى المرآة، وحين نظرت إليها أصابها الفزع، وراحت تصرخ بمزاج هستيري. عانت زوجة الجنرال ملاحقة النسخة الشبحية لها، فلجأت إلى العقاقير المهدئة، لكنها لم تجنِ من ورائها سوى نوم تسلل إليه شبحها، وراح يزين لها دروب الممات.

* * *

كان الجنرال لا يزال يحدق إلى المرآة غاضبًا وحزينًا، بعد أن فرغ من تذكُّر ما حدث في ذلك الصباح. التقط كأس ماء بقُربه،

ومرة واحدة قذف بها المرآة، فتهشمت. استفاقت زوجته مذعورة ومرتبكة، تتلفت حولها غير قادرة على فهم ما يجري، إلى أن شاهدته يجلس على طرف السرير، ترتعش يداه، وتصطك أسنانه غضبًا. لم تجرؤ على الاقتراب منه، ولا حتى النهوض من السرير إلا حينما مشى بخطوات شبه مترنحة نحو الحمام. تبعته بوجه كئيب، وهمة ضعيفة، وهي تفتش حولها عن شبحها. تبادلا تحيات الصباح بصوت خفيض، ومهزوم. وقف الجنرال أمام صنبور ماء تعلوه مرآة، وأدوات للحلاقة. مضت عليهما ثوانٍ ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر في المرآة، وفي وجهيهما تعابير تميل إلى البلاهة، إذ كان يراها هي فقط، وهي لا ترى غيره. أمسكت بأنبوب رغوة الحلاقة، ووضعت قليلًا منها على وجهه، ثم التقطت الشفرة، وراحت بتمهل تحلق ذقنه. كان مثل طفل تُحممه أمه، عيناه تغرورقان بقليل من الدموع، وجبينه مقطب. شعرت زوجته بشيء من الغبطة وهي تجد رجلًا يهابه كثيرون، يسلم نفسه لها، من غير أن يقوى على نطق ولو كلمة واحدة. تلذذت بما شعرت به، رغم أن المرآة اختطفت وجهها هي الأخرى، وألقت بها في دائرة العجز. حين انتهت من حلاقة آخر ما تبقى في وجهه من شعيرات، لامست وجهه، وقالت له مبتسمة: **ما زلتَ جميلًا أيها الجنرال**. لم يقل شيئًا، خوفًا من أن يتملكه البكاء، فقد كان شبحه يهمس له: **ما عاد هناك أمل لك إلا في الموت**.

خلع ملابسه، واستسلم لزخات الماء الدافئ، وهناك بكى الجنرال، بكى بصمت الذين يخجلون من دموعهم، وينزهون

أنفسهم عن لسعات الضعف الخفية. حين فرغ من الاستحمام كانت زوجته تستعطف المرآة بأن تفرج عن وجهها ببكاء وتضرع. وقف لقليل من الوقت قرب باب الحمام، وتركها لطقسها الجديد هذا، ثم دخل الغرفة. لم يفرج عن أي تعاطف نحو زوجته، إنما ارتدى بزته وجلس إلى طاولة الإفطار يشرب الشاي ويقرأ الجريدة. أخذت بنت وابنَي الجنرال وهم يتناولون إفطارهم، ينظرون خلسة إلى أبيهم وهو يطالع خبرًا مفاده أن أشهر مالكي مصانع المرايا أنهى حياته برصاصة ليس بسبب إغراءات نسخته الشبحية له بالموت، بل لما توقعه لمصنعه الشهير من خسارة مالية فادحة، فلن يحتاج أحد المرايا بسبب ذلك الوباء. وجاء في الخبر أن شركات الهواتف النقالة التي تتنافس فيما بينها على ميزات وتقنيات كاميرات الهواتف أخذت تتخوف من خسائر مالية كبيرة تلوح في الأفق، وذلك بطبيعة الحال انعكس على مواقع التواصل الاجتماعي التي تعتمد على التصوير الذاتي في البث المباشر، وعلى صور، ومقاطع ذاتية يلتقطها المستخدمون لأنفسهم ويبثونها، فانحدرت قيمة تلك الشركات في سوق الأسهم إلى الحضيض.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، فلا حاجة منذ الآن فصاعدًا لصالونات التجميل، ولا مصانع مساحيق التجميل. سينخفض الإقبال على اقتناء الملابس، وآخر صيحات الأزياء إلى مستوى غير مسبوق. كتب أحد الصحفيين المستقلين، في زاويته اليومية: **إن هذا الوباء مرعب جدًّا، وإن بقيت الحال على ما هي عليه، فستصبح مدينة الجد الأول مجرد فضاء فارغ إلا من الريح، والطيور الجارحة**

التي ستقتات على الجثث. إنه وباء غريب، حقق شكلًا عجائبيًّا من المساواة بين الجميع، فلا حاكم بمنأى عنه، ولا محكومًا.

من دون أن ينتبه لعائلته التي تجلس إلى طاولة الإفطار، ألقى الجنرال الجريدة من يده، مذهولًا مما يحيق بالمدينة. التقط هاتفه النقال، وراح يقرأ تدوينة على صفحة في وسائل التواصل الاجتماعي للدكتور أدهم، أحد أبرز أقطاب المعارضة: **لقد تقبل الإنسان الموت كحدث حتمي، منطلقًا من نقرات مؤَقِّت باطني، يشعر به منذ لحظة الألم الأولى، وبالتالي احتلت الحياة، كمسعى نبيلٍ، الحصة الأكبر من انشغالاته، وما كان لذلك أن يكون لولا روحِ الجماعة في تشكيل الحياة وتبديد المخاوف من سقوطها. يعيش الإنسان موته المعنوي حين يرى عزيزًا غادر الحياة، لكنه يحيا عندما يجدها متمثلة بالآخرين. ومن هنا تنبع خطورة هذا الوباء، إذ يموت المصاب به معنويًّا، وهو يرى ذاته تستحيل إلى نسخة تحفزه على الموت. ويموت للمرة الثانية حين يرى أن المسألة غدت جماعية بالمطلق. أما الموت فهو مثل مفتاح الكهرباء ما إن يقفله أحدٌ حتى يتلاشى التيار.**

دس الجنرال هاتفه النقال في جيبه، وغادر، إذ كان على موعد للقاء بأبناء الطائر الأسود، فقد وجّه له العمدة توبيخًا على تقصيره في العثور على مخطوط الجد الأول، وأخبره أنه مدعو لاجتماع سري بهذا الشأن ينضم إليه للمرة الأولى، من دون أن يخبره بمَن سيلتقي، ومَن هي الجهة المسئولة عن ذلك الاجتماع.

* * *

قبل أن يصل الجنرال المزرعة حيث يجتمع أبناء الطائر الأسود بدقائق، شاهد شبحه يجلس بجانبه، يطلق ضحكات مستفزة، وإيماءات ساخرة يفعلها برأسه، وعينيه، وفمه، كادت تجعله يرتكب حادثة مروعة، حين فوجئ بسيارته تتجه إلى شاحنة مسرعة، فانحنى إلى اليمين، وتوقف على طرف الطريق، يخفق صدره لشدة الخوف. أرخى رأسه على مقود السيارة، يفكر في هذا الوباء، وكيف يؤدي بالمصاب به، إلى هذه الحال الغرائبية. مثله مثل الكثير من أبناء المدينة يعتقد الجنرال في كل لحظة أن ما يحدث إما هو كابوس، أو جنون، أو أنه الآن في عوالم الموت. حدق إلى شبحه، بنظرة جانبية فيها شيء من التوسل: **أرجوك دعني أنقذ ما يمكن إنقاذه، إن مستقبلي على حافة الهاوية، تمامًا مثل مستقبل هذه المدينة اللعينة.** جاء صوت الشبح هامسًا: **أنت أحد الذين لا يفضلون الالتفات إلى الماضي. لو فعلت ذلك، لأدركتَ أن الصخور الضخمة في الأصل كانت ذرات غبار صغيرة، ليس لها قيمة.** قبل أن يسرع نحو مكان الاجتماع، تفحص الجنرال ما قاله شبحه، إنها حالة غريبة في أن تبدو دواخل المصاب مكشوفة بهذا الشكل.

عند بوابة المزرعة التي يقع فيها القصر، خضع لتفتيش دقيق. اعترض في بداية الأمر، لكنه تذكر رسالة العمدة التي أشارت إلى أن صلاحياته كجنرال ستبقى خارج هذا الاجتماع. اقتيد إلى الداخل، بعد أن طلبوا منه أن يترك هاتفه النقال بحوزتهم. تلفت حوله، يسعى إلى التقاط ولو إشارة بسيطة تدله إلى طبيعة ذلك

المكان. في الداخل كانوا بانتظاره، إذ تبقى على موعد لقائهم بضع دقائق. حينما أشرع الباب أصابته الغرفة الواسعة، بإضاءتها المُنَفِّرَة ولون جدرانها الأسود، بردة فعل نفسية سلبية، أضيفت إلى تلك الوحشة التي أخذت تعتريه منذ اليوم الأول للوباء.

كان أوديسان يجلس إلى رأس الطاولة، ينظر إلى الجنرال، وفي عينيه شيء من اللوم، ونظرة أخرى غير مفهومة. جلس الجنرال على كرسي بين جوناثان، وبين العمدة. أحس بالصمت الذي يخيم على القاعة، ثقيلًا على صدره. تفقد من يجلسون حول الطاولة، كلهم من كبار المدينة، وأثريائها. يعرفهم واحدًا واحدًا، وقد التقى معظمهم من قبل، لكنه لم يكن يعرف أنهم من أعضاء هذه الجماعة التي أخذ الحديث يكثر عنها مؤخرًا.

رغم الأمزجة، والتعابير الصارمة المصطنعة التي كانوا يُظهرونها، إلا أنهم بدوا له مثل جنود عائدين من معركة خاسرة، وجوههم كالحة، وفي عيونهم خوف، وحزن لا يمكن مداراته. قال أوديسان بصوت متحشرج، وهو يرمق الجنرال من فوق نظارة ترتكز على رأس أنفه: **فشلتَ في العثور على مخطوط الجد الأول أيها الجنرال.** بالكاد حرك شفتيه، حتى ضرب أوديسان بيده على الطاولة، وقال بنبرة فيها الكثير من الوهن: **نعلم أنك لا تدري ما خطورة هذا المخطوط، وما هي النتيجة إن عثر عليه أحد.** جاهد أوديسان برفع صوته: **لقد توارثناه من جيل إلى آخر.** قاطعه الجنرال، يحاول أن يسترد شيئًا من كبريائه التي وجدها بلا قيمة

في ذلك المكان، بينما يوجه الجميع له نظرات فيها من الغباء أكثر من الازدراء، واللوم: أعرف خطورته. وأعرف أنه يدل على الناي الذي لم يستطع أحد العثور عليه.

صرخ جوناثان بطريقة مسرحية غاضبة: وها هو السر أصبح أمرًا علنيًّا يا سادة. أرأيتم؟! نظر إلى المجتمعين، ثم التفت نحو الجنرال: بما أنك تعرف ذلك، لماذا لم تتمكن للآن من استرداده؟ رفع جوناثان رأسه نحو السقف، وقال ساخرًا: سرق منا بسهولة. يا لغبائنا! قال الجنرال: هذه أول مرة نتأخر في إتمام إحدى مهامنا. لا يعود السبب لتقصير أو ضعف في قدرتنا الاستخبارية، بل يعود ذلك إلى طبيعة المرحلة التي جعلها الوباء في غاية الغرابة. تعلمون أن الرجال الأربعة قد تُوفوا على الفور في حادث المطاردة، ولم نجد بحوزتهم ما يدل عليهم. حتى السيارة التي كانوا يستخدمونها ليس لها مرجع في سجلاتنا، وسجلات إدارة المرور، ولم نعثر فيها على دليل يمكننا من معرفة من له مصلحة بسرقة المخطوط. لقد كانت عملية متقنة يا سادة، وكان يمكن أن يكتمل إتقانها لولا موت الرجال الأربعة. منذ ذلك اليوم عملنا ليل نهار. استخدمنا كل إمكاناتنا. ألقينا القبض على عدد ممن اشتبهنا بهم، إلى أن مات واحد منهما، فأخلينا سبيل الآخر. قمنا، بهدوء، بتفتيش معظم السيارات في تلك المنطقة، بحسب ما وجه لي من تعليمات. حقَّقنا مع المتسولين، ومشردي الشوارع، والعاهرات، واللصوص، لكننا لم نصل إلى أي نتيجة. مع ذلك لا يزال البحث جاريًا.

كان العمدة يحك أنفه، ويفكر، وعيناه على الجنرال. قال بصوت ضعيف: **هذا لا يكفي**. التفت جوناثان نحو الجنرال. قال وعيناه تضيقان وتتسعان: **هذه هي المرة الأولى التي تكون فيها بيننا أيها الجنرال، وبناء عليه ها أنت قد عرفت الآن كيف حطت تلك النجوم على كتفيك. كل دقيقة تمضي في غياب المخطوط تعني الاقتراب من نهايتنا. أما بالنسبة لهذا الوباء اللعين، فقد أصابنا جميعًا بلا استثناء، وليس أمامنا سوى استثماره.**

مشى نعيم الأصفر حول الطاولة إلى أن وصل الجنرال. وضع يديه على كتفيه، واقترب من أذنه: **إن وقع المخطوط بيد أحد، وعثر على الناي، فهذا يعني أن مسارب مصالحنا ستغلق تمامًا. ربما نقبل بألا نحتاج المرايا، لكننا لن نتهاون في أمر نهايتنا**. عاد نعيم الأصفر إلى مكانه، وقبل أن يجلس صرخ بأعلى صوته: **هل فهمت ما معنى نهايتنا أيها الجنرال؟** طرق أوديسان بيده على الطاولة: **عليك أيها الجنرال أن تضع خطة جديدة، خطة قاسية للعثور على المخطوط.** هز الجنرال رأسه موافقًا، رغم حيرته وعجزه، بينما نظر أوديسان إلى العمدة: **أخبرنا ما الذي فعلته بشأن الوباء**. كان العمدة شارد الذهن، حين كرر أوديسان سؤاله، فانتبه، وتلفت حوله، ثم قال بصوت يخلو من الحماسة:

لا تزال أجهزتنا الإعلامية تُدير أمر الوباء بما يتوافق مع رغبتنا في استثماره لصالحنا. أُطلقت مجموعة من الإشاعات حول هذا الوباء. ثم إننا نتجهز هذه الأيام للتهيئة إلى أن هناك دواءً، لن تظهر

آثاره الإيجابية إلا بعد خمسة أشهر. وبدأنا أيضًا بالتحضير لإدانة إحدى الجهات التي كانت تعطل مصالحنا.

مرة واحدة نهض الجميع، مفزوعين، من وراء طاولة الاجتماعات، وعادوا إلى الوراء نحو الجدار، وألصقوا ظهورهم به. كلهم كانوا يُصوبون أعينهم إلى الأمام، لا يحس أحدهم بالآخر. كانت وجوههم عابسة، يُغرقها الخوف، إلا وجه جوناثان الذي كان يتقمص السخرية. وقفت نسخهم الشبحية إلى الجدار، وراحت تصرخ فيهم: **لا سبيل لكم إلا الموت**. بدأ الصوت عاليًا، ثم تراجع شيئًا فشيئًا إلى أن اختفت النسخ الشبحية، فغادر الجميع، ولم ينطقوا ولو بكلمة واحدة.

في اليوم التالي للاجتماع نفّذ الجنرال خطته الجديدة في البحث عن مخطوط الجد الأول، إذ مضوا في حملة اعتقالات سرية كبيرة، وعمليات تعذيب قاسية، غير أنهم لم يعثروا على أي إشارة تدلهم عليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

مَن لا يتأمل نفسه فلن يستطيع أن يثق بخطوته القادمة، هل ستكون صحيحة في مكانها، أما أنها ستتعثر. إن تأملتَ نفسك فستجدُك فيها غيورًا حسودًا، محبًّا كريمًا، بخيلًا شرهًا، قنوعًا. إنك كل هذه النوازع، فإلى أيها ستنحاز ليكتمل معناك، ولتمضي في طريقك غير موهوم بصواب خطواتك، بل تراها على حقيقتها الدامغة؟

مخطوط الجد الأول

١

خرجت توليب من الحمام في ذلك الصباح، ترتدي روبًا قطنيًّا أبيض، وتلف شعرها بفوطة لها اللون ذاته، بعد أن أمضت وقتًا تحت الماء الدافئ تطلب الاسترخاء. لم تجلس أمام المرآة تسرح شعرها كما اعتادت، بل وضّبته على عجَل، ثم دخلت إلى المطبخ، سكبت كوبًا من القهوة، وجلست قريبًا من شرفة شقتها التي تطل على الحي الثاني، وقد لاح جانب منه عبر غلالة من شمس الصباح، هادئًا إلى حد يثير الضجر والكآبة. كانت تشعر بالوحدة سكينًا تسطو عميقًا في روحها، فتمنت لو أن نسختها الشبحية تتخلق لها، وتكسر تلك الرتابة الثقيلة. التقطت كتابًا ملقى على طاولة قربها، ضم مقالات مطولة لكُتاب ومفكرين عن حِقَب زمنية تعاقبت على مدينة الجد الأول. قرأت بضعة أسطر من الصفحة التي انتهت عندها ليلة البارحة، ثم أعادته إلى مكانه، فاقدة قدرتها على القراءة.

في الحقيقة كانت توليب تعاني فراغًا ووحشة إثر غياب باختو، وقراره بالذهاب إلى جبل الجد الأول. كانا قبل الوباء يمضيان

وقتًا رائعًا ينفد بسرعة، فلا ملل ولا رتابة. كان كل شيء خفيفًا أمام حضوره اللافت. وحين غادر عثرت توليب على إجابات معظم الأسئلة التي طرحتها على نفسها حيال علاقتها به. ما الذي يكمله هذا الغجري فيك؟ وما الذي ينقصك في غيابه؟ فتحت هاتفها النقال وراحت تقرأ رسالة وصلتها منه بعد مُضي شهور على علاقتها به:

توليب. كتبت لكِ منذ الصباح ولم أتلقّ ردًّا، مع أنكِ حين تُجيبين ستُحدثينني عن كثير من الأشياء إلا قلبكِ الذي جاهدتُ كثيرًا لأراني فيه. لكني أعي أن الأمر أشبه برواية على قارئها أن يدس روحه في صفحاتها، ويخرج بالحكاية، والمعنى الذي يريده. لا ألومكِ، لأني أعرف كم أخافتكِ هذه الحياة. أعرف أن من مهماتي وأنا أسعى إليكِ أن أبدد هذا الخوف. وأعرف أنكِ الرواية التي عثرتْ على قارئ يُقصي عن شوارع المدينة ما يُرى من القمامة، ويحلم بإزالة ما لا يُرى منها.

أكتب لكِ لأني لا أجد معنى للوقت في غيابكِ. عثرت في الصباح على رواية ملقاة في القمامة. رواية قصيرة لكاتبة مغمورة، تحكي قصة امرأة مبتورة اليدين، تحلم بأن تعانق رجلًا، وتقطف وردة، وتصافح العابرين. قرأت أولى صفحاتها في الوقت الذي أستريح فيه، وأتناول إفطاري على الرصيف. رآني شابان والرواية بين يدَي، وغرقا في الضحك، يستنكران كيف لغجري يكنس الشوارع، ويقرأ. استعدت اللحظة الأولى التي علمني فيها الأستاذ

قراءة أول حرف. وتذكرت أول كلمة كتبتها، وأول كتاب قرأته. استعدت شغفي بالقراءة وأنا أتنقل ما بين عالمين؛ عالَم المخيم، وعالَم المدينة الذي بقدر ما يكشف لكِ عما يسركِ، يكشف لكِ عما يثير فيكِ البرد حتى في نهاراته القائظة. تذكرت كيف بدأت حكايتنا في ذلك الصباح الذي بدَّل تاريخ غجري مثلي لم يكن يحلم بأكثر من طريق آمنة إلى خيمته.

قرأت في عدة روايات أن البدايات هي الأجمل، وهي التي تتوفر على نحو كبير من الصدق والشغف. لكنني أسعى إلى ما وراء تلك البداية، وردة لا لأقطفها بأنانية، بل لتبقى يانعة، فنحيا.

حين عُدت للقراءة بعد أن توارى الشابان عني، عثرت على عبارة في تلك الرواية منحتني كثيرًا من الأمل: **إن الأحلام هي الصورة الحقيقية للحب، فإن كنت تحلم، فلن تكترث حتى بالرياح وأنت وحيد في العراء.** ربما ترين أني أستكثر نفسي عليكِ، وأني أعاني عقدة الغجري في أن يَقبله الآخرون كما هو: عبثي، يُغريه الرحيل، تغريه الألوان، والموسيقى، والرقص على حافة الفوضى. بينما كنت أقرأ على الرصيف، مرت فتاة وصوبت هاتفها نحوي، والتقطت لي صورة أعرف أنها تسعى عبرها إلى مجد افتراضي زائف. لم تطلب بطبيعة الحال إذنًا، حتى إنها لم تقل شيئًا، وكأنها توثق لحظة استثنائية لحيوان أليف، ومضت. تواصلت مرة بمجلة ثقافية، وطلبت من مدير تحريرها أن أنشر بعض ما كتبت. امتدح ما قرأه، لكنه حين عرف أني غجري اعتذر عن النشر بلباقة

مَن لا يملك من قراره شيئًا. شعرت حينها أن الجميع يتآمرون علينا، ويسعون لمحونا على مراحل. قبل أن أعرفكِ كانت مثل هذه الأحداث تهزني بقوة، أما الآن فما عاد لها ذلك الأثر الموجع، أو أنني منشغل عنها بكِ. هل يخلق الحب شكلًا من أشكال التسامي على أوجاعنا؟ أم أنه يؤجل النظر فيها؟ لا أدري، لكن الذي أتيقن منه أن الحياة صارت عندي مثل وقوف مجرم أمام ضحية تنظر إلى ما تبقى في قلبه من لين، وتحلم بطرد القسوة.

أكتب لكِ ليس فقط لأني أحبكِ، إنما لأهدم حاجز الصمت الذي تقبعين وراءه، لأني وبعد كل تلك الأيام التي التقينا فيها، أدرك الآن أن الحب ليس فقط الطريق إليه، ولا اللحظة التي نصل فيها إلى الباب ونقرع الجرس قائلين ها نحن قد وصلنا، بل إنه الزمن الذي يأتي بعد كل تلك الخطوات المشوبة بأمزجة متقلبة، مثل طفل عاجز عن فهم ما حوله.

هأنذا أستلقي في فراشي على بُعد أمتار من الخيمة، وأحلم، أحلم بك. يمكن للغجري أن ينام في داخل الخيمة، وخارجها. الأمر سيان مادام ليل الصيف ليس قاسيًا كالشتاء. أستلقي بلا خوف من هجمات العقارب، والأفاعي، وحتى الكلاب الضالة. تنتصب السماء المترعة بالنجوم فوقي، وفوق مخيم الغجر، وفوق مدينة الجد الأول. كم هذا عادل، في أن نتساوى جميعًا تحت سماء واحدة.

٢

تذكرت روبين الموعد الشهري لليلة الجنسية الغرائبية التي ترتبها لجوناثان، مقابل أجر مرتفع، ليلة محاطة بسرية عالية، تقام في بيت قصيّ في الحي الأول، وفي غرفةٍ نومٍ جدرانُها وسقفها من المرايا. كانت جالسة على سريرها قبالة المرآة، تنظر في فراغها الموحش، وتلامس أصابعُها وجهها، فأحست بأن كل ما فعلته من إجراءات تجميلية لأجل أن يبقى نضرًا، قد تهاوى مرة واحدة، أضحت عجوزًا لا نفع منها.

حينما كانت روبين قبل الوباء تجلس إلى مرآتها، تتجرد من كل تاريخها، وتُبقي على تلك الفتاة التي أحبت ذلك الشاب، وحظيت منه بقُبلة يتيمة في ليلة صيفية من ليالي الحي الخامس. تتأمل تفاصيل وجهها وهي ترى حبيبها في عمق المرآة، تتخيل أنها بدلت شكل حاجبيها، وحجم خديها، واستدارة فمها، وأخفت ما حفل به عنقها من بواكير أول التجاعيد، وترهلات تخيفها، وتعطلها عن الأمنيات. تستغرق في مقترحات جمالية سعيًا إلى محاربة ما سرقه الزمن من وجهها الجميل. وعند اللحظة القصوى

لذلك التجاوز الموجع للحقيقة، ترى لها وجهًا آخر، أكثر جمالًا، لكنها لا ترى ذلك الشاب الذي طواه طائر الزمن وحلق به بعيدًا، إلى جبال النسيان.

أشاحت روبين وجهها عن المرآة، وهبطت عن السرير. بعض الناس يكرهون المرايا، وبعضهم يحبونها كجزء مهم من تاريخهم اليومي. الذين يكرهون مراياهم يجدون فيها أداة للباطل، أداة تُزور الحقيقة رغم أنها سطح زجاجي فضي ينقل التفاصيل كما هي لا غير، أما من يحبونها فإنهم يجدونها رمزًا لحقيقة لا يمكن تزويرها. إنها مفاهيم نابعة من التلافيف السرية للإنسان، وما تخلَّق فيها من تصورات عن الحياة، وعن الذات التي خُلقت لتعيش صراعات لا تنتهي.

مشت في الغرفة بخطوات متعثرة، ثم خلعت ملابسها، تنظر إلى جسدها، وتئن بصوت متقطع. رغم تجاوزها الخمسين من عمرها، ليس هناك الكثير من التجاعيد، والترهلات في بطنها، وصدرها، وفيما استطاعت رؤيته من الردفين. شعرت لوهلة بأن ما أنفقته من مال لتحافظ على جمالها لم يذهب سدًى، كانت دفقة أمل مفاجئة، إلا أنها أحست بنفسها كائنًا بلا رأس، تمامًا مثل نبتةٍ أوراقُها وسيقانها جميلة، غير أنها بلا زهرة، فهي لا تستطيع رؤية وجهها، سوى في صور التقطتها لنفسها سابقًا، صور تنتمي لماضٍ لا يعترف به الوباء، إذ إن الاقتراب الحقيقي من ذواتنا، هو الاقتراب من اللحظات التي نعيشها، وليس التي عشناها، فتُوقعنا في مغبة الاستغراق بالحنين.

استلقت روبين على السرير، وعادت تتفحص جسدها. **هل تخشين الموت؟** جاء صوت نسختها الشبحية موجعًا، كضربة سكين مباغتة في الصدر. التفتت إلى الجهة الأخرى، وإذا بنسختها الشبحية تجلس قبالة المرآة. كانت هي بكل تفاصيلها، تنظر في وجهها، وتلامسه برقَّة وتبتسم: **كنتِ ضحية وصرت جلادًا، وها قد أتى الوقت الذي تتساويان فيه.** عادت روبين إلى الوراء، وألصقت ظهرها بالباب، مصابة بالخوف، وكأنها ترى هذا الشبح لأول مرة، شبح يتخلق في أوقات ليست ثابتة للجميع.
قالت نسختها الشبحية، وهي تنظر إليها عبر سطح المرآة: **حين وجدتِ نفسك وحيدة في ذلك النهار، وعلى مقربة من انهيار العائلة، بعت روحك. كنت تعتقدين أنكِ تبيعين الجسد، تبيعين الوعاء فقط، ولا تعلمين أن صلاح الوعاء من صلاح ما فيه.**
صرخت روبين: **من أنت؟** بالكاد استطاعت هاتان الكلمتان أن تتجاوزا فمها. جاء الصوت هامسًا بشيء من الوحشية: **أنا ضوء لم تستطيعوا الحفاظ عليه، فهجر أجسادكم التي لا مناص لها من الموت، موت تخافونه، من غير أن تعلموا أنه هجرة إلى الأبدية.**
أسرعت روبين إلى شبحها، وحين وقفت أمام المرآة لم تجد إلا الفراغ. حامت في الغرفة كالممسوسة، تصارع رغبة مفاجئة بالانتحار، اجتاحتها لثوانٍ، ثم تلاشت، فاستلقت على السرير، تحدق إلى السقف، إذ تذكرت حين وقفت للمرة الأولى بباب دار الدعارة في الحي الخامس.

في ذلك اليوم البعيد الذي وقفت فيه بباب دار الدعارة، كانت روبين تشعر بدوار، وبجفاف في حلقها، وتحس بقدميها تعجزان عن حمل جسدها. ترتعش، وأسنانها تصطك، وأصوات الشارع الخلفي تستحيل إلى دويّ بعيد المصدر. كادت تسقط أرضًا لو لا أن القواد الذي اصطادها أسند جسدها، وهمس في أذنها أن ما تحس به مجرد ردة فعل أولى لن تعاودها مرة ثانية. دفع الباب، وسار أمامها، بينما روبين تتلفت يمينًا وشمالًا، وصوت موسيقى السالسا يجيء من مكان ما.

وجدت نفسها في شقة واسعة، طلاء جدرانها الأبيض باهت، ومُتسخ، وسقفها حفل برطوبة لها أشكال عشوائية سوداء. امتلأ المكان برائحة السجائر، والخمر، فأثارت في نفسها شعورًا بالتقيؤ. ثمة رجلان، واحد ثلاثيني، وآخر بعُمر الأربعين يجلسان على أريكتين بهت لونهما، يُدخنان بصَمْت مترقب. أتت من الداخل امرأة ستينية بدينة، لها وجه كالح، تمشي بخطوات كأنها كرة من الصوف. لامست وجه روبين، وحدقت إليه. أمسكت بكتفيها، وأدارتها يمينًا وشمالًا، ثم أشارت إلى ممر مُعتم تتخلله بقعة شحيحة لشمس العصاري، في نهايته غرفة بابها مغلق. قبل أن تصل روبين الباب، التفتت نحو المرأة، ورأتها تقدم للقواد مالًا ويغادر. كانت الغرفة مُرتبة، ستائرها أرجوانية، وفيها سرير مزدوج يغطيه قماش وردي، ووسائد بيضاء. جلست روبين على طرف السرير، تضم قدميها، يداها تتقاطعان على صدرها، وتسمع أنفاسها

متسارعة، غير مصدقة أنها تنتظر رجلًا يشتري متعته بالمال. كانت مشوشة، لا تستطيع أن تستقر على صورة من تلك التي تضج بها مخيلتها. بعد دقائق دخل عليها رجل ستيني مُتعته الإنصات لصراخ العذارى في لحظةٍ يراها تمجيدًا لذكورته، وإطاحة بأنوثتهن الباذخة. ليس لروبين تجربة في عالم الرجال، سوى قُبلة تبادلتها ليلة رأس السنة وهي في سن الثامنة عشرة، مع شاب يكبرها بثماني سنوات، اعترف لها بالحب، ثم اختفى.

بالكاد استطاعت أن تنظر في وجهه حين ألقى عليها التحية، وطوق عنقها بذراعه، وراح يتودد لها. في البدء كان الرجل الستيني يتصرف بهدوء، لكن ما إن خلع عنها ملابسها، ورأى جسدها النقي، البكر، حتى تعرى من ملابسه، وأقبل عليها بنهم مقزز. كان قاسيا بالقدر الذي جعلها تكز على أسنانها، وتقبض على طرفَي السرير، وتشد ساقيها بقوة لا إرادية، ما جعل الرجل يصرخ بها مستنكرًا وهو ينهض عنها، فرأت جسده المترهل. تذكرت ما قالته أمها من أن بعض الرجال حين يكبرون في العمر تكبر أثداؤهم. في تلك اللحظات القصيرة من الانشغال بالذاكرة، باغتها، إذ شعرت بألمين كبيرين، واحد جسدي تلاشى بعد ساعات من ذلك اليوم من فقدانها بكارتها، والآخر بقي يرافقها طوال عمرها الحافل برجال كثر يأكلون حصصهم المدفوعة مسبقًا من جسدها ثم يغادرون، من دون أن تنسى طعم القبلة اليتيمة التي نالتها في شرفة بيتها، ليلة أن ضجت سماء الحي الخامس بالألعاب النارية ابتهاجًا بالعام

الجديد، فردوس مفقود كانت تسعى لنسيانه بالخمر، والامتناع عن سماع الأغنيات، وقصص الحب، وحتى أي مشهد لعصفورين يتودد أحدهما للآخر.

* * *

غرقت روبين ببكاء نامت على إثره، ورأت في منامها أنها ضريرة، ترتطم بكل شيء وهي تعبر الشارع، إلى أن دهستها سيارة، فاستفاقت مفزوعة من نومها، حينها فرحت أنها ما زالت ترى. كانت الساعة قد شارفت على الرابعة بعد الظهر، وقد تبقى على موعد ليلة جوناثان خمس ساعات. لجوناثان مزاج جنسي سادي متطرف، إذ يفضل أن يمضي ليلته مع امرأة تكبره في السن، ويشترط أن تكون شهوانية غير متصنعة، فهو يرفض اللواتي يفعلن ذلك لأجل المال فقط. تنفق روبين جهدًا كبيرًا للعثور على ما يريد، وإن اكتشف أنها كانت تؤدي دورًا لا غير، يقتلها، وقد حدث هذا مرتين من قبل.

تبدأ ليلة جوناثان، والتي يسميها ليلة الحقيقة، بطقوس رومانسية، يقرأ في أولها أجمل القصائد للمرأة التي يقع عليها الاختيار. يرقصان على أنغام البيانو بهدوء وروية. يحتسيان أفخر أنواع النبيذ، ويتناولان ألذ الأطعمة. يسقيها مُرَكبًا كيميائيًّا، على شكل شراب لذيذ، يربط العقل الباطن بكل مكنوناته بالدماغ، ابتكره أحد خبرائه البارعين في مصانع الأدوية التي يمتلكها،

وبعد ساعة يصبح مَن يتعاطاه في قمة الانصياع للذة متوحشة. وحين يذهبان إلى السرير، يتدرج جوناثان في طقوسه، ابتداء من الملامسات الحانية، والقبلات الدافئة، إلى أن يصل إلى مرحلة تتبدل فيها ملامحه الوديعة إلى القسوة المطلقة، فيؤذيها، وهو يمارس الجنس معها، إلى درجة تُنقَل المرأة إثرها إلى إحدى مستشفياته الفاخرة، بحيث يضع جوناثان الأطباء، الذين لا يعلمون الحقيقة، أمام تحدٍّ كبير في أن يُرمموا بأسرع وقت ممكن جسدها الحافل بالجروح، وآثار الضرب والكدمات والنُّدوب، والمناطق المتورمة. وحين يفعلون ذلك تنال المرأة مبلغًا كبيرًا من المال، ويطلبُ منها أن تنسى ما جرى، وإن حدث عكس هذا تُقتل.

لا تعلم روبين من هو جوناثان، ولا تدري عنه شيئًا سوى أنه رجل أعمال ثري، وسَخيّ. عرفته حين وردتها رسالة يطلب كاتبها لقاءً ضروريًّا بجوناثان في ساعة متأخرة من الليل في شقة في أحد أبراج الحي الأول. في تلك الليلة لم يقترب منها، بل تحدّثا بمواضيع متفرقة، ومنحها مبلغًا كبيرًا، ثم تركها تغادر. بعد أسابيع أخبرها بحقيقة رغباته، وطلب منها أن تتكفل بترتيب ليلة الحقيقة، اسم لا تعلم عما وراءه شيئًا، رغم أنها شاهدت له مقابلة تلفزيونية، قال فيها: **إن الإنسان كائن شرير، غير أنه بارع في ارتداء قمصان الخير**. بعد مضي عام باتت روبين تنزعج من ترتيب لياليه الخاصة، إذ إن معظم النساء اللواتي عشن تلك التجربة مُنِينَ فيما بعد بأمزجة نفسية غير سوية، ومنهن من أقدم على الانتحار.

رغم أنها احتارت هل تلتزم بهذا الموعد الشهري، أم تتجاهله، إلا أنها اتصلت ببخت، امرأة غجرية اختارتها لأجل تلك الليلة، وذكرتها بالموعد، ثم راحت تتمشى في شقتها، إلى أن وقفت أمام صورة لها وهي في سن السابعة معلقة على الجدار.

وُلِدت روبين في الحي الخامس، حي فقير، كان للتو يشهد انتشار العصابات المسلحة التي تتاجر بالمخدرات. كانت الأكثر فتنة بين شقيقاتها وأشقائها. حين تجاوزت الثالثة عشرة اتضحت معالم أنوثتها، سمراء ببشرة ناعمة، طويلة، جسدها ممتلئ ومتناسق، لها ثديان نافران، ولها مشية كثيرًا ما جلبت انتباه الشبان والرجال، خاصة أحد القوادين الذين يعملون على اصطياد الفتيات الأكثر جمالًا للعمل في دور الدعارة، لكن قلبها كان مع ذلك الشاب، إذ إن أحلامها به مثل شجرة تكبر على مهل، كلما استعادت تلك اللحظات التي أمضتها معه، فتغدو يانعة، تقف أمام مرآتها وتحلم بعودته.

في تلك السنوات اضطر والدها للعمل سرًّا مع عصابة تتاجر بالمخدرات، وبعد أعوام قُتل على يدَي أحد أعضاء عصابة أخرى. كانت روبين في الثانية والعشرين من عمرها حين ماتت أمها، وتركت وراءها أربعة أطفال أكبرهم في الحادية عشرة. أمضت شهورًا تحاول العثور على عمل، لكن كل الأبواب سدّت في وجهها، إلا أبواب دور الدعارة التي تنتشر بكثرة في الحي الخامس، فانصاعت لما يريده القواد الذي ما توقف عن مراقبتها، وتقديم

المغريات لها. بعد مرور عشر سنوات تعرف بها أحد قُوادي الحي الأول، ودعاها إلى العمل معه في إحدى دور الدعارة هناك. دفع لها أضعاف ما تتقاضاه في الحي الخامس، فكان عليها أن ترحل عنه وتقيم في الحي الأول بعد أن عهدت بإخوتها لخالتها مقابل أجر شهري.

من إجراءات ترتيب ليلة الحقيقة أن تلتقي روبين بالمرأة التي تختارها، ثم تذهبا إلى حيث ينتظر جوناثان. مضت ساعتان ولم تأتِ بخت. أخذ القلق يتملّك روبين إذ لا يمكن لمن يقع عليها الاختيار لليلة الحقيقة أن تتراجع، لأنها اطلعت على من سترافقه، وإن فعلت ذلك فستتعرض للقتل، إنها أحد شروط جوناثان القاسية. حاولت روبين الاتصال ببخت لكن هاتفها كان مغلقًا. اتصلت بجوناثان، وطلبت منه أن يؤمن لها تصريحًا للخروج في وقت حظر التجوال، وركبت سيارتها وانطلقت بسرعة نحو مخيم الغجر.

عرفت روبين بخت في أحد النوادي الليلية منذ سنوات، ونشأت بينهما صداقة كبرت مع الأيام، إلى أن صارتا صديقتين مقربتين رغم ما بينهما من فارق عمري. اختارت بخت طريقها نحو الدعارة، بعد أن قُتل زوجها في محاولة سطو على أحد بيوت الحي الأول، تاركًا لها عائلة مكونة من ثلاث بنات، وأربعة أولاد، في غرفتين آيلتين للسقوط. مع الأيام ما تبقى لديها رغم جمالها ما يمكن أن يغري زبائن دور الدعارة والنوادي الليلة، لهذا ما عادت تخرج من مخيم الغجر إلا قليلًا. تزورها روبين مرة في الأسبوع،

وتعطيها ما يكفيها من المال لتنفق على عائلتها. وحين أخبرتها روبين بحيرتها باختيار امرأة لليلة الحقيقة، قدمت نفسها لأجل الأجر الكبير الذي ستناله رغم خطورة ما سَعت إليه، فهي تلقائية وغير بارعة في الادعاء بما يرغب به جوناثان. في أول الأمر رفضت روبين أن تُقدم بخت على تلك الفعلة، إلا أنها رضخت لقرارها بعد إلحاح كبير.

كان الليل قد حل للتو عندما وصلت روبين مخيم الغجر، وغارت عجلات سيارتها في الحفر، وقفزت عن مطبات، حفلت بها طرق ترابية، تتلوى بعشوائية بين الخيام، والبيوت، في عتمة تبدد جانبًا قليلًا منها أضواءٌ شحيحة. لم يجب أحد حين طرقت روبين باب بيت بخت لمرات متتالية، لكن شابًّا كان قد رآها من قبل أخبرها أن صديقتها في حفل زواج في الجهة الجنوبية من المخيم. استغربت روبين من تجاهل بخت للموعد، رغم تحذيراتها إن أخلفته، أو باحت بشيء حوله، أو كُشف ادعاؤها بما يثير رغبات جوناثان. عبر الطريق إلى المخيم اعتقدت روبين أن مكروهًا حدث لبخت، وحين علمت أنها تشارك في حفل زواج، أثار ذلك حنقها.

أطفأت محرك سيارتها قبالة خيمة كبيرة، اعتقدت لوهلة أنها للسيرك، زُينت بشرائط ملونة، وبمصابيح موصولة بمولدات كهربائية، ضمت مدعوين كثر، يجلس بعضهم على مقاعد بلاستيكية، ويفترش آخرون التراب، والبعض الآخر كان يراقب

واقفًا حلقة للرقص تقع قبالة مسرح خشبي يقف عليه باختو، حاملًا كمنجته بتودُّد رجل لامرأة لا أحد غيرها يطرد عن روحه كائنات الشقاء. وراءه عدد من ضاربي الطبول، والدفوف، وعازف «أورج»، يفسح للكمنجة طريقًا لتفر ما في روح عازفها من طيور تحلم بأفق أزرق بلا غيوم داكنة. في ذلك المساء ارتدى باختو بنطالًا أبيض يهبط عليه قميص أبيض مطرز بخطوط حمراء، نصف أزراره غادرت عرواتها، فكشف عن سلسلة فضية في عنقه تدلت منها خرزة زرقاء تلمع تحت أضواء المصابيح الغزيرة. حين هبطت روبين من سيارتها، كان رأس باختو يميل على مقربة من بطن الكمنجة، ويكاد يستقر عليها، بينما يُبعث اللحن صافيًا وحنونًا، ينصاع الراقصون والراقصات لأثره الساحر، فيدورون، ويقفزون في الهواء كأن الجاذبية استراحت من مهمتها الأبدية.

استسلمت روبين للكمنجة. كان ذلك أشبه بمَن هجمت عليه في ظهيرة تموزية نسمة هواء باردة. استسلام جاء بعد امتناع قديم عن سماع الموسيقى. شعرت أنها لأول مرة تستعيد ماضيها بلا حزن. نسيت أمر الوباء، وأمر بخت، فانتقت لها مقعدًا، وجلست تنصت لما يفعله باختو. كان طقس الحفل ساحرًا وماجنًا، تُرفع فيه كؤوس الخمر، وآهات الكمنجة، وتتمايل قدود النساء وهن يقمن بارتعاشات جسدية مثيرة لرجال كان لهم أن ينسوا قسوة النهارات القصية عن رخاء مدينة الجد الأول. مضى وقت كان باختو عبره غارقًا في عالمه، يعزف وعيناه مغمضتان، لا يفتحهما إلا قليلًا،

وإن فعل ذلك يبدو كما لو أنه يراقب في الأفق شيئًا ما، ويبتسم. شعرت روبين أنها أمام ساحر يشارك الناس هيامه بالموسيقى. انصاعت لتلك اللذة، لكنها تذكرت جوناثان، وما يمكن أن يحدث لو لم تحقق له ليلته تلك.

هرعت تفتش بين الغجر عن بخت، إلى أن وجدتها ترقص بخفة فتاة عشرينية بعد أن شربت عددًا من كؤوس الخمر، وأرخت روحها للموسيقى، وللأغنيات المشوبة باللوعة، والاشتياق. لم تنصت لروبين وهي في خضم الصخب، تخاطبها بصوت مرتفع. حين نظرت في وجهها كانت تردد بمعية مطربٍ يغني للحب في ليالي الشتاء الباردة. حاولت روبين أن تقتادها خارج الخيمة. في البدء تمنعت، وفيما بعد صرخت في وجه روبين: **لن أذهب لهذا الرجل المريض، لأني سأفشل في تحقيق رغباته الشاذة، حينها سأُقتل**. أمضت روبين وقتًا تحاول إقناعها برفقة جوناثان، لكن خوف بخت بدا أكبر من أن تقوى على خوض تلك المغامرة.

كانت أضواء المدينة تهجم على روبين، وسيارتها تنطلق بسرعة نحو البيت الذي ينتظرها فيه جوناثان، إذ ما تبقى إلا أقل من ساعة على الموعد المتفق عليه، لكنها توقفت فجأة، حين استعادت ما رأته في الحفل من بهجة لم تُهزم أمام ما يُمْنون به من قسوة ومشقات كثيرة. في مخيلتها كانت صورة المدينة المصابة بالوباء تتداخل في صورة المخيم، وفي الآن نفسه استعادت صدى اللذة التي شعرت بها أمام موسيقى حرمت نفسها منها لسنين خشية

من ذاكرتها، ذاكرتها المتخمة بالأسى، والخسارات الفادحة. أغلقت روبين هاتفها النقال، وعادت إلى مخيم الغجر.

كانت لحظة صحو استثنائية أشبه ما تكون بإحساس من اكتشف ألا قيمة لخوفه ما دامت الذئاب لا تزال تقف في منتصف الطريق. في الحفل ألقت بنفسها بين الراقصين والراقصات، تعتريها لذة لم تعِشها منذ تلك السنة التي مات فيها أبوها. كانت تشعر بخفة وتوهج يطردان عنها ظلمة كثيرًا ما تراكمت على عينَي روحها، فلا ترى كما يرى الساعون إلى الحياة، رغم آلامها الكثيرة.

في الصباح، عُثر على بخت وروبين، مُلقاتَين على أطراف مخيم الغجر، تغرقان في دمائهما.

٣

مضى على المدينة ثلاثة أيام من حظر التجوال، كان الناس عبرها يُقاسون الظهور القصير لنسخهم الشبحية، ويترقبون أي خبر يشير إلى قرب الخلاص من تلك المحنة، منهم من غدا التلفاز قبيله اليومي، ومنهم من باتوا دائمي الالتصاق بهواتفهم النقالة التي تعج بأخبار شتى، أهمها أن عدد المنتحرين بسبب الوباء في تزايد كبير، حتى إن هناك كثيرًا من التسجيلات المصورة نُشرت في وسائل التواصل الاجتماعي، لحالات انتحار هستيرية، ولأناس كثر أصابهم الذعر والهلع، من مصائر مرتقبة. ثمة لحظات كانت تمر على باختو يرى فيها أن ما حدث محض حلم، غير مصدق أن مخطوط الجد الأول بحوزته، وأن مصير المدينة بيديه. خطر بباله أن يذهب إلى حيث خبّأ المخطوط ليتأكد من حقيقته، ومن أن الجد تحدث عن طائر أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة، إذ خشي من تقاطع الحلم بالحقيقة، فهو الطائر ذاته الذي رآه في منامه، ولم يره على أرض الواقع. تجاوز الخيمة بخطوات، مقصده الصخرة التي خبّأ عندها المخطوط، لكنه تراجع خشية أن يفتضح أمره.

منذ أن قرأ باختو مخطوط الجد الأول وهو منشغل بالناي، وبالطائر الأبيض. كان يترك الخيمة، يفتش الأفق، والجهات، لعله يعيد للناس وجوههم الضائعة، ويجنب المدينة الهلاك. بدا الأمر محيرًا، ومربكًا، إذ ليس هناك من طيور بيضاء بين عينيها نقطة زرقاء مضيئة، فهذا ضرب من الخيال. لم يشاهد باختو في حياته طائرًا من هذا النوع لا في مخيم الغجر، ولا في المدينة، سوى في منامه الغريب. ذهب من قبل إلى حديقة الطيور مرتين، ولم يرَ طائرًا مثل ذلك الذي يُشير إليه المخطوط، ولم يسمع به. صحيح أن هناك طيورًا بيضاء، لكن ليس هناك من نقطة زرقاء مضيئة بين عيونها. استخدم هاتفه النقال، وقام بعملية بحث مطولة في شبكة الإنترنت عن ذلك الطائر، فلم يجد شيئًا، لذلك بات أكثر حيرة: في أي مكان سيبحث، في المدينة، أم خارجها؟ وفوق ذلك بات حائرًا هل ما جرى مجرد حلم، أم واقع وحقيقة؟ كان متأكدًا أنه دفن المخطوط قرب الصخرة، وإن ذهب هناك فربما يُفتضح أمره، حينها ستتهاوى المدينة المعلق مصيرها بين يديه.

في اليوم الخامس من ظهور الوباء، ترك باختو الخيمة، ومشى نحو أطراف المخيم. استلقى على التراب، يتوسد يديه. كان حزينًا، وتائهًا، ينظر إلى السماء بزرقتها الصافية، وقد اختطف امتدادها اللانهائي مخيلته بعيدًا إلى فكرة اللانهاية، فاستعاد ما قاله الجد الأول في مخطوطه من جديد: **طائر أبيض، بين عينيه، نقطة زرقاء مضيئة.** تأمل مخيم الغجر، وقد نُصبت خيامه، وبُنيت بيوته

على أرض مستوية، ليس فيها أشجار سوى القليل، وما رأى يومًا طائرًا بتلك المواصفات يحط على أغصانها. مع هذا فقد بحث عنه في المخيم وفي الوديان، وبين الصخور، وفي كل مكان يمكن أن يحط فيه، ولم يجده. شعر كأنه تلقى ضربة على رأسه، وهو يقاسي ذلك التيه، يحاول الاستقرار في منطقة وسطى بين حقيقة ذلك الطائر والخيال.

أمضى باختو أيامًا أخرى مستغرقًا في التفكير، حتى إنه زهد في الطعام، والحديث إلى أي أحد من أفراد عائلته إلا قليلًا. يمضي جل وقته في الخلاء، ساهمًا، يتلفت نحو الجهات، إلى أن اشتكت أمه من تصرفاته الجديدة. غضب والده، وحاول أن يثنيه عن عزلته، إلا أنه فشل في ذلك. وجده في الصباح مستلقيًا على التراب يحدق إلى السماء. شعر شاندور بوخزة في روحه، إنه ابنه الذي يحبه جدًّا، وها هو الآن على حافة الهاوية، بوجه مصفر وذابل، صامت لا ينطق إلا قليلًا. اعتقد شاندور لوهلة أن الوباء وراء ما يعانيه باختو. جلس قربه، يحنو عليه، ويلاطفه، يدفعه على الأقل ليأكل قليلًا من الطعام، بينما أمه تقرفص على مقربة منهما، وتحتضن رأسها بيديها، وتبكي بصمت. وحين لم يستجب لتوسلات أبيه، صرخ شاندور غاضبًا: **إنها الأرواح الشريرة الكامنة في الكتب، التي أتى بها من المدينة لأكثر من مرة.**

في المساء استفاقت بدور على صوت باختو وهو يهذي في منامه، وما فهمت مما كان يقوله سوى حديثه عن طائر أبيض

بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة. أخذت تهزه بيديها إلى أن استفاق من نومه، يرتعش، ويستبيح نَفَسه اللهاث. طلب كوبًا من الماء، فأسرعت تروي عطشه. جلس في فراشه يعقد يديه على صدره، ينظر بوجه أمه وقد تملّكها الحزن عليه أكثر من ذي قبل. مسحت بكُم ثوبها عرقًا بانَ تحت ضوء الخيمة الشحيح على جبينه. قالت بتوسل، وصوتها تخالطه أنات البكاء: **ما بك يا باختو؟** أخفض من صوته: **هل رأيت من قبل طائرًا أبيض، بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة؟** استغربتْ بدور سؤاله: **هل أنت بخير؟** أجابها بتعجل مشوب باللهفة: **صدقيني أنا بخير. لكن أجيبيني.** قبل أن تفرج عما تعرفه، صمتت تحاول فهم ما يعانيه، وقد كان يكرر سؤاله بإلحاح يدعو للريبة: **نعم رأيت هذا الطائر.** كاد باختو أن يفر من فراشه ثم صرخ بصوت كتمه على الفور لئلا يفتضح أمره. أمسك بكتفيها، وراح يتوسلها: **أين أجده، أين؟**

استغربت بدور كيف عرف ابنها قصة الطائر الأبيض، لكنها روت له ما حدث: **في تلك السنة شعرت بألم الولادة في منتصف ليلة شتائية موحشة، رياحها تدفع بالخيمة إلى كل الجهات، وتكاد أن تقتلعها. كنت بمفردي، ولا أدري أن والدك يمضي وقتًا في حضن إحدى عشيقاته في المخيم. كان الألم أكبر مما سمعت عنه من النساء اللواتي ولدن قبلي، ألم شعرت خلاله بأني على مقربة من الموت. صرخت بكل ما لديَّ من طاقة لعل أحدًا من سكان المخيم يسمعني، لكن لا مجيب. بقيت على تلك الحالة**

حتى اللحظة التي أخذ فيها ضياء الفجر ينبلج شيئًا فشيئًا. هدأت الرياح الشديدة، وتلاشى زعيقها، وعمَّ السكون. حين أشرقت الشمس، رأيت طائرًا أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة، يحط على حبل الخيمة، وبقي يحدق إليَّ، إلى أن أطلقت صرخة قوية، فأنجبتك. كان باختو في أعلى درجات تركيزه، وترقبه، وأمه تروي له ما حدث. اقترب منها، وقال بتوسل: **أين ذهب الطائر**؟ أشارت بدور بيدها نحو الغرب: **طار إلى جبل الجد الأول.**

لشدة فرحه، كاد باختو أن يُخبر أمه بما يخفيه، لولا وصية الجد الأول التي خالفها حين أخبر توليب عن المخطوط. في تلك الليلة، رأى المنام ذاته، يعزف على الناي، والطيور البيضاء التي بين عينَي كل واحد منها نقطة زرقاء مضيئة، تفر من صدره، وتهرع نحو القمر.

٤

لم تخلُ شوارع الحي الخامس من المارة في ذلك الصباح، بخلاف الأحياء الأخرى، التي خضعت لأمر حظر التجوال. إنه أكثر الأحياء خطورة، وخروجًا على القوانين، حي تكثر فيه العصابات، والمجرمون، وتجار المخدرات، ومروجوها. بيوته قديمة، ألوانها كالحة، وآيلة للسقوط، تفوح من زقاقه روائح القمامة، والبول، والرطوبة، والعفن. نشأ الكثير من تلك البيوت بعشوائية مفرطة، وكأنها نيازك سقطت من السماء. أشرعت بعضُ المتاجر أبوابها باكرًا في ذلك الصباح، وحفلت بعض المقاهي والحانات بروادها رغم مطاردة نسخهم الشبحية لهم. هناك من اكترث بالوباء، وهناك من تجاهل أمره. بدا كما لو أن الحياة في ذلك الحي تسير على نحو شبه عادي. حي لم يكن على تلك الشاكلة، بل كان هادئًا، يعمل كثير من سكانه بالحِرف اليدوية، وبالصناعات الخفيفة التي تؤمّن لهم عيشًا كريمًا، ولا يعلمون أنه يقع على كميات من الذهب لا يدري عنها سوى قلة، منهم أبناء الطائر الأسود الذين ما وجدوا سبيلًا إليه إلا أن يصبح الحي جماعات متناحرة، تغرق بالمخدرات، وبالعنف.

كان فايد ناشطًا في حركة طلابية في أواخر سنين المدرسة، ثم عُرف أكثر بعد السنوات الأولى لدراسته الجامعية، حركة تسعى إلى صد كل من يحاول السطو على مقدرات الحي الخامس، وتضع الحقيقة نصب أعين الناس. يحظى بقبول لافت بين الكثيرين، فهو ذو شخصية مميزة، قوي البنية، وقارئ نهم، وذكي ذو عقل متقد، يحلم بأن تسود العدالة، ويعرف جيدًا ما يُحاك في الخفاء. كان والده نجارًا ماهرًا، وأمه ربة بيت تقوم على شئون عائلة مكونة إضافة إليه من ولدين وبنتين، لا يغيب عنهم إلا حين ينشغل بأمور الحركة.

تفشت في الحي الخامس أنشطة إجرامية لعصابتين لم تكونا بذلك التحدي السافر للشرطة. باتت الشوارع غير آمنة كما كانت عليه، وما عادت إدارة الحي قادرة على أن تخلص الناس مما طرأ على حياتهم. ازداد نشاط فايد، وراح يقود الحركة ضد ما يحدث، فكشف أوراقًا لم تكن معلومة، تشي بتحركات مشبوهة لتقويض أركان الحي. حاولت إحدى العصابتين اغتياله ونجا، لكن عائلته لم تنجُ، إذ ذُبح كل أفرادها، من دون أن يدري أن أبناء الطائر الأسود هم الذين كانوا وراء ذلك، ليصنعوا منه مجرمًا، يملأ الحقد قلبه، ويصبح التوحش عنده أمرًا مقبولًا، وبالتالي يستثمرونه لأغراضهم.

حين نجح مخططهم، قادته الصدمة إلى أن يتخلى عن الحركة، وأسس عصابة صارت الأكثر إجرامًا في غضون سنوات قليلة، فساد الحيَّ زعيمان أحدهما فايد الذي استخدمه أبناء الطائر الأسود

لتنفيذ كثير من عمليات الاغتيال في عدد من الأحياء، منها ما كان إسكاتًا لبعض الأصوات، ومنها ما كان لخلق نزاعات عديدة. حدث كل هذا من دون أن يعلم فايد أن أبناء الطائر الأسود هم أيضًا من دفعوا بأن تتشكل تلك العصابة بسرعة، وتغدو في أعلى درجات قوتها وشراستها.

بات فايد الرجل الأكثر خطورة في مدينة الجد الأول، وليس فقط في الحي الخامس، فهو الزعيم الأول لتجارة المخدرات، والأسلحة، والتصفيات مدفوعة الأجر. إن عاداه أحد فإن عصابته تُواجِهه بأشرس الوسائل، وأكثرها بشاعة، ما خلق الرعب في قلوب أعدائه الكثيرين. سُجن لأكثر من مرة لكن عصابته استطاعت أن تُهربه بوسائل شتى، أهمها المال الذي يملك منه الكثير. ما يعرف عنه أن قلبه يخلو تمامًا من أي ذرة للرحمة، أو الشفقة على أحد. ما يقوله يجب أن يُنفذ بحذافيره، وإن تهاون أحد من معاونيه بأمر مثل هذا، فإنه يقتل على الفور على مرأى من أعين معظم أفراد عصابته الذين ينتشرون في كثير من أحياء مدينة الجد الأول.

* * *

عند العاشرة صباحًا، وعلى غير العادة، هبط فايد من سيارته المصفحة ضد الرصاص، في شارع يقع فيه بيت عائلته المهجور، يرافقه حراس مدججون بالسلاح، وطلب أن يدخل البيت بمفرده. بقرب ممر يفضي إلى البيت مقهى حين رأى روادُه فايد بقامته

الطويلة، وكتفيه العريضتين، وملامحه الجادة، نهض بعضهم، والبعض الآخر غادروا سريعًا، إلا عجوزًا محني الظهر، ملأت وجهه التجاعيد، يرتدي ملابس رثة، ينظر في مرآة صغيرة، ويتمتم، بلا اكتراث بأحد. وقف فايد على مقربة منه، وقد رآه يُعيد المرآة بصعوبة إلى جيبه، ثم بيدَين مرتعشتين يرتدي نظارته، ويمسك بكتاب، ويقرأ. خلع فايد نظارته الشمسية، فبدا وجهه خاليًا من القسوة على غير المعتاد، ثم اقترب من العجوز، ولامس يده: **صباح الخير يا أستاذي.** نظر العجوز إليه يتفحصه، بعينين صغيرتين تكاد التجاعيد تطمرهما، ثم حين عرفه، وضع الكتاب جانبًا، وأبعد يده عن يد فايد بغضب: **لو أني أستاذك كما تزعم، لما بعتَ نفسك لمن عاثوا بهذا الحي فسادًا، لأجل مطامعهم.** لم يجد فايد ما يقول، إنه أستاذ اللغة الذي درس على يديه، قبل أن ينشئ عصابته حين نشبت النزاعات في الحي الخامس.

استدار العجوز قليلًا إلى جهة فايد، وقال بصوته المرتجف: **كنتَ نبيهًا، ثم انحرفت، فقُدتَ هذا الحي أنت وأمثالك إلى الخراب. من المؤكد أن نسختك الشبحية قالت لك هذا.** أشار العجوز بيده المرتعشة إلى الشارع، حيث مر اثنان ممن أصيبوا باختلال الحواس: **انظر كيف يمشي هؤلاء الناس كأنهم آلات، إن حواسهم ليست بخير، ما عاد همهم سوى أن يأكلوا، ويضاجعوا النساء، فهم لا يكترثون لا بالوباء، ولا بأشباحهم. هل تعتقد أن هذا أتى من فراغ؟** أخرج العجوز المرآة من جيبه، ووضعها أمام

وجه فايد: **ثم إننا ما عدنا نرى أنفسنا. حتى الأطفال الذين ولدوا هذه الأيام، سيكبرون بلا ذاكرة، بل تصاحبهم غربة مقيتة. جميعنا الآن بلا هوية.** نظر العجوز إلى عمق الشارع: **بات الناس أجسادًا بلا أرواح. معظمهم يتلفتون حولهم خشية من نُسخهم الشبحية، حقًّا ما تبقى أمامهم إلا الموت.** اقترب من وجه فايد، وقال بغضب يتخلله الأسى، وهو يشدد على كلماته: **لم يأتِ هذا الوباء من فراغ.**

غادر فايد نحو بيت عائلته المهجور. وقف قبالة باب بهت لونه، وتقشر طلاؤه، يتأمله بعد سنين لم يقوَ خلالها على العودة إليه. أخرج مفتاحًا من جيبه، وأداره في مكانه الصدئ، ثم قبض على أكرة الباب، وعبر إلى الداخل، ورعشة العودة إلى الأماكن الأولى تجتاح قلبه بضراوة. رأى الغبار يتراكم على أثاث صالة الجلوس العتيق، وعلى الصورة العائلية التي يظهر فيها والد فايد وأمه، يتوسطان ولدين وبنتين.

لم يدخل فايد هذا البيت منذ السنة التي ذُبحت فيها عائلته. خبأ لسنين حنينَه لعائلته وراء كل أعماله الإجرامية التي قام بها لصالحه، ولصالح أبناء الطائر الأسود، ولصالح جماعات أخرى. كان كلما راوده مشهد العائلة ورؤوسهم مبتورة عن أجسادهم، ينكب على الشراب، فيوغل في بطشه، ويفرض مزيدًا من السيطرة على الحي، وينفذ عمليات إجرامية مأجورة. غير أنه شعر بحاجة جارفة لعائلته منذ ليلة مقتل روبين وبخت، على أيدي أفراد عصابته لصالح جوناثان، إذ سأل أحد رجاله عن المرأتين المقتولتين، فأخبره

باسميهما. ما إن نطق الرجل باسم روبين حتى نهض فايد من أريكته مرتبكًا، وطلب بتعجل رؤية صورة لها. حين رآها دفعت به الصدمة إلى أن يتهاوى على الأرض مُغمى عليه. إنها روبين التي أحبها في شبابه، وقبَّلها ليلة رأس السنة، ولم تفارق ذاكرته رغم مرور كل تلك السنين.

حين عرف في تلك السنة أنها امتهنت الدعارة، غضب كثيرًا، وأمر بقتلها، لكنه تراجع عن ذلك، إذ أحس بضعف حاد تجاه قراره، فلم يستطع أن يُقدم على قتل امرأة كلما قرر أن ينهي حياته حزنًا على فقدانه عائلته، تخرج إليه من عتمة روحه، وتبعد يده التي تقبض على المسدس المصوبة فوهته إلى رأسه. تركها لشأنها، رغم إدراكه أن الحب مصباح لا ينطفئ مهما أوغلت الرياح في زعيقها المشئوم.

في الليلة التي علم فيها أن عصابته أقدمت على قتل روبين، شعر فايد أنه مثل غصن يابس يمكن أن يُكسر في أي لحظة. وحين علم أن أبناء الطائر الأسود هم من كانوا وراء ذبح عائلته بتلك الوحشية، صار على حافة الجنون، إذ استشاط حزنًا وغضبًا، وبات كالثور الهائج، هشم معظم ما كانت تقع عليه يداه، وطرد كل من كانوا برفقته. تكور على نفسه على الأريكة، يبكي كطفل مخذول، وكل ما فعله عبر سنوات انضمامه وترؤسه للعصابة يمر أمام عينيه، يصيبه بأكثر مما يخلفه العار على الإنسان.

* * *

ترك فايد صورة العائلة، ومشى نحو غرفة أمه وأبيه، ينظر فيها بحزن وندم طافحين. عرج على غرفة شقيقاته، ثم دخل غرفة أمضى فيها سنينًا لا تُنسى مع أشقائه. كان الغبار يغطي سريرين وصوفة ومقعدًا، وطاولة عليها كتب وأقلام ودفاتر. بهتت معظم الألوان، حتى الضوء حينما أشعله، بدا شحيحًا، يبعث على وحشة كان ضعفها يتفجر في روحه بشراهة. جلس إلى مقعد قبالة مرآة حفلت بشرخ طويل، متعرج. في تلك اللحظة رأى شبحه يخطو نحوه بتمهُّل. كانت ملامحه هادئة، بل إن فيها شيئًا من الأسى الذي يغزو وجه فايد. وقف الشبح وراءه، يعقد يديه على صدره، يحدق إلى وجه فايد، والمرآة المشروخة تقسمه إلى نصفين غير متوافقين: **كنت سأقول لك منذ أن قررتَ التنازل عن نسختك الحقيقية، بألا تفعل ذلك، لكني لم أستطع.** تمتم فايد بصوت يشوبه الأسى: **ليتك منعتني عن المشي في تلك الطريق الوعرة.** وقف قبالة نسخته الشبحية، دار حولها ثم صرخ وفي صوته حشرجة توحي بأول البكاء: **كان الحقد وشهوة الانتقام يملآنني، غير مدرك أن هذه المدينة تمضي نحو الهاوية.** جاء صوت نسخته متعاطفًا، وشامتًا في الآن نفسه: **ها أنت قد علمت الآن أيها الشقي، ولا سبيل لك إلا الموت.**

ربما أن فايد واحد من القلائل الذين لم يخشوا نسخهم الشبحية، حتى إنه لم يُعانِ صراعًا بين رغبته في الحياة، وبين موت تزينه له تلك النسخة، لهذا فتش عنها بلهفة حين اختفت، رغم أنها تضيء له على كل ما فعل.

تجول فايد في البيت، يشعر بخسران كل تلك الأيام التي مضت، وبألا نفع من كل ما سوف يأتي. ثمة مرآة يغطيها الغبار، كانت لا تزال فوق صنبور الماء، مسحها بيده، وما لاح فيها شيء سوى جدار عُلقت عليه صورة عائلته. كان كلما أوجعه ضميره يهرع إلى المرآة، يتحدث إلى نفسه، يعترف لها بكل ما فعل في ذلك اليوم، وبما ينوي فعله، يقيم جدالًا مطولًا معها، وغالبًا ما كان يصل إلى تبرير يسعى إليه منذ أن انخرط في سلوكه المتطرف. كانت المرآة ملاذًا شخصيًّا له، إنها إحدى طقوسه شبه اليومية، التي يريد من ورائها توازنًا يُجنبه الاستسلام في ظل ما يعيشه من ضجيج، إلا أنه، عندما أصيب بالوباء، ازداد وجعًا، وشعورًا بالخسارة، إذ أيقن أن مرآته كانت تلوي عنق الحقيقة رغم رؤية نفسه فيها، ما قاده إلى التفكير بطريقة يكفر فيها عن خطاياه، ويعيش كما كان في تلك الأيام التي أحب فيها روبين، ورأى أن البهجة تكمن في قلبها الطاهر.

٥

بعد مُضي أسبوع من تلك الليلة التي أخبرته فيها أمه عن الطائر الأبيض، وقبيل شروق الشمس، غادر باختو مُخيم الغجر، إلى جبل الجد الأول، يحمل معه ما استطاع من الطعام والماء، وبعضًا مما يحتاجه في رحلة البحث عن الناي. اتخذ هذا القرار رغم ما سمعه من حكايات في طفولته عن الجبل، تحديدًا تلك الحادثة القديمة التي اختفى فيها الشُّبان، ومن ذهبوا للبحث عنهم. في تلك الأيام كلما أوغل الصغار في مشاكساتهم، أخافهم الكبار بما في الجبل من أرواح شريرة كامنة منذ الأزل. كان باختو أحد الذين تأملوا الجبل في ذلك العمر والشمس تتوارى وراءه، فتحل الظلمة شيئًا فشيئًا، وقد بدا له مثل كائن خرافي يشيع في النفس رهبة ووحشة. مع استمرار التركيز به رأى الكثير من الصغار مشاهد لكائنات مرعبة، هربوا على إثرها نحو الخيام، مصابين بخوف خلق كوابيس مرعبة.

لم يخلُ باختو من ذكريات الطفولة، وهو يسرع من خطواته عبر آخر ساعات الليل على عجلة من أمره، لئلا يراه أحد من قاطني مخيم الغجر. رغم تردده فيما يسعى إليه، كانت خشيته على توليب،

وعلى المدينة، تدفعه للمضي في طريقه، مؤمنًا بتلك المهمة. كان عليه أن يجد ذلك الطائر ليعثر على الناي، فقد عمت الفوضى المدينة، وتكاثرت أخبار حالات الانتحار أحد أعراض الوباء. باتت الشوارع موحشة، والناس معزولين في بيوتهم، يحدقون إلى المرايا، ينتظرون عودة وجوههم الضائعة. لقد اختتم هذا الوباء كل ما مرت به مدينة الجد الأول من تقلبات غريبة، لا أحد يدري أسبابها، مثل أولئك الذين أصيبوا باختلال الحواس، ومثل المعارك اليومية التي تحدث بكل وحشية، إضافة إلى شيوع السرقات، والسطو على البنوك، والجرائم الغامضة، وصعود نجم كل ما هو ضحل.

كانت الشمس قد أشرقت للتو حين قصرت المسافة بين باختو وجبل الجد الأول، فخضبت حمرتُها الرمال، وأعلنت عن صباح هادئ، بدايته سكينة وافرة، وطُهر روحي غزير. شعر باختو لوهلة أن الجبل يشبه الجد: كبير، وقور، وممتلئ بالحكمة، يرنو إلى سلالته الممتدة، ويهجس بما سوف تأتي به الأيام اللاحقة. حمل باختو حقيبته، وسار مدفوعًا بهمّة مضاعفة، وأمل يشم رائحته مع نسمة هواء طرية كانت تسري في ذلك الصباح. أخذت قدماه تغوران في رمال أرجوانية ناعمة، وأصبح للسكون إيقاع آخر، يمسح على جبين روحه بخفة غير معهودة. بدا له الجبل يرحب به، بحجارته الأرجوانية، التي نحتت الرياح فيها أشكالًا عشوائية، منها ما رآه وجوهًا لرجال يسهون بشيء ما، ومنها ما وجد فيه نساء يرفعن أياديهن إلى السماء. أصاب الجبل روح باختو برهبة غير معهودة، وأحس أن كل ما فيه ينطق بالحياة، حياة لم يذق لها طعمًا من قبل.

حين وصل قاع الجبل افترش التراب، وجلس يلتقط أنفاسه، ويفكر أين يمكن أن يكون مهبط الطائر الأبيض. تفحّص المسافة الطويلة التي عليه أن يمضي عبرها صعودًا، وأسند ظهره إلى صخرة، وراح يحلم باللحظة التي يعثر فيها على الناي. من مخيم الغجر كانت خيوط الدخان تصعد عاليًا في صباح سماؤه زرقاء صافية. إنها أدخنة نيران تستخدمها النساء للطبخ وإعداد الخبز، ولبعض ما تحتاجه العائلة. تأمل المدينة وهي تجاور المخيم، تعتمرها غيمة رمادية مما تلفظه العربات والمصانع من أدخنة. كان باختو يعلم أن عائلته ستقلق من غيابه، وستعتقد أن مكروهًا قد حدث له، مع هذا لم يخبر أحدًا منهم، فلا مجال للمغامرة بمهمة لو علموا بها، فلا بد يعتقدون أن الجنون أصابه، أو أن ما يفعله أمر عبثي، أو يفتضح أمره.

حمل حقيبته، ومضى يصعد طريقًا متعرجة، تمر بين حشائش جافة، وشجيرات حرجية صغيرة، كان عبرها يفتش في كل الجهات، لعله يعثر على الطائر. كلما مضى في خطواته، تزداد الطريق ارتفاعًا، ووعورة، بين صخور متشعبة الأشكال. قدَّر أنه عند انتصاف الشمس في عقر السماء سيصل إلى القمة، لكن الطريق اختفت بعد ساعة من المسير، فسلك دروبًا بين الشوك والحجارة والصخور، إلى أن أتعبه صعود الجبل. وضع يده فوق عينيه، يفتش كلَّ شيء حوله عن ضالته. ثمة طيور وعصافير على الأشجار ليس بينها طائر أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة. اعتلى صخرة كبيرة، واستلقى على ظهره، قبالة سماء صافية تحلق فيها طيور

وعصافير ليس بينها ما يبحث عنه. استعاد ما قرأه في المخطوط، فوجد أن طائرًا مثل هذا لا بد يكمن في الأعالي، إذ قاده اعتكاف الجد الأول في قمة الجبل إلى تلك النتيجة. لكن ماذا لو لم يجد الطائر؟ تساءل باختو، ثم أقصى هذا الاحتمال من مخيلته، وراح يرنو إلى المدينة، وقد لاح له جانب كبير منها، حتى إنه رأى الحي الثاني حيث تقطن توليب.

تمنى لو أنه حمل معه هاتفه النقال لعله يسمع صوتها. فكر في الحب، كيف يحدث من جهة واحدة، وتذكر كم كان لحوحًا في أن يلتقط منها ولو كلمة تشي بما يمكن أن تُكنه له. فكر في حيرته أمام امرأة تقترب منه كما لم تقترب منه امرأة من قبل، لكنها في الآن نفسه غامضة، أو خائفة من أمر ما. عادة ما تأتي التجارب الأولى في الحب متهورة، مثل نزول شخص لا يُجيد السباحة إلى بحر ساكن. لو تلاطمت الأمواج فستصبح نجاته مرهونة بقدرته على التوازن. إن عبور توليب نحو حياة باختو يشبه عبور باختو إلى المدينة لأول مرة، كلاهما سبّبا له صدمة حادّة. في المدينة رأى باختو أن يُزيل الأوساخ من شوارعها التي لفظته، ولفظت أبناء جلدته، يكنسها وهو في كامل أناقته، وفي أطيب روائحه العطرية، وعلى أنغام موسيقى نوَّار المطرود من مرحلتها الجديدة. وسواء كان يعي ذلك أم لم يعِ فإنه يُبدي احتجاجه من جهة، ولا ينصاع إلى صمته المحايد من جهة أخرى. أما توليب فإنه أحبها بعدما كان يعتقد أنها تراه مثلما يراه كثيرون في مدينة الجد الأول، فانطلق يبحث عن الناي، لأجل

ألا يخسر الضوء الوحيد الذي أضاء عتمة روحه، ولأجل مدينة مثلما آمَن بتنظيفها من أوساخها، آمن بأن يسعى لأجل ألا تفنى.

تناول باختو قليلًا من الخبز وحبة طماطم وقطعة جبن وشيئًا من الماء، ثم مضى في طريقه. أخذ الهواء يشتد، والطريق تصير أكثر وعورة. كان يهجس وهو يكابد الأشواك والحجارة، وتلك القنوات التي يشقها الماء في فصل الشتاء: **تُرى هل سَلَكَ جدنا الأول هذه الطريق، أم طريقًا أخرى؟** شعر بالزهو، ورأى أن مهمته هذه لم تأتِ من باب الصدفة.

وقفت الشمس على رأس جبل الجد الأول، وباختو لا يزال في منتصف الطريق إلى قمته، لكن إصراره كان يزداد كلما نظر وراءه، ورأى المدينة، ومخيم الغجر، يتضحان أكثر عند الغروب، اقترب من بلوغ غايته، خائر القوى، بالكاد تقوى قدماه على حمل جسده. كان عليه أن يسير لساعتين على الأقل عبر الوعورة القاسية، حيث غدت الصخور أكبر حجمًا، والانحدارات أكثر خطورة، والأشجار والأشواك أكثر تشابكًا من ذي قبل. ثمة أصوات لطيور وحيوانات أثارت فيه التوجس والريبة، خاصة حين وجد العتمة قد بدأت تسري حوله، وتُبدل ملامح المكان.

لاحَ له طيف قبر الجد الأول قبالة جدار صخري مرتفع فيه كهف بوابته شبه دائرية. توقف باختو عن مسيره، وراح يختار طريقه قبل أن يغلق الليل أبوابه على ما تبقى من ضياء، فقد غفل قبل أن يغادر المخيم عن أن يضيف مصباحًا إلى ما يحمل من حاجيات.

بعد يوم من تلك الليلة التي أخبرته فيها أمه عن الطيور البيضاء، تجهز باختو سرًّا لرحلته إلى جبل الجد الأول. عبر هاتفه النقال قرأ ما كُتب عن تجارب لصعود الجبال، وشاهد تسجيلات مصورة لرحلات من هذا النوع. وكان كلما تذكر شيئًا عليه أن يصطحبه معه يضعه في حقيبته، حتى إنه قام بتمارين رياضية كل يوم لأجل ألا يداهمه شدٌّ عضلي يُعيقه عن المسير.

مضى في طريقه حيث اكتملت العتمة وسُرقت الجهات، مع هذا كان يستدل بما لم تطمسه الظلمة من صخور كبيرة وأشجار وجروف ونتوءات صخرية. صعد منحدرًا رغم ما حلّ عليه من تعب، وحين اقترب من تجاوزه، زلّت قدمه وتدحرج إلى أسفل المنحدر. في البدء شعر بالدم ساخنًا يسيل من رأسه، ثم اجتاحه الدوار، فقد ارتطم رأسه بجذع إحدى الأشجار. أرخى بصعوبة حقيبته عن ظهره، وبقطعة قماش ربط رأسه، فتوقف النزيف. داهمه شعور بالتيه، وبأن الفشل سيكون نتيجة مسعاه الشاق. شرب قليلًا من الماء، ثم استلقى على ظهره، واستعاد ما قرأه في مخطوط الجد الأول، وتذكر ابتسامة توليب وهي تودعه عند الباب في ذلك اليوم الذي أخبرها فيه عن المخطوط. خشي على مصير المدينة، وما يمكن أن تئول إليه لو بقيت على ذلك الحال. نهض من مكانه، غير أن آلام الرضوض أخذت تسري في جسده، فتناول حبتين من مسكنات الألم، ومضى بتمهل وحذر رغم وجعه الشديد وشعوره بالإعياء.

لم ينتبه باختو إلى أنه ضلَّ طريقه، إلا حين نظر في ساعته، فوجد أن الليل على مقربة من الانتصاف، وأن لا طاقة تبقت لديه لمسير خطوة واحدة. استلقى بقرب صخرة ونام، بلا إحساس، لا بالخوف ولا بالجوع، سوى بألم رأسه، وما حلّ بجسده من رضوض وكدمات، إذ إنها لم تكن السقطة الوحيدة التي تعرض لها، فقد سقط لمرات، وإحداها كادت تُفقده حياته.

* * *

طرق الضوء جفنَي باختو، ففتح عينيه ببطء عفوي. للوهلة الأولى اختلط عليه الأمر، إذ اعتقد أنه ينام في مخيم الغجر. حين رأى الصخور الكبيرة والأشجار، ارتبك وتشوشت مخيلته، وما هي إلا ثوانٍ حتى أدرك أنه في جبل الجد الأول، فاستعاد ما حدث له ليلة البارحة. فرح بقدوم النهار، إلا أن أوجاع جسده بدت في ذلك الصباح على أشدها حين همّ بالوقوف فجأة، ثم عاد إلى مكانه من فرط الألم. فتح حقيبته، وأخرج منها قليلًا من الجبن ورغيف خبز، وراح يأكل ويراقب المكان. أمدّ جذعه إلى الأمام ليرى ما تواريه الصخرة، وإذ به على بُعد أمتار من قبر الجد الأول. ألقى الطعام من يده، ونهض بعجالة، لكن آلام جسده، خاصة قدمه، منعته من الحركة، فأخذ يزحف نحو القبر مثل عطشان عثر على نبع ماء في أرض قاحلة. حين وصل صرخ بصوت باكٍ، ومتوسل: **هأنذا قد وصلت يا جدي.**

٦

عند السادسة صباحًا من اليوم السابع للوباء غادر الدكتور أدهم سريره بتمهل، لئلا يزعج زوجته أماليا. كان مزاجه شاحبًا، ومشوبًا بتوترِ مَن يُقلقه مشيُه على جسر آيل للسقوط. بات يفتقد ذلك الإحساس الصباحي الذي من المفترض أن يجعل ذهنه صافيًا، ومغمورًا بالتفاؤل. إلا أنه يعي أن كل هواجسه، وقلقه، ومخاوفه، طوال نهاره، تستحيل إلى ذرات تراكمت مع الأيام على زجاج نافذة في داخله، فتحوّل بدايات يومه إلى دفقات سوداوية، مع هذا حلم كثيرًا، بيد تزيل ما تَراكم على زجاج تلك النافذة.

كان بيته الذي يقع في الحي السابع هادئًا، لا صوت فيه سوى صدى نقرات ساعة الجدار، وشخير ابنه جاد، وهو يأتي من الداخل مضحكًا أحيانًا، وفي أحيان أخرى يُثير فيه شيئًا من الشفقة، وشعورًا عميقًا بالألم على ابنه الوحيد، وما آلَ إليه حاله. أعدَّ فنجان قهوة، وسار بخطوات متعبة نحو مكتبه المنزلي، وجلس إلى الطاولة. الحي ساكن، لا صوت يأتي منه، سوى مواء قطة تحوم في حديقة المنزل، فمنذ أن فُرض حظر التجوال أصيبت ساعات الناس

البيولوجية بالارتباك، تداخل نهارهم بليلهم، وصاروا ينامون حتى الغروب. يستفيقون بأمزجة مشوشة، وأبدان طاقتها شحيحة.

بقيَ فنجان القهوة مرفوعًا قرب فمه، حين استغرق في التفكير بما أصيب به الناس، خاصة تلك النسخة الشبحية التي تجعل من الموت أمرًا مستساغًا، يلغي رغبة الإنسان بالحياة. تفكير فيه ذهول واستغراب وحيرة. ردّد في سره: هذا مرعب. سمع صوته يتقافز في دواخله، كمَن يفتش عن طريق للنجاة في قبو مظلم، وظهرت نسخته الشبحية أمامه، لكنه تجاهلها، تجاهلها بقدرة ذهنية عالية، ثم عاد يتساءل: **كيف نعجز عن رؤية أنفسنا؟! وكيف يصير الموت هدفًا بكل تلك اللذة في السعي إليه؟ أمر إذا طال، حتمًا، فستصبح المدينة بأكملها موطنًا للمجانين.** حمل مُجلَّدًا علميًّا، وارتدى نظارته، يقرأ سعيًا إلى فهم ما يرفض تسميته بالوباء، فلا منطق علميًّا يُفسر ما جرى.

سابقًا، كان يخصص ساعات الصباح الأولى للبحث والقراءة حول اختلال الحواس الذي أصيب به كثيرون، ومن ضمنهم ابنه العشريني جاد، فقد تبدلت حاله منذ خمس سنين، وأخذت البلاهة والكسل يسيطران عليه. بات شرهًا للطعام، وازداد وزنه بشكل ينبئ بالخطر. ومنذ ذلك الحين والدكتور أدهم ينقب في الكتب والأبحاث والدراسات، ليصل إلى السبب الذي يقف وراء داء عجزت مدينة الجد الأول عن فهمه، رغم أن أكثر من طبيب وعالم، تكفلوا بتقصي حقيقة هذا الداء، ومنهم الدكتور أدهم

الذي رأى إما أن تكون مُسبباته نفسية، وإما أن هناك مادة تعاطاها كل مَن أصيبوا به.

ترك طاولته، ووقف إلى النافذة ينظر إلى الحي، تحديدًا إلى بيت جارته المقعدة. تذكر ذلك الصباح الذي سمع فيه صراخها، ثم تبعه صراخ الخادمة. خرج من بيته مسرعًا، معتقدًا أن حريقًا دبَّ في منزلها، أو أن مكروهًا حدث لها، ويستوجب النجدة. حين فتحت الخادمة الباب، رأى جارته على كرسيها المتحرك ساهمة بمرآة مُعلقة على جدار صالة الجلوس، بينما الخادمة تضع يدها على فمها وترتعش خوفًا. اقترب من السيدة وسألها بترقب، وخوف: ما الذي حدث؟ أشارت السيدة إلى المرآة بلا قدرة على الكلام. حين نظر الدكتور أدهم في المرآة، لم يرَ سوى صورة السيدة تعكسها المرآة. جفل، وعاد خطوة إلى الوراء. فرك عينيه، وحرك رأسه يمينًا وشمالًا، ثم عاد ينظر في المرآة، وحين لم يجد نفسه فيها، التفت نحو الخادمة يتوسلها إجابة عن سؤال كان عالقًا في حلقه. حركت الخادمة رأسها، وبالكاد قالت قليلًا من الكلمات: **أنا أيضًا لا أستطيع رؤية نفسي.**

غادر الدكتور أدهم، بخطوات رخوة، وعند باب بيت جارته، سمع صراخًا، في منزل آخر، وجلبة تأتي من منازل أخرى. أطل على الشارع، فرأى سيارات تصطف على طرفيه، ينظر سائقوها بذهول كبير في مراياها. أدرك في تلك اللحظات المربكة، أن أمرًا غريبًا حدث للحي. عاد مسرعًا إلى منزله وأدار التلفاز، فرأى عمدة المدينة يتحدث عن الوباء، متقمصًا دور حكيم، يُطمئن المواطنين

بأن ما حل بهم ليس إلا أمر مؤقت، وسوف يزول. أطفأ التلفاز ودخل غرفة مكتبه المنزلي. فوجئ بنسخته الشبحية تجلس إلى طاولته، ترتدي نظارته وتقلب صفحات إحدى مجلداته. لوهلة اعتقد أن ما يراه مجرد تهيؤات جاء بها الإرهاق، أو الصدمة بالوباء، خاصة حين فرك عينيه بظهر يده، ولم يجد شيئًا. أزاح الستارة عن النافذة، فسقطت على الأرض بقعة ضوء يتخللها ظِل شجرة من أشجار الحديقة، راح يراقبها حين جلس على كرسي هزاز يستخدمه للقراءة، ويفكر فيما حدث: **هل يُعقل هذا؟** دخلت عليه أماليا مرعوبة، لا تقوى على النطق. أدرك أنها نظرت في المرآة، فاحتضنها، وراح يُهدئ من روعها: **يبدو أنه وباء أصاب المدينة كلها**. غير أن أماليا بقيت أسيرة تلك الصدمة. جلست على كرسي أمام طاولته، تُمسك بكأس الماء بيدَين مرتعشتين، وتردد بنغمة شبه آلية: **هل سأفقد بصري، هل سأفقد بصري؟** وأمام تلك الحالة من التوتر العصبي لم يجد الدكتور أدهم حلًّا إلا أن يحقنها بمهدئ أدى بها إلى النوم، خلال دقائق. كان من المفترض في ذلك الصباح أن يرافق الدكتور أدهم ابنه جاد إلى مختبر طبي، ليُجري له عدة تحاليل وفق رؤيته العلمية، لعله يقوده إلى نتيجة ما حول اختلال الحواس، لكنه ترك ابنه غارقًا في نومه الثقيل أحد أعراض الاختلال وارتدى ملابسه بعجالة، وخرج.

كانت الساعة قد شارفت على الثامنة صباحًا حين وصل إلى الجانب الفقير من الحي السابع الذي بُنيت بعض بيوته من الأسمنت والحجر، وشُيد البعض الآخر من الحجر الأحمر،

وبيوت أخرى بُنيت من الحجر والطين، وسُقفت بالصفيح. كانت الطرقات لا تزال على حالها كالحة غير مُعبّدة، تحفل بكثير من الحفر والمطبات. ثمة سيارة قديمة مسرعة، يقودها رجل نحيل على وجهه علامات الريبة غارت عجلاتها في حفرة استقرت فيها مياه عادمة، فتطايرت رشقاتها، ولُطخت ملابسه. لم يكترث الدكتور أدهم لذلك، إذ كان ينظر نحو العائدين إلى بيوتهم بعجلة مشوبة بالخوف، وهم يتلفتون حولهم.

أبطأ من خطواته أمام دكان صغير، بُنيَ بالطوب، وسُقف بألواح خشبية، وقف ببابه رجال كان أحدهم يتحدث بلهجة واثقة، رغم أن شفتيه ناشفتان، بينما الرجال الآخرون يعقدون أيديهم على صدورهم ينصتون له، وفي وجوههم فراغ عادة ما تفعله الأسئلة التي لا إجابات لها: **إن هذا أخطر وباء تُصاب به مدينة الجد الأول، انتحر عدد من الناس بسببه**. كان الرجل يتحدث وهو ينظر حوله خائفًا، إذ إنه في الحقيقة كان يعاني ظهور نسخته الشبحية، ولا يقوى على البوح بما يرى، خشيةَ نعته بالجنون. مضى الدكتور أدهم في طريقه وأصوات الرجال تتقاطع بعضها ببعض بين مؤيد ورافض لما يقال. تأمل المارة الذين كان بينهم عدد ممن أصيبوا باختلال الحواس، يمشون كما لو أنهم مجسمات بشرية لا روح فيها، بخلاف من كانوا يُسرعون الخطى، ويأسرهم الخوف من الوباء، ومن العدوى بشهوة الانتحار، إذ إن هناك مَن ظهرت نُسخهم الشبحية في بدايات إصابتهم، وهناك ممن لم يروها إلا بعد مرور أيام.

* * *

عند التاسعة صباحًا، جلس الدكتور أدهم إلى طاولة الإفطار، تقابله زوجته أماليا بعد أن أنفقت وقتًا لتُفيق ابنها من النوم. كانت ساهمة ويداها تحتضنان فنجان الشاي، بينما الدكتور أدهم يراقب ملامحها، وفستانها الأبيض الذي شكّل تحالفًا جميلًا مع بشرتها السوداء. في ذلك الصباح بدت أكثر أناقة، إذ وضّبت شعرها، ووضعت قليلا من المكياج على وجهها، وزينت رموشها، وتزينت بأحمر الشفاه، وارتدت عقدًا من خرز أبيض، وصبغت أظافرها بالطلاء. قال لها وهو يتناول إفطاره: **كيف تزينتِ ومرآتكِ فارغة؟**

وضعت الفنجان على الطاولة، ثم حدقت إلى الفراغ، كأنها تنتظر أمرًا ما: **في البدء شعرت أنني عمياء، وفيما بعد أعانتني يدي على ما تعرفه في وجهي الغائب. اكتشفت أن ذاكرتي تحتفظ بصور لكل شيء رأيته في حياتي، إلا صورتي. أغمضت عينَي وحاولت أن أراك. رأيتك، ورأيت وجوهًا كثيرة أعرفها. أما حين حاولت أن أراني، عجزت.** وضعتْ قليلًا من البيض المقلي في طبقها، وقالت والشوكة معلقة في الهواء قرب فمها: **توقعت أن تحدث في هذه المدينة اللعينة أشياء كثيرة، إلا هذا الوباء الذي أفرغ مرآتي مني، وجاء لي بنسخة شبحية تُزين لي طريق الموت. صدقني أشعر كأني تلقيت ضربة هراوة على رأسي لم أصحُ من أثرها للآن.**

من الداخل أتي جاد، شاب أسود البشرة، طويل، سمين، يمشي ببلاهة. وقف أمامهما ينظر إليهما ببرود، ثم بدا محتارًا ماذا يفعل، عيناه تستطلعان الصالة بحركات رخوة، تمامًا مثل زائر وجد نفسه

في مكان لا يعرفه. اقتادته أماليا من يده نحو الحمام. وبقيت واقفة هناك تنظر إلى الدكتور أدهم وقد توقف عن تناول طعامه، رغم مرور سنوات على ما يحدث لابنه، ورغم علمه أن ابنه بحاجة لساعة حتى يستوعب ما يراه. جلس جاد على كرسيه، وحدق إلى أمه وأبيه، حدّق بعينين مرتخيتين، بلهاوين، إلى شخص لا يعي شيئًا، كأنه تعاطى للتو جرعة قصوى من مادة مخدرة، ثم أخذ يتناول طعامه بشراهة، غير مكترث بفتات الطعام الذي يفلت من طرف فمه، ولا بما يصدر عنه من صوت للمضغ، ولا بالسائل الذي يسيل من شفتيه.

كانت أماليا في تلك الأثناء تتحدث باقتضاب، بينما الدكتور أدهم يعاين تصرفات جاد بعين الطبيب الباحث عن حل. حين فرغ جاد من تناول طعامه تجشأ، وعاد يتلفت حوله، وينظر في وجهيهما من جديد. قالت أماليا، تحاول أن تثير فيه شيئًا من الصحو: **هل شبعت؟** هز جاد رأسه، ثم غرق في سهوه. وقفت أماليا وراءه، وطوقت عنقه بذراعيها. بدوره اقترب الدكتور أدهم منه، ولامس يده بحنو، فابتسم جاد، وغادر إلى غرفته بمشية غريبة أثارت شفقة والديه.

استلقى جاد في سريره، يتأمل هاتفه النقال، كأنه يتعرف عليه للتو. لامس إصبعه المفتاح الذي فك قفل الشاشة، وغرق فيه يتصفحه. بعد ساعة أصابه شيء من النشاط. نصب هاتفه النقال، وأطلق في صفحته على الإنترنت بثًّا مباشرًا. لم يرَ وجهه في مربعه الخاص، إنما كانت إشارة البث فعالة. حدق إلى الهاتف

غير مدرك ما الذي جرى، فكتب له المتابعون: **إننا نراك، لكنك لن ترانا. هل نسيت؟** بقي لقليل من الوقت ينظر ببلاهة إلى شاشة هاتفه، إلى أن أطلق ضحكة ساخرة، وانطلق يحكي لجمهوره عن مواضيع ليست مترابطة، ولا معنى لها، وكلما استمر في الحديث ازداد عدد المشاهدين.

علمَ الدكتور أدهم قبل أن يُصاب جاد باختلال الحواس، أنه بات من مشاهير وسائل التواصل الاجتماعي، يتحدث بما يثير الضحك لدى متابعيه، وحين شاهد صفحته شعر بخيبة وخوف كبيرين، إذ إن كل تلك الشعبية التي يحظى بها ابنه نتاج حديث بمواضيع تافهة. لم يعلم أن تلك المواقع الإلكترونية تدفع لجاد مبالغ مالية عالية، إلا حين سمع عن ذلك من أحد أصدقائه.

عند حلول الليل، خرج الدكتور أدهم من بيته متخفيًا، ينوي الذهاب إلى بيت نوَّار في الحي الثالث، رغم أنه يعلم عقوبة حظر التجوال التي فرضتها عُمودية المدينة. كان يمكن أن يكون حضاريًّا، يلتزم بما سُنَّ من قوانين، لكن جبهة دفاعية إثر ما وقع عليه من جور، خُلقت في دهاليزه السرية، وجعلته رافضًا لأي حظر، حتى حظر عصفور في القفص لمساعٍ جمالية. لم يتصرف في ذلك المساء الثقيل على صدره، كأستاذ لامعٍ في الطب، بل كخارج على القانون، قانون المدينة، وحضارية إنسانها التي باتت عنده موطن شك وهشاشة. اتفق على ذلك مقابل أجرة مضاعفة مع أحد سائقي سيارات الأجرة الذين يعملون خفية، ويسلكون طرقًا لا تواجد أمنيًّا

فيها. لقد تعرض صديقه نوّار لجلطة دماغية من قبل، لهذا كان عليه أن يزوره ليتفقد أحواله وصحته. أو أنه ربما افتقد تلك الأمسيات التي يقيم فيها مع صديقه حوارات مطولة، يطرح عبرها هواجسه وشكوكه ومخاوفه، مما يحدث للمدينة.

منذ سنتين تعرف الدكتور أدهم بنوّار، حين أشرف على علاجه، ومع الأيام نشأت بينهما صداقة قوية، صداقة كانت له بمثابة اليد التي تعيده عن الانصياع لرغبة السقوط في حفرة مظلمة، كثيرًا ما شعر بها ترافقه مثل ظله. اصطفَّت السيارة عند الباب الخلفي لبيت الدكتور أدهم، الذي يقع في الحي السابع، وأطفأت أضواءها. حي يقطنه السود، ومثله مثل الأحياء الأخرى صار مع مرور الزمن قسمين: واحد للفقراء، وآخر للأغنياء. ورغم أن الدكتور أدهم ولد في الجانب الفقير من الحي السابع، إلا أنه يعيش بين الأغنياء، ليس إلا ليجد الوقت والهدوء للاشتغال على أبحاثه ومقالاته، فإلى جانب الطب الذي مارسه لسنوات، وعلّمه في الجامعة، فقد دَرَس الأنثروبولوجيا، وعمد إلى تثقيف نفسه ذاتيًّا بكثير من العلوم، خصوصًا الفلسفة. يكتب مقالات في أكثر من صحيفة كثيرًا ما أزعجت عُمودية المدينة، وأبناء الطائر الأسود، فضيقوا عليه الخناق، إلى أن أفقدوه عمله، وبات يعتاش على ما يتقاضاه من وراء مقالاته وأبحاثه، ومما ادخره سابقًا.

كانت شوارع الحي السابع فارغة، تركض فيها الوحشة، ويستبيحها صمت بارد، إلا من بضع سيارات لرجال الشرطة

الذين كُلفوا بإلقاء القبض على كل من يكسر حظر التجوال. سلك سائق سيارة الأجرة طُرقًا فرعية تمر متعرجة بين البيوت، ليصل الدكتور أدهم إلى منزل نوَّار، لكنه عند مخرج أحد الشوارع تفاجأ بسيارة شرطة تغلق الطريق. تصرّف السائق كلِصّ أبله حين حاول أن يعود من حيث أتى، إلا أن الشرطي باغته، وأفشل خطته الركيكة. عاين الدكتور أدهم وجه الشرطي، فوجده متعبًا ومحبطًا. أيقن أنه من أولئك الذين يُنفذون أوامر غير مقتنعين بها. تلعثم السائق وهو يجيب الشرطي عن سؤاله: **لماذا أنتما هنا؟** وحين رأى الدكتور أدهم أن فشل السائق في التبرير ربما يقودهم إلى السجن، عرَّف نفسه بصوت هادئ وواثق. قال والشرطي يثني جذعه، وينظر نحوه بشيء من الاهتمام، إنه أتى من الحي السابع لأمر طبي طارئ يخص الفنان نوَّار، فهو المشرف على حالته.

بقي الشرطي ساكنًا كأن أحدًا يصوب مسدسًا إلى رأسه. ثم قال بصوت اعتراه الوهن: **ألستما خائفَين من الوباء، ألا تخشيان الانتحار؟** تلفت الشرطي حوله، واستقرت عيناه الحائرتان على شرطي آخر يجلس في سيارة تتبدل أضواؤها التحذيرية بانتظام مزعج في عتمة ذلك الشارع. قال هامسًا: **سأجعلكما تمران، وإن علم أحد عن تهاوني هذا، فستكون نهايتي على يد الجنرال.** فانطلقا بعد أن أشار الشرطي بيده آمرًا أن يتابعا طريقهما.

خلال المسافة القصيرة نحو الحي الثالث، تساءل السائق بسذاجة عن الجنرال الذي تحدث عنه الشرطي. وعند باب البناية

حيث يقطن نوَّار، كرر سؤاله، لكن الدكتور أدهم تظاهر بألا إجابة لديه، رغم أنه يعرف الجنرال، يعرفه جيدًا، ولا يمكن أن ينساه، فهو من ضيق عليه الخناق في عمله بأساليب شتى، إلى أن طُرد منه، وهو الذي تسبب له بجرح غائر في وجدانه، تقاسيه ذاكرته المتخمة بكثير من الندوب العتيقة.

كان نوَّار مستلقيًا على سريره، مستغرقًا في القراءة، حين قرع الدكتور أدهم الباب. قدر أن الزائر إما باختو، وإما صديقه أدهم، فليس هناك من يزوره غيرهما. حين أطل وجه الدكتور أدهم من شق الباب، طفت على وجه نوَّار بهجة أقرب ما تكون إلى بهجة الأطفال بحدث مفاجئ، إذ إنه خشي سطوة الوحدة المضاعفة التي يمكن أن تهزمه في حظر التجوال برفقة نسخته الشبحية، فلا أصوات للأطفال تأتي من حديقة تُطل عليها نافذة في غرفة نومه، اعتاد الوقوف إليها، يتأمل الصغار وهم يمرحون، بينما أمهاتهم منشغلات بأحاديثهن المعتادة. يرى نفسه بينهم، في أول يوم مدرسي بات فيه قادرًا على الكتابة، يضع القلم على بداية السطر، ويرسم الأحرف بلذة الأفعال الأولى. كان من شأن ذلك المشهد اليومي أن يحارب خشيته من الجفاف، فحين طعن في السنِّ صار إحساسُه مضاعفًا بالوحدة، تُذكره نقرات عقارب ساعة الجدار بذلك التناقص المرعب لماء العمر، رغم أنه ما عاد يخشى الموت كحدث بيولوجي، لكنه كان يرى نفسه مثل شجرة ما عادت تحظى بالماء، ويرى القلم على مقربة من نهاية آخر صفحة في دفتره المليء بالكتابة.

قال الدكتور أدهم بعد أن أرخى جسده على كرسيٍّ قريب من نوَّار: **هل أخافك الوباء؟** أخذتْ كتفا نوَّار تهتزان وهو يضحك: **أخافني أن المرايا باتت بلا غرض في حياتنا، وأخافتني صحبة نسختي الشبحية؟** نظر الدكتور أدهم إلى عينَي نوَّار الذابلتين، وقد لمح فيهما طيف خوف لا يمكن مداراته: **تخاف نسختك الشبحية لأنها تدفعك للانتحار؟** مشى نوَّار نحو المطبخ بخطواته البطيئة، وراح يغلي الماء ليُعد القهوة. ركن قليلًا إلى الصمت، يفكر في حقيقة موقفه من هذا الوباء. بيد مرتعشة وضع البن في الغلاية، وراح ببطء يحرك الملعقة.

التفت نحو الدكتور أدهم: **ليس بيدي شيء أفعله، حيال الموت، هذه الموجة التي أخشاها ولا أخشاها في الآن نفسه. لكني أدرك أنها تأتي إلى الشاطئ، تحملنا معها، وتعود إلى هناك، حيث السكينة، إنها تعود بنا إلى الأصل. لقد ظهرت نسختي الشبحية بعد أيام من إصابتي بالوباء، كانت تزين لي الموت بملامح حزينة وآسفة. نسخة متعبة مني، أثارت شفقتي عليها. إن الأمر غرائبي، ومفجع جدًّا، وخصوصًا حين أجد أننا بتنا عاجزين عن رؤية أنفسنا، وفي الوقت نفسه، صِرنا نرى نسخة منا تتخلى عنا. إنها لحظة انفصال تنذر بمرحلة لم تخطر ببال أحد على الإطلاق.**

أرخى الدكتور أدهم رأسه على مسند الكرسي، يفكر في عبثية ذلك الوباء، وكيف يمكن للإنسان أن تصبح قضيته قطعة زجاجية فضية اللون، كان يعتبر وجـودها أمـرًا مُسلَّمًا به. تذكر أن أخته

حين كانت تتحضر للزواج، ولم تعجبها المرآة التي اشتراها خطيبها لبيت الزوجية، أرادت واحدة أكثر اتساعًا. لقد ربطتها بالمرآة علاقة يومية، فكثيرًا ما كان يراها تقف أمامها، تغني، وهي تراقب ملامحها، وتتفاخر بجسدها المنحوت بشكل جميل.

قال نوَّار وهو يقدم فنجان القهوة للدكتور أدهم: **حين رأيت عمدة المدينة يلقي خطابه في ذلك الصباح، هرعت إلى المرآة، وبالفعل كان ما يقال أمرًا واقعًا. لم أستطع في البدء تحديد ردة فعلي. أصاب دماغي ما يشبه الشلل، والخرس في الذاكرة، والإعاقة في معظم حواسي. عند غروب شمس ذلك اليوم شعرت على غير العادة بنعاس شديد، لكني خفت أن أنام ولا أصحو، شعرت بأن الموت على مقربة مني، حتى إني شممت رائحته، وشعرت بأنفاسه على وجهي. لا أنكر أني في الأيام التي دفعت بي فيها هذه المدينة إلى الهامش، تمنيت الموت. ربما لأني كبرت، كبرت أكثر من اللازم، وغدت همتي مثل همة كهل يريد أن يجاري فتيانًا في مضمار للسباق. مع ذلك كانت لحظات قاسية شعرت عبرها أن بوصلة حواسي تجمدت باتجاه الفناء. أغلقت باب غرفة النوم، وبقيت في صالة الجلوس أتلفت حولي. ثم فجأة رُحت أغني، لا أدري هل هي رغبة، أم حراك جواني ضد الموت. غنيت، غنيت كثيرًا، إلى أن أصابني السعال، وضاق نفَسي.**

قرَّب نوَّار فنجان القهوة من فمه، ويداه تهتزان. ارتشف منه، وأعاده إلى مكانه. قال بصوت خافت، كأن أحدًا ثالثًا معهما في البيت لا يود له أن يسمعه: **لم أنتبه من قبل إلى أن المرآة**

جزء من سيرتي الشخصية. ولم يخطر ببالي أنها الشق الآخر من الذاكرة، فحين نقف أمام المرآة، فإننا نقف على بداية أكثر الدروب سهولة إلى ذكرياتنا اليومية، وبوعي صريح، صريح جدًّا، فالمرايا لا تكذب، إلا إذ كانت مقعرة.

مشى الدكتور أدهم نحو مرآة في جدار الصالة: **أنا لا أراني الآن، لكنني أراك، وأرى كل شيء حولك. ألا ترى أن هذا الوباء ربما يقرب بين الناس؟** عاد إلى مكانه، يُتمم حديثه: **غياب وجوهنا عن المرايا، يعني أننا صِرنا غرباء عن أنفسنا. ماذا لو طردتُ عنك غربتك، وفعلت أنت ذلك لأجلي، كيف؟ أخبرك عنك. أصِفك. أتتبع معك تفاصيل نهارك. أصير مرآتك المعنوية.** فرك نوَّار يديه المرتعشتين إحداهما بالأخرى، ثم ابتسم: **أنسيت أننا نكذب على أنفسنا، فكيف لنا أن نكون بهذا الصدق مع الآخرين؟** قال الدكتور أدهم: **وهذا ما كان في بالي سابقًا. هنا يسقط كل ما فكرت فيه، إذ بت على يقين بألا علاقة لأبناء الطائر الأسود، بهذا الوباء، إنما لهم علاقة بما سيأتي بعده، سيستغلونه، فقلت ما لم أقله من قبل في مقالة نُشرت اليوم.**

تساءل نوَّار: **ماذا قلت؟** أجاب الدكتور أدهم: **تحدثتُ عن سلالتهم التي بدلت كلَّ شيء لصالحهم. بدلت حتى فكرة الشك بهم، وأن كل ما يمكن أن نفكر فيه حيالهم مجرد وهم، وأن اختراع نظرية المؤامرة، ما هي إلا متراس يلوون من ورائه عنق الحقيقة. لهذا، ورغم قناعتي بأن هذا الوباء ليس من صنائعهم، إلا أنني ألَّبت الناس ضدهم، وقلت إن أبناء الطائر الأسود هم من فعلوا بكم ذلك،**

تمامًا مثلما ابتكروا النزاعات، وابتكروا أوبئة وفيروسات لم تكن في الحسبان، وأن حظر التجوال ليس إلا وسيلة لتنفيذ مخططاتهم القذرة. إنه الوقت المناسب جدًّا للإطاحة بهم يا صديقي. قال نوَّار: **لكن هذه الجماعة لا تقف وراء كل أزمات هذه المدينة.**

صمت الدكتور أدهم لقليل من الوقت، إذ استعاد السنين التي سبقت الوباء: **أعي أن طبيعة هذه المدينة مبنية على الصراع منذ نشأتها، غير أني بتُّ أومن أن دومًا هناك من يستغلون هذا الصراع لصالحهم، ومنهم أبناء الطائر الأسود. أومن أن لسلوكهم جذورًا عتيقة، وأن طقوسهم ومطامعهم واكبت تطور المدينة، إنهم الآن يسعون إلى أعلى مطامعهم، إنهم يريدون إلغاء كل السلطات لصالح سلطتهم المتوحشة.**

بدا نوَّار متخوفًا من تلك الجرأة، فهو يعرف كيف يكتب الدكتور أدهم، ويعرف ما يمكن أن يفعله أبناء الطائر الأسود. طلب منه أن يكون أكثر حذرًا، فهم لن يصمتوا عما فعله. أخرج الدكتور أدهم هاتفه النقال من جيبه، وطلب من نوَّار أن يشاهد فيديو لم يُنشر، تحدث فيه للناس، وقدم لهم أدلة من مراحل سابقة، تُثبت تورط أبناء الطائر الأسود بما فعلوه سابقًا، وبهذا الوباء. وبعد أن انتهى نوَّار من مشاهدة الفيديو، نشره الدكتور أدهم في صفحته على وسائل التواصل الاجتماعي. ما إن فعل ذلك حتى جُن جنون نوَّار: **سيقتلونك، سيقتلونك.** سار الدكتور أدهم نحو المرآة، ينظر فيها، ويضحك.

٧

على رأس ذلك الجبل المتربع على سهل واسع، وممتد، وقف باختو أمام قبر الجد الأول، مُنتشيًا، رغم ما ألمّ بجسده من آلام وجروح ورضوض وكدمات ونزاعات نفسية طارئة، مع هذا كان ينظر إليه بحنين فائض، وبقداسة لازمته منذ أن قرأ المخطوط. قبر ارتفاعه متر، وعرضه متر، وطوله متران، بُني من الحجارة المنتقاة بعناية، ورُصف سقفه بحجارة صغيرة، نما بينها العشب، وحطت عليها طيور، دلت عليها آثارها. يتعالى في الهواء خلف القبر جدار صخري، نحتت الطبيعة فيه كهفًا قدَّر باختو أن الجد كان يأوي إليه، فلذلك الجدار أن يصدَّ الرياح، ولذلك الكهف أن يؤمّن الدفء لمن يلوذ به.

من وراء القبر، كانت مدينة الجد الأول في كامل وضوحها، يجاورها مخيم الغجر الذي يساويها بالحجم. بدت بيوت المدينة لباختو عبر تلك المسافة كأنها خيام لقوم على أهبة الرحيل. تَفَكَّرَ كيف يبدو كل شيء وادعًا خلال تلك المسافة، وكيف لن يرى أحدٌ خلالها سوى القشرة الخارجية للأشياء. تذكر الأيام التي قاسى

فيها جور المدينة على الغجر. أصابه الألم أكثر حين رأى المساحة الفاصلة بين المدينة والمخيم.

تذكر المرة الأولى التي زار فيها المدينة، كان صغيرًا، لم يستطع التعبير عما اعتراه في تلك اللحظات الأكثر إرباكًا في حياته، ليس فقط لطبيعته المغرقة في الهدوء والسكون فقط، إنما لما تخلّق في نفسه من صراعات وتساؤلات عديدة. كان بودّه لو قال لأمه آنذاك: **لماذا نحن على هذه الشاكلة الموجعة، بينما تبدو المدينة بهذا الشكل المحفز على الحياة؟** لا يدري أنه لم يرَ من المدينة سوى قشرتها، وحين طُرد منها عندما غامر بولوج عالمها، وعمل فيها فيما بعد، أدرك على نحو ما أنها تقبع على فوهة بركان مدمر، وها هي أدخنتها تلوح للعلن.

نظر باختو إلى القبر، وكلمات الجد الأول في مخطوطه ترتسم في مخيلته، بل إن صداها يحوم في أذنيه، كأن الجد يقرؤها عليه من جديد. تمتم في سره: **لا بد أن جدنا كان يجلس هنا ويراقب بيوت أبنائه وأحفاده.** ثم قال بصوت ساخر تعلوه نبرة حزينة: **ماذا لو عدتَ، ورحتَ تمشي متخفيًا بين أبناء سلالتك في هذه الأيام أيها الجد؟**

حين غدا باختو على مقربة من الكهف، فوجئ برهبة حادة تغشى روحه المتعبة. **هنا أمضى جدنا سنوات عُزلته عن سلالته..** تمتم في سره، وهو يتقدم ببطء نحو البوابة. فرت عصافير وطيور، أجفلته، فعاد إلى الوراء. حلّق عدد من تلك الطيور بعيدًا، وحط

عدد من العصافير على الأشجار. حين دخل الكهف هاجمه هواء بارد، وظلمة توارت شيئًا فشيئًا، إلى أن اتضحت معالم المكان. ثمة منطقة مرتفعة قليلًا، تلاصق جدار الكهف بُنيت من الحجارة، بدت له مكانًا للنوم، قرفص باختو قربها، وأخذ يلامسها، وألفةٌ روحية طازجة تسري في قلبه، وتطرد كل ما فيه من تعب.

تخيلَ كيف كان الجد الأول ينام في هذا المكان، وكيف كان يفكر في سلالته، وبما سوف تئول إليه. تسلل إلى روحه حزن قادم من مشقة البدايات، ومن روح مَن يعرف الحقيقة، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا لأجلها سوى الحكمة. تساءل عن آلام الإنسان، وما الفرق بينها حين كانت في السنوات الأولى لنشأة هذه المدينة، وبينها الآن، استدعى باختو بشكل خاطف آلامه، وانكساراته كغجري منبوذ، وما جعله يبدو هادئًا في نظر من يراه، أمرٌ دفع به ليتساءل عن الألم، هذا الإحساس البشري الذي بقي على حاله، فمنذ نشأة المدينة، تبدل كل شيء، حتى أشكال قاطنيها، إلا الألم هذا الذي يُصاب به الجميع، لكنهم يختلفون في زوايا التعاطي معه، وفي طول تلك المسافات الفاصلة بينه وبينهم.

تذكّر باختو أنه قرأ كتابًا يحكي كيف يمكن للإنسان أن يتكيف مع البيئات الجديدة، وكيف تتبدل ردود أفعاله وانطباعاته وطرائق فهمه لما حوله. استعاد ما قرأه، وهو منشغل بما حوله، وما في داخله من عواصف كامنة، لكن ما وجده أن الألم إحساس تقوم عليه حياة الإنسان، وأن الشقاء أحد المنافذ نحو الرخاء. في ذلك

العلو، غدا ذهن باختو أكثر صفاء، وبات يرى كل شيء من جانب محايد، بلا ضجيج، فأدرك سر عزلة الجد الأول، وسر ذلك المكان الذي يهفو نحو السماء.

كانت الشمس قد ارتفعت قليلًا حين خرج باختو يتجول في الجبل بحثًا عن الطائر، تتملكه رغم آلامه الجسدية طاقة كبيرة. حينما كان يصعد الجبل في طريقه إلى قمته، لم يجد حتى ما يدل على ذلك الطائر، مع هذا توقع أن مرقده في رأس الجبل. بالإضافة إلى ذلك، وإلى ما قالته أمه عن الطائر، استدلَّ، حينما تأمل فكرة لجوء الجد إلى الجبل، على أن هذا الطائر بالذات لا يمكن أن يمكث في القاع، وأن الجد ما اختاره كعلامة للوصول إلى الناي من فراغ.

ابتعد باختو عن الكهف، يفتش الأشجار، ويبحث بين الصخور، وفي تجاويفها. كان يفعل ذلك وهو يحس بضوء يسري في جسده، سعيًا إلى روحه التي لا بد أن تبقى في أعالي توقها للحياة، ليعثر على ما يريد. وقفت الشمس في منتصف السماء، وباختو بمنأى عن الكهف، تعتريه سكينة وصفاء استثنائيان، إذ إن المدينة رغم غجريته قد أصابته بتشوش في مزاجه، فيحزن أحيانًا، وفي أحيان أخرى يصيبه الضجر والشعور باللاجدوى، غير أنه حظي في الجبل بروح جديدة، فليس هناك من كائنات خرافية، مثل تلك التي سمع عنها في طفولته. لا ضجيج، ولا صوت، سوى صوت الطبيعة وموسيقاها الغنية.

مضى ذلك اليوم في بحث دقيق، في رأس الجبل. رأى كثيرًا من الطيور والأرانب والثعالب، وعددًا من الزواحف، ولم يجد مراده، ولم يشعر سوى بالحاجة إلى مزيد من البحث في الأيام التالية، فالجبل ضخم، وصخوره وكهوفه وتجاويفه ومرتفعاته وأشجاره كثيرة.

في طريق عودته إلى الكهف، عثر على بداية طريق لمغادرة الجبل، غير التي سلكها قادمًا من الأسفل، طريق أكثر سهولة، وكأن الطبيعة تحالفت مع مَن يريد صعود الجبل، فيسهل عليه مسيره. وليتأكد من امتداد تلك الطريق هبط عبرها قليلًا، وهناك وجد نبعًا يفيض منه الماء عبر المنحدرات إلى الأسفل. شرب منه، واغتسل، وتزود بالماء، وعاد إلى الكهف.

حينما حلَّ الليل، حلَّ معه التعب. تناول باختو شيئًا مما تزود به من طعام، واستلقى في المكان الذي خمن أن الجد الأول نام عليه. كان يراوح بين ما يعتريه من خوف في تلك العزلة الجبلية المظلمة، وبين سطوة النوم، مع ذلك غفا سريعًا. قبيل طلوع الشمس استفاق على صوت حيوان قرب بوابة الكهف، لكنه عاد من جديد إلى النوم، فتراءى له الجد الأول.

حين استفاق لم يستطع أن يحدد هل ما رآه منامًا أم حقيقة، أم أنها مجرد هلوسات انتابته بعد تعب واستغراق حثيث في البحث عن الناي. رأى الجد الأول يهبط من رأس الجبل، بقامته الطويلة وجسده النحيل، وشعره الطويل الغارق في البياض، وفي وجهه

قلق مَن رأى ما ستكون عليه سلالته. رآه يتوكأ على عصاه، وبيده الأخرى يحمل الناي، ويتجول في مخيم الغجر، ثم يدخل المدينة من جهتها الجنوبية، جهتها الغارقة في الظلم الأبدي وفي المكيدة. رآه يتجول بين سلالته، يَرى ولا يُرى. يحدق إلى وجوه الناس وهو يقف في منتصف الشوارع، في صخب الزحام والضجيج، يلتفت نحو وجوه عابسة، ونحو أخرى ملامحها محايدة. يتأمل ما في المدينة من أشرار وأخيار، وضحايا وجناة، وجوعى وأثرياء، وقبل أن يختطف الأفقُ المترع بالشواظ الشمسَ، يمسح المدينة بنظرة واسعة، يذرف دمعة، ثم يعود إلى رأس الجبل.

٨

لأول مرة لم يحظَ جوناثان بليلة الحقيقة التي اعتاد منذ سنين عيشها بغرابة خفية الأسباب، وبعد مرور أيام على مقتل روبين وبخت قرر أن يعيشها حتى لو لم تكن شروطه متوفرة في المرأة التي يختارها. كان في أواسط ثمالته، في شقته، يطل على شوارع الحي الأول وهي فارغة، ليس فيها سوى سيارات للشرطة، تتأكد من ألا أحد يخرق حظر التجوال. كان في تلك الليلة يشعر بالخواء وبالهزيمة يهاجمانه لأول مرة، لهذا تبع الكأس بأخرى، فبدت له أضواء الحي الساطعة ككتل نيران على مقربة منه. كانت تلك المرة الأولى التي يُمنى فيها بهذه الهشاشة في حي يراه أنموذجًا حضاريًّا في الهندسة المعمارية والتجارة واللهو والليالي الصاخبة.

سمع صوت نسخته الشبحية تتحدث إليه بسخرية فجة: **إيمانك العميق بأبناء الطائر الأسود قادم من إحساسك العتيق بالرفض.** التفت جوناثان وإذا به أمام نفسه، صورة طبق الأصل إلا أنها متوهجة، تتوفر على قدر كبير من الحيوية التي بات يفتقدها منذ

أن حل الوباء على المدينة. سقطت الكأس من يده، إذ أصابه الارتباك، وباتت شفتاه ترتعشان، غير قادر على النطق.

أرخى جوناثان جسده على كرسي قريب منه، ينظر إلى نسخته الشبحية: **لا أعتقد أنك نسيت طفولتك البائسة، حين رُفضت في البدء من زوج أمك الثري، الذي كنت معجبًا بشخصيته كأكاديمي تتناقل شاشات التلفاز أخباره، وتبث مقتطفات من محاضراته عن الحضارة، وما بعدها. كان يعاملك مثل جرو وديع. كنت تشعر بالإهانة، إلا أن الإهانة الكبرى حين اغتصبك في تلك الصبيحة التي سافرت فيها أمك، ورأيتها فيما بعد من ثقب المفتاح تخون زوجها مع شاب يصغرها سنًّا. منذ ذلك اليوم قررت أن تواجه الرفض والاغتصاب، بتهشيم كل قانون سائد، وتخلقت لديك رغبة بوهيمية بالنساء اللواتي يكبرنك سنًّا، رغبة تتقاطع بشهوتك الدفينة في الانتقام.**

شهق جوناثان، قبل أن ينفجر باكيًا، وراح يهشم كل ما تقع عليه يداه. كان يدور حول نفسه، وهو يرى نسخته الشبحية تدور معه، حينها سقط على الأرض، وشبحه ينظر إليه من الأعلى. قال جوناثان وصوته بالكاد غادر فمه: **لن أهزم أمامك، وأمام تلك الذاكرة العفنة. نعم إني أنتقم، وسأمضي فيما أنا مؤمن به. إن كنت تؤمن بالبياض، فإني أومن بالسواد. إن كنت تؤمن بالخير، فإني أومن بالشر. لا سبيل لهذه المدينة سوى أن تُنسف من جديد، وتنطلق حياة أخرى، كنا على مقربة من أن نعلنها مع إحراق المخطوط الذي سنجده، وسنفعل ذلك.**

اقتربت نسخته الشبحية منه: **لا سبيل لك إلا الموت. لترتاح من ذاكرتك، ومن عُقَدك الدفينة في تلافيفك السرية، ومن تلك الصور التي ما انفكت يومًا عن مهاجمتك. إن في موتك لذة مختلفة عن كل الملذات التي جربتها خلال سنين عمرك المزورة.** أخذ جوناثان يلوح بيديه، يريد لنسخته أن تعود له، لكنها أطلقت ضحكة صاخبة: **لن تظفر بي. لقد غادرتك، وما أنت الآن إلا صندوق خشبي سينخره السوس. لهذا لا نجاة لك إلا الموت.** شعر برغبة مباغتة في أن يلقي بنفسه من الشرفة، غير أنه تراجع إلى الوراء، واحتمى بما تبقى لديه من عزيمة: **لا طاعة لك عندي.** اختفت نسخته الشبحية، إلا من صوتها الهامس من وراء كتفه: **ما تفعله ليس صمودًا، وليس قوة، إنما محاولة لعدم الخروج من سوادك.**

أسند جوناثان جسده إلى الجدار، وقد هاجمه صدى ذلك اليوم الذي رأى فيه أمه تعاشر شابًّا أصغر منها سنًّا. كانت ماجنة، شبقة، لا حواجز أمام شهواتها التي لم يستوعبها جوناثان في تلك السنة من مراهقته. ما أفجعه، وهو ينظر عبر ثقب الباب المواجه لسرير غرفة نومها، أنها لم تكن على صورة الأم الرقيقة، بل كانت على نحو لم يخطر بباله قط، مستبدة، يسيطر عليها توحُّش جسدي صارخ، إذ إن كلماتها الفاجرة، لم تغادر ذاكرته طوال عمره.

هز جوناثان رأسه، كأنه يطرد دبورًا يهدده بلسعة قوية، ثم سار بترنح نحو الحمَّام. وقف لدقائق تحت الماء البارد، ثم بدّل ملابسه، وخرج إلى الشقة التي يعيش فيها ليلة الحقيقة. طلب من معاونه

الشخصي أن يأتي له بامرأة تمضي معه ليلته، ولم يخبره بأي شروط سوى العمر. لم ينتظر كثيرًا، فما هي إلا نصف ساعة حتى قرعت بابه امرأة في أواسط الستين من عمرها، طويلة، لها جسد ممتلئ، لا زوائد جسدية تظهر من وراء فستان ليلكي اللون يغطي جزءًا بسيطًا من نهدين كبيرين تنحدر عليهما خصلات من شعرها الأسود الناعم. حين أشرع جوناثان الباب، ونظر في عينيها العسليتين الواسعتين، وهي تبتسم برقة، عاد إلى الوراء، وقد ارتخى وجهه، وصار أقرب إلى وجه طفل مندهش، تتلاعب فيه آثار البهجة والمفاجأة.

بقيت يدها فارغة في الهواء حينما همّت بمصافحته. وعندما لم تجد ترحيبًا منه، عبرت الباب، وأغلقته برفق وراءها: **ما بك يا صغيري، صامت بهذا الشكل؟!** أزالت الكأس من يده، ووضعتها على طاولة قريبة منها. طوقت عنقه بيديها، ومضيا نحو مقاعد في صالة الجلوس. أمسكت بيديه تلامسهما برفق، بينما جوناثان يعيش أكثر لحظات حياته استسلامًا. قالت وهي تنصت لموسيقى هادئة: **رقيقة مقطوعة البيانو هذه.** أبقت على يده بيدها، وبالأخرى حملت كتابًا يضم مختارات شعرية، وراحت تقرأ وعلى وجهها ابتسامة صافية: **وهذه القصائد جميلة أيضًا**. سارت باتجاه مرآة على الجدار المقابل، تُحرك مؤخرتها، بإيقاع أنثوي لافت. قالت وهي تنظر في المرآة: **أُصبتُ بالكآبة في أول أيام الوباء، وأُصبت بالذعر لما تفعله بي نسختي الشبحية.** التفتت إلى جوناثان: **لكني وضعت في أذني طينًا، وفي الأخرى عجينًا.** ضحكت برقة، وهي تقترب منه،

ثم اقتادته إلى مساحة قبالة المقاعد، وراحت تراقصه. أمسكت بيده ووضعتها على كتفها، ثم دفعت برأسه ليستقر على الطرف العلوي من صدرها. كان جوناثان ونقرات البيانو تأتي إليهما حانية، ينظر إلى المرآة ووجه السيدة يلوح فيها، وينبش تاريخًا مؤلمًا كثيرًا ما سعى لنسيانه. تمتم في سره، بصوت باكٍ: **إنها أمي، إنها هي، كيف يحدث هذا، وأنا قتلتها بيدي؟**

ارتكب جوناثان تلك الجريمة وهو في الثلاثين من عمره، تلك الأيام التي ازداد فيها نشاطه التجاري المشبوه. يعيش بعيدًا عن أمه التي انفصلت عن زوجها بعد إصابتها بمرض في القلب. في إحدى الليالي زارها بعد قطيعة امتدت لسنوات، أمضى معها ساعتين من اللوم، والتوبيخ، والغضب، أمرٌ جعل حالتها المرَضية تزداد سوءًا. امتنع عن مناولتها دواءً كانت تتوسل الحصول عليه، فلفظت أنفاسها الأخيرة، وهو يقف أمامها بمشاعر يختلط فيها الغضب، والشعور الجارف إلى الأمومة.

* * *

ابتعد جوناثان عن السيدة قليلًا، وأخذ يلامس وجهها بحنو. عيناه مغرورقتان بالدموع، ووجهه يطفح بما يؤدي إليه الندم. اقتادته السيدة نحو غرفة ليلة الحقيقة، وهناك وقفا قرب السرير، ينظر جوناثان إلى الجدران الأربعة المغطاة بالمرايا، مشدوهًا بالسيدة، ويتمتم بصوت مرتخٍ: **إنها أمي**. ثم فجأة، ولأول مرة منذ أن أصابه

بالوباء، صرخ حينما لم يجد نفسه في المرآة: **أين أنا؟** أمسكت السيدة بكتفيه، ثم أشارت إلى بطنها: **أنت هنا.**

ظهرت نسخته الشبحية بينه وبين السيدة: **قلت لك، لا سبيل لك إلا الموت.** جفل جوناثان، وركض في الغرفة متخبطًا، بينما نسخته الشبحية هادئة في مكانها: **لم تفهم أنت وأشباهك ما فعله جدكم حين جاء إلى هذه المنطقة، وعمَّرها، رغم ما رآه من سواد هو في الأصل قابع في كل مولود، لكنه يُهزم حتى في اللحظات الأخيرة أمام البياض. أما أنتم فقد اغتلتم بياضكم، لئلا يهزم سوادكم الحالك.**

غادر جوناثان الغرفة هاربًا، وصوت شبحه يلاحقه: **حين نظرتَ من ثقب الباب إلى أمك لم ترَ سوى جانبٍ من الحقيقة، فرُحت تبني حقيقتك الزائفة، لهذا فإن الموت سبيلُك المريح.** حين فتح جوناثان الباب ليهرب، وجد معاونه يقف هناك، وبرفقته تلك المرأة التي جاء بها لتمضي ليلة مع جوناثان. التفت جوناثان إلى الوراء، ولم يجد لا السيدة، ولا نسخته الشبحية، فسقط مغشيًّا عليه.

٩

مضت على باختو أيام، كان خلالها يخرج صباحًا يفتش عن الطائر الأبيض، ولم يعثر حتى على ما يدل عليه. فتش معظم جهات الجبل العلوية، وفي كل مكان يمكن للطيور أن تحط عليه، أو تأوي إليه. في الليل كان يلوذ بالكهف، ويغلق بوابته بسيقان أشجار، وصخور، ليحمي نفسه من الحيوانات المفترسة التي يسمع أصواتها قريبة منه. تتبع كل طيور الجبل، غير أنه لم يجد طائرًا أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة.

شارف طعامه الذي اقتصد في تناوله على النفاد، وأضحى بأمل قليل لا يكفي لما تبقى لديه من أيام في الجبل. حين استباحته تلك الأحاسيس، هرع يستعيد ما قرأه في مخطوط الجد الأول، فاسترد شيئًا مما بهت من همته. في الصباح تناول ما تبقى لديه من طعام، وخرج يبحث من جديد، لكنه عاد عند غروب الشمس، خالي الوفاض، يحتله التعب والإحباط وخيبة الأمل. **هل حقًّا حلق الطائر نحو هذا الجبل؟** تساءل باختو في سره، إذ إن ما قالته أمه هو الدليل الوحيد على مكان الطائر، فماذا لو اكتشف أن ذلك

مجرد هلوسات أتى بها تعب الولادة؟ جلس على صخرة ينظر إلى المدينة، ويتساءل: **لماذا ظهر هذا الطائر في تلك الليلة التي وُلدتُ فيها؟ ولماذا رأيتُ ذلك المنام، لماذا أنا بالذات من يعثر على المخطوط، وبالتالي يخوض غمار رحلة بحث مضنية مثل هذه؟!**

لم تكن تساؤلات إنسان غاضب، أو مصاب بالإحباط، إنما هي لحظة صفاء عالية، مسحت روحه بضوئها الأزرق، وجعلته يتفكر فيما وراء كل تلك الأحداث. تخيل الخطوات الأولى للجد الأول على أرض هذه المدينة التي ما إن أسس للحياة فيها، حتى أسس أحفاده طريقًا لسواد الكراهية. صار الهواء أكثر برودة لا يحتملها جسد باختو النحيل، فلاذ بالكهف وأشعل نارًا.

أغلق البوابة بسيقان الأشجار واستلقى لينام، لكن الخيبة طردت النوم من عينيه، وألقت به في دوامة من التفكير المُجهد، وهو يسمع أصوات الحيوانات المفترسة قريبة منه. حينها تملّكه الغضب. حمل غصنًا مشتعلًا، وخرج مندفعًا نحو الحيوانات، يصرخ بها، ويلوّح بالنار إلى أن تراجعت. مشى نحو قبر الجد الأول، والنار لا تزال في يده. كانت أضواء المدينة تلوح له من بعيد كنجوم مجتمعات في تلك الليلة المعتمة. قال واليأس يدفع بصوته الغاضب: **تعبت يا جدي. أين هذا الطائر؟** ألقى النار من يده، وجثا على ركبتيه: **حين قرأت مخطوطك، شعرت بأنك كلفتني بمهمة رغم أنها ردت لي اعتباري أمام نفسي كغجري ينبذه الجميع، إلا أنها ليست لي.** رفع يديه نحو السماء، وصرخ بصوت يخالطه البكاء: **لقد وضعتَ كلَّ سلالتك في عنقي.**

عاد باختو إلى الكهف، يرافقه الجوع والتعب واليأس، ونام. في تلك الليلة رأى الجدَّ مرة أخرى، يهبط الجبل، والناي في يده، ويتجول بين سلالته. حينما استفاق، كانت الشمس قد شجت ثوب الليل، فتسلل الضياء عبر بوابة الكهف يطرد شيئًا من وحشته. تقلب وهو يشعر بجسده يؤلمه، ففراشه حجارة، وغطاؤه الهواء. تفكر فيما رآه في منامه، وكيف للجد الأول أن يتجول بين سلالته في هذه الأيام. بالإضافة إلى أن الأمر مثير للدهشة والخوف، فإنه ينطوي أيضًا على رسالة عميقة، قادمة من فداحة ما يحدث، بل إنها إشارة تسبق الزلزال.

ألقى باختو بضعة أعواد في حفرة النار، ثم نفخ فيها، فأضيء الكهف أكثر، وانتشر فيه شيء من الدفء. فكر في الطريق الجديدة التي اكتشفها، وسيسلكها عائدًا نحو مخيم الغجر، فلا شيء تبقَّى ليفعله، ليجد طائرًا بات على قناعة أنه محض وَهْم. لقد ساورته الشكوك بكل شيء، ابتداء من اليوم الذي فقدَ فيه الناسُ قدرتهم على رؤية أنفسهم، وقراءته للمخطوط، وما قالته أمه عن الطائر الأبيض، ورحلته إلى الجبل. شكَّ بأن كل ذلك مجرد هلوسات. وقف بباب الكهف يستبد به الحزن وتحتله الحيرة ويهاجمه الخوف بلا هوادة. لكنه لم يجد حلًّا سوى أن يغادر الجبل رغم خلو يديه مما تكفل بالعودة به. سار نحو قبر الجد الأول وشعور بالفشل يعتريه بضراوة. كانت المدينة ومخيم الغجر يَلوحان له، هادئان في ذلك الصباح، وكأنهما بريئان مما فيهما من آلام وخسارات ومكائد

لم تكن في الحسبان حين خطا الجد أولى خطواته في تلك البقعة التي تفيض الآن بما يصعب فهمه.

عاد إلى الكهف ليحمل حقيبته، ثم راح يتأمله قبل أن يغادره. داهمته غصة فراق الأمكنة التي نألفها، وتلك المؤانَسات الروحية نادرة الحدوث. خلال أيامه في الجبل، صارت روح باختو أكثر صفاء، وسكينة، رغم ما به من تعب وشعور بالخذلان. لمح كلمات منقوشة في الجدار بالكاد يمكن رؤيتها. أزال عنها الغبار، وراح يدقق بها جيدًا، إلى أن تمكن من قراءتها: «**لا ينحني الماء إلا أمام الصخور الضخمة**». دقق جيدًا في تلك الكلمات. لا بد أن الجد الأول هو من كتب هذه العبارة. تمتم باختو مأخوذًا بتلك الحكمة التي جعلته يمضي وقتًا قرب النار، يحاول فهم ما ترمي إليه. في تلك الأيام، أدرك باختو لماذا أهمل الجبل، بل وأُقصيَ كل ما يتعلق به، إلى أن ما عاد أحدٌ في هذه الأيام يأتي لا على ذكره، ولا على ذكر جد هذه المدينة الواقفة على حافة هاوية لا قاع لها، فإن ما يبنيه الحالمون بالبياض، عبر سنين، يهدمه الساعون إلى السواد في سنوات قليلة.

ألقى على الكهف وعلى قبر الجد الأول نظرة أخيرة ومضى حزينًا، إلى الدرجة التي كان يصعب فيها نقل خطواته من مكان إلى آخر. كل شيء كان ضبابيًّا في عينيه، بل شعر أن الوباء سيجتاحه، ويجتاح مخيم الغجر، ويأتي على المدينة. كان يشعر أن الفناء بات على مقربة شديدة. سلك الطريق الجديدة التي اكتشفها ليعود

من حيث أتى، فمر بالنبع ليتزود بالماء. كانت الخيبة قد عرقلت طاقته على المشي وعبثت برأسه، فما عاد قادرًا على التفكير. أرخى بدنه على الأرض يراقب الماء كيف يتدفق ويسيل في قناة يحفها العشب والحشائش.

حين رفع عينيه وجد قبالة القناة جدارًا صخريًّا عاليًا. تذكر بعد وقت من تأمله ما كُتب على جدار الكهف: **لا ينحني الماء إلا أمام الصخور الضخمة**. كان الماء يمضي بسلاسة إلى ذلك الجدار الصخري، ويرتطم به. تفكر جيدًا في تلك الحكمة التي أيقن أن الجد الأول قالها، وتوصل إلى أنها إشارة نحو شيء ما. هرع إلى الجدار يركض تارة، ويتعثر تارة أخرى، إلى أن وصله، وإذا بالماء يرتطم به، ثم يروح إلى يمينه، يختط دربه نحو المنحدرات. تسارعت أنفاس باختو، وبات يلهث وهو يتفحص الجدار، إذ أدرك أن ما قرأه في الكهف، يشير إليه.

وهناك، هناك في أعالي الجدار الصخري، رأى باختو الطائر الأبيض الذي بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة، رآه يرقد في كوة ليس من السهل بلوغها. ومن فرط دهشته بقي ساهمًا، يتأمله كم هو جميل ونادر. في ندرته أمر غامض، أمر يصعب تفسيره، لا علاقة له بمزاج المدينة، ولا بأفقها الذي بات يميل إلى الشحوب يومًا إثر يوم. انتبه إلى أن الطائر يحدق إليه، فتذكر ما قالته والدته، وهي تقاسي آلام المخاض، وتلك اللحظة التي وقف الطائر الأبيض فيها على حبل الخيمة، ينظر إليها.

تهاوى على العشب، وأرخى ذقنه على ركبتيه، وأمضى وقتًا يتأمل الطائر ببياضه الناصع، وتلك النقطة الزرقاء المضيئة بين عينيه، ومن فوق الجدار الصخري تشتد السماء زرقة وصفاء. استعاد باختو ما قاله الجد الأول في مخطوطه: **فعلامة الناي طائر أبيض، بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة.** تقاطعت في مخيلته صورة المدينة، بصورة الطائر الأبيض. نهض بتمهل لئلا يجفله، وشرع يتسلق الصخرة سعيًا إلى تلك الكوَّة. لم يكن الأمر بتلك السهولة التي كانت تبثها لهفته الكبيرة في روحه، ولا ما تدفعه إليه همته التي استشاطت به مرة واحدة، إذ زلت قدمه وهو في الربع الأول من المسافة، وسقط أرضًا.

حاول من جديد صعود ذلك الجدار الصخري، لكن هذه المرة كانت سقطة أكثر خطورة من سابقتها، فعادت إليه آلام جسدية قاساها طوال إقامته في الجبل. تفقد قدمه والدوار يزيغ بصره، وإذا بجرح غائر فيها، يتدفق منه الدم بغزارة. استعان بحجر مسنن الحواف، واقتص قطعة من بنطاله، وربط جرحه. استلقى على العشب، ينتظر أن يتخلص مما ألمّ به من دُوَار، ومن دفقات ذلك الألم القاسية، لكن مرأى الطائر، وهو يحدق إليه من تلك الكوَّة، أزال سطوة الألم عنه، تجاوزه بيُسر لم يجد تفسيرًا له.

حين عاد باختو لتسلق الجدار الصخري، ألزم نفسه بأن يصل مُبتغاه هذه المرة. كان ينقل قدميه بحركات محسوبة، وينظر إلى الأعلى، يتأكد من أي نتوء أو بروز أو حافة، ستعينه على وصول

الكوَّة. وبالفعل، صار على مقربة منها، وما إن وصلها حتى فرَّ الطائر فاردًا جناحيه العريضين، وحط على شجرة قريبة، ينظر إليه. مضى باختو بتوخٍّ شديد، عبر المسافة القصيرة التي تبقت بينه وبين الكوّة. حين وصلها، كانت فارغة إلا من ريش الطائر. أحس لحظتها كما لو أن ماءً باردًا يهطل على رأسه. اجتاحته حيرة، وشعور عارم بالمرارة، لكنه حين أمعن النظر في الكوَّة، وجد أن حجرًا متوسط الحجم يحجب شيئًا وراءه. ما إن دفعه حتى لاحت له أسطوانة فخارية، سحبها نحوه بتعجل، فتهشمت، وظهر الناي.

كاد باختو أن يسقط من فرط ما أصابه من أثر مضاعف لمنامه الذي عاوده من جديد. تأرجح قليلًا ويده تمسك بحافة الصخرة، والأخرى تمسك بالناي. كان إحساسًا أشبه بمن تفجّر في روحه نهر، وغسل كلَّ آلامه، فبكى، بكى وهو ينظر إلى الطائر، وقد فرَّ محلقًا نحو الأفق، كأنه اطمأن على مصير الناي، وعلى ما سوف يصدر عنه في المدينة. ظل باختو يراقب الطائر وقد ابتعد أكثر، إلى أن تماهى بزرقة السماء، يفكر فيما بين زرقة النقطة التي بين عينيه، وبين بياض ريشه، وبين ما وراء الأفق الذي يسعى إليه، من رابط وراءه الكثير مما يجب أن تدركه سلالة الجد الأول. في ذلك اليوم امتثل باختو لوصية الجد، ونام قرب الجدار الصخري لثلاث ليالٍ. في الليلة الأولى سمع في منامه المعزوفة الأولى، وفي الليلة الثالثة، سمع المعزوفة الأخرى.

١٠

وقفت لمياء بباب بيتها، في ظهيرة بدا فيها الطرف الشرقي من الحي الثالث كما لو أنه مهجور، لا تقطنه سوى الأشباح. أزقته خاوية تفوح منها روائح البول والقمامة والرطوبة. على طرفيها بيوت آيلة للسقوط، نوافذها هابطة، إن تأوهت امرأة في إحداها سمعها الآخرون. يعشش فيها الفقر، كما يعشش القمل في رأس لم يطله الماء منذ سنين. إنه جانب مبتور من مدينة تضع على قائمتها العديد من الأحياء المنسية، إلا من بعض المرافق، ومنها مركز لبيع المواد التموينية بأسعار مدعومة، مع ذلك لا يقوى الكثيرون على ارتياده.

ثمة أغنية كانت تأتي من بيت جيرانها، مترعة باللوعة والحزن الجارح، تتقاطع بصوت أطفالها وهم يتشاكسون، إذ تسقط أوانٍ، ويُقرع باب، ويتعثر أحدهم بشيء ما. كانت تشعر بخواء وهزيمة ازدادا منذ أن ظهر الوباء، وتحس بالعجز وهي لا تجد حلًّا لبيت فارغ، ليس فيه حتى رغيف خبز واحد. بالكاد استطاعت خلال أيام حظر التجوال أن تقتصد بما اشتراه زوجها نديم من مئونة شحيحة،

بما جناه كعامل مُياوَمة في مشاريع البناء. ومع حظر التجوال توقف كل شيء، حتى الحياة كانت تشعر بأنها على وشك أن تعلن نهايتها.

لمياء من ذلك النوع المحبط، في مدينة لا تكترث بمن هم مثلها من الفقراء. رافقها الشعور بالعجز، والسوداوية منذ أن تزوجت بنديم. عاشت حياة يقتل الفقر فيها معظم محاولاتها المتواضعة بالسعادة. سألتها ذات مرة فتاة تُجري إحصائية لأحد مراكز الدراسات: **لماذا تُنجبون كل هذا العدد من الأطفال؟** قالت لها، وقد أطلقت ضحكة ساخرة مدوية، كشفت أسنانها التي قُلع عدد منها: **لنا جار يَسكر لينسى آلامه، أما نحن فننسى آلامنا لربع ساعة حين نمارس الجنس.** أشارت إلى أطفالها، ثم قالت بحزن طافح: **وهذه هي النتيجة.**

في أحد الأيام سمعت عن أولئك الأثرياء الجدد، الذين جنوا أموالًا طائلة من وراء استعراض يومياتهم المصورة على مواقع التواصل الاجتماعي. وحين تابعت ما يفعلون، وجدت أن كثيرًا من النساء ينشرن يوميات صلبها مؤخراتهن اللدنة. ضحكت كثيرًا من أن مؤخرة تجني كل تلك الأموال عبر لهاث بصري لأولئك الذين باتوا أسرى لهواتفهم النقالة. كان ذلك في يوم خلا البيت فيه من الطعام. أغلقت الغرفة على نفسها، ونصبت هاتفها، وغطت وجهها بكمامة، ثم انطلقت تتحرك بغنج مصطنع. كانت تريد أن تنشئ صفحة إلكترونية باسم وهمي، وترفع المقطع المصور عليها، لكنها حين شاهدت ما فعلته، استغرقت بضحكة انتهت ببكاء مرير، فأقلعت عن الفكرة.

كانت لمياء في تلك الظهيرة لا تزال تسمع الأغنية الحزينة التي تأتيها من بيت جيرانها. تأملت كلماتها، وأنصتت أكثر لموسيقاها الحزينة، فشعرت بصدرها يخفق، ودبيب البكاء يستشري به. بكت سنينَ عانت خلالها العوَز، والحاجة، وطعم الأيام الصعبة. لم تكترث بما اكترث به الناس حين أصاب الوباء مدينة الجد الأول، ولم تخشَ نسختها الشبحية، لا هي ولا زوجها. المرآة الوحيدة في بيتهما حافلة بالشروخ، تُشتت ملامح من يستخدمها، وإن فكرت لمياء أو نديم بالنظر فيها، فإن أحدهما يفعل ذلك لثوانٍ معدودات. يستخدمها نديم فقط ليحلق لحيته مرة كل شهر. لا يكترث بهندامه، ليس لأنه لا يمتلك ملابس يزهو بها فقط، بل لأن الإحباط أيضًا يُحكم قبضته عليه. وظيفته عامل بناء، يخرج صباحًا، ويعود عند المساء، يحمل كيس خبز، وقليلًا من الخضار لعائلة فقيرة، مكونة منه ومن زوجته، ومن خمسة أطفال.

حين شاهد المذيع في نشرة الأخبار يتحدث عن الوباء في ذلك الصباح، هرع إلى المرآة، ووقف أمامها بلحيته الكثة، وشعره المبعثر، ووجهه الذي حلت به التجاعيد باكرًا. نظر فيها بعينين يشوه جفنيهما انتفاخ يميل لونه إلى السواد، وفي فمه سيجارة لم يسقط رمادها. حدق إلى المرآة إلى قليل من الوقت، ثم انفجر ضاحكًا بمزاج هستيري. في الداخل كانت لمياء تقف إلى طاولة عليها موقدة طبخ صغيرة، تقطع البصل لتُعد طبقًا من الطماطم المطبوخة، عيناها مغرورقتان بدموع كلما سالت على خديها

المتعبين، تمسحهما بكُم ثوبها البالي. ما إن سمعت ضحك زوجها حتى ألقت السكين من يدها، وأسرعت إليه، ثم وقفت وراءه. حين لم تجد وجهها في المرآة، صرخت بذهول: **بسم الله الرحمن الرحيم**. تركها نديم وعاد يشاهد التلفاز، والمذيع على شاشته يعلن بارتباك عن موعد بدء حظر التجوال.

استفاقت لمياء من شرودها وهي في الشرفة، على جلبة تحدث في الشارع. رأت شابين يحاولان كسر باب مركز بيع المواد التموينية، وما هي إلا دقائق حتى التحق بهما شبان آخرون، لم يكترثوا بنداءات سيارة الشرطة بأن يعودوا إلى بيوتهم. وقف كثير من الناس إلى نوافذهم، يراقبون ما يحدث، وأعداد من خرجوا نحو المركز تزداد بسرعة. كسروا الباب بصعوبة، وعبروا إلى الداخل، بتدافع كبير، ثم خرجوا مسرعين، يحملون موادّ تموينية. لم تنجح محاولات رجال الشرطة بأن يكف الناس عن اقتحام المركز التمويني ويعودوا إلى بيوتهم، رغم إطلاق عدة رصاصات في الهواء.

لم تمتثل لمياء لزوجها وهو يحاول منعها من النزول إلى الشارع. كانت تريد أن تحصل على أي شيء لأجل أطفالها. ما إن وصلت العدد الكبير من الناس الذين تجمهروا عند باب المركز حتى نفد ما كانوا يسعون إليه. غير أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. ثمة دكاكين خاصة لأناس من الحي كسر شبان أبوابها، ونهبوا ما فيها. فعلت لمياء ما بوسعها لتجد لها طريقًا نحو أحد

الدكاكين، وبالكاد استطاعت أن تنهب كيسًا من الأرز، خبأته تحت قميصها، وعادت جريًا إلى بيتها. لم يرجع الناس إلى بيوتهم، بل احتشدوا بسرعة، يطلقون هتافات ضد عُمودية المدينة وإدارتها، ويتهمونهم بتدبير الوباء. قناعة ترسخت لديهم بعد أن شاهدوا تسجيل الدكتور أدهم، الذي انتشر بسرعة، وصار حديث الناس.

سار المحتشدون نحو عمق الحي بكثافة تزداد كلما تقدموا أكثر، إذ كان الناس يخرجون من بيوتهم، يقتحمون الدكاكين، ويهربون بما فيها، إلى أن وصل عدد كبير من عناصر الشرطة، مدججين بالأسلحة، وبقنابل الغاز، وبخراطيم المياه. حين اتسعت دائرة العنف، راح رجال الشرطة يصدون الناس بالهراوات، ما أدى إلى تصادم عنيف تلقى شرطي على إثره طعنة أردته قتيلًا. حينها هاج رجال الشرطة، وباتوا أكثر عنفًا، فسالت الدماء. لكن المظاهرة التي تشكلت فجأة لم تنفض إلا عندما ملأ دخان القنابل الهواء، فتراجع الناس، وعادوا إلى بيوتهم.

انتشر خبر ما حدث في الحي الثالث سريعًا، وظهرت تسجيلات في وسائل التواصل الاجتماعي أثارت غضب الأحياء الأخرى، ما دفع عُمودية المدينة إلى إصدار بيان يستنكر ما حدث، ويهيب بالناس أن يلزموا بيوتهم.

١١

في شبابه تنبه الدكتور أدهم إلى سطوة الخوف. كان والده طيبًا وكريمًا وكتومًا، لكنه فشل في إخفاء جبنه عن ابنه الوحيد، رغم قدرته الفائقة على مُداراة الحقائق. لاحظ الدكتور أدهم ذلك الجانب من شخصية والده في أكثر من موقف، إلا أنه لم يكن متأكدًا من حكمه. في إحدى ليالي الشتاء قُرِع باب البيت بشِدَّة، كان الطارق شابًّا هاربًا من الشرطة السياسية. ما إن فُتِح الباب حتى عَبَرَ الشاب إلى الداخل لاهثًا. عرفه أدهم على الفور، ناشط سياسي، كان يلصق على الجدران مناشير فيها آراء حزب ينتمي إليه. هكذا أخبرهم الشاب، ظنًّا منه أنهم سيتعاطفون معه. لكن والد أدهم أخذ يدفعه نحو الباب ويأمره بالمغادرة. في تلك اللحظات رأى أدهم جبن والده، إذ كانت يداه ترتعشان، وأسنانه تصطك، والكلمات تخرج من فمه مبعثرة. وأمام إلحاح والد أدهم، خرج الشاب مسرعًا. بعد ثوانٍ سُمع صوت رصاصات جاءت من الشارع، لقد قُتل الشاب. من انفراجة في باب غرفة النوم، شاهد أدهم والده يجلس في سريره، يبكي في صمت.

منذ تلك الحادثة أدرك كيف يمكن للخوف أن يتملك الإنسان، فيجعل منه عاجزًا. آمن أن العجز مرحلة نهائية، يفضي إليها الجبن. استمد الدكتور أدهم قوته من تلك المعرفة التي حظي بها بعد أن تعمق كثيرًا في الطب، لذا لم تنقصه الجرأة حين أطلق العنان للفيديو على صفحته الإلكترونية، بل أحس أن الرغبة في الانتقام تدفعه إلى فعل أكثر من هذا، في وقت وجد المدينة فيه على مقربة من الانهيار.

بعد أن رفع فيه الدكتور أدهم تسجيله على صفحته، في وسائل التواصل الاجتماعي، انتشر التسجيل بين الناس، فشجع البعض على أن يُفصحوا عن آرائهم، متبنين الأفكار ذاتها. طفا امتعاض كثير ممن لم يصابوا باختلال الحواس على السطح، وأصبح الحديث عن أبناء الطائر الأسود علانية، خاصة بين فئات لم تكن قد سمعت بتلك الجماعة التي نُسب إليها كثير مما لحق بالمدينة من انتكاسات، ابتداء بالوباء، وعودة إلى كثير من الأزمات، وعراكات وقعت في السنوات الأخيرة.

حينما وجد الدكتور أدهم صدى لما قاله، نشر صورة له وهو يحمل مرآة كَتب عليها: **نريد وجوهنا**. وما هي إلا ساعات قليلة حتى أصبحت تلك الصورة الأكثر تداولًا، فأطلق حملة على صفحاته في وسائل التواصل الاجتماعي للوقوف على نوافذ البيوت، بمعية المرايا عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا من اليوم التالي. وبالفعل استجاب معظم سكان المدينة. كان المشهد مرعبًا حين انتصفت الشمس في السماء، إذ أخذت المرايا تعكس

الأشعة في كل الاتجاهات، بينما الأصوات تنطلق من كل الأحياء: **وجوهنا، وجوهنا، أعيدوا لنا وجوهنا**. كان وقوفًا كاملًا لسكان المدينة إلى النوافذ، بكبارها وصغارها. برجالها ونسائها. كانت أصواتهم حارة وقوية، ومصابة بالحسرة. ما حدث في تلك الظهيرة أشبه بمارد خرج من عنق الزجاجة، يصرخ بأعلى صوته.

في تلك الأثناء جلس العمدة متوترًا أمام شاشة التلفاز، يتابع أخبار الحملة تارة، وتارة أخرى يهرع إلى الشرفة، ينظر إلى بيوت الحي الأول والمرايا تطوح أشعة الشمس في الأفق. في اليوم نفسه اجتمع بعدد من مسئولي إدارة المدينة، ومنهم الجنرال، إذ كان قلقًا مما يمكن أن تؤدي إليه تلك الهبة. بعد أن انتهى الاجتماع انفرد العمدة بالجنرال. قال وهو يفرك إحدى يديه بالأخرى: **صار الدكتور أدهم يعمل ضدنا علانية**. أرخى العمدة رأسه إلى الوراء، وبدا كأنه ينظر إلى السقف. كانت أسنانه تصطك غضبًا حين انتفض فجأة إلى الأمام: **أرأيت ما حدث في الحي الثالث، أترى ما يحدث الآن؟ الأمر يتفاقم أيها الجنرال. علينا أن نوقف هذا الطوفان الذي يمكن أن يُغرقنا، لكن علينا ألا نبدو أعداء للحرية**.

بدا الجنرال أقل همة مما مضى، ضعيفًا رغم محاولته أن يظهر على غير ذلك: **الناس أيها العمدة يعتقدون أننا ابتكرنا هذا الوباء، ولا يصدقون أننا ضحاياه مثلهم**. صرخ العمدة، بعد أن ضرب سطح الطاولة بيده: **ما بك منهار أيها الجنرال؟ صحيح أننا لسنا وراء هذا الوباء، مع ذلك بدأنا في استثماره. هل نستسلم، وبالتالي**

تكون النهاية؟ شد الجنرال جذعه إلى الوراء، يحاول ألا يفقد شكيمته، وراح ينصت لتوصيات العمدة، التي بالطبع لم يقررها بمفرده.

* * *

بعد مرور أسبوعين تقريبًا على انتشار الوباء، وفي اليوم التالي لما سُمي بهبّة المرايا، وُجد الدكتور أدهم في مكتبه المنزلي، مصابًا برصاصة بين عينيه. أصرت الجهات الأمنية في البداية على ألا يُنشر أي تفصيل عن الحادثة، إذ خشيت ردة فعل الناس على ما جرى. لكن زوجته أماليا كتبت منشورًا في صفحتها على مواقع التواصل الاجتماعي، رثت فيه زوجها، ورفضت تبني فكرة أن لصوصًا قاموا بقتله، بل ربطت حادثة مقتله بما قاله عن أبناء الطائر الأسود، وبتحريضه الناس على الخروج إلى الشارع، إلا أن إدارة تلك الوسائل حذفت المنشور، مثلما حذفت منشورات كثيرة كانت تشجع الناس على الاحتجاج.

حين علمت توليب بما جرى، تدبرت أمرها وذهبت إلى نوَّار، إذ إن الخبر ربما يودي بحياته. أقلها أحد سائقي الحي الثاني، سالكًا طُرقًا فرعية، نحو الحي الثالث، إلا أنها عادت من منتصف الطريق، فقد خرج الناس إلى الشوارع، في احتجاج غير منظَّم. بدأ ذلك الاحتجاج في الحي الثاني، ثم امتد إلى بقية أحياء المدينة. أضرموا النار بالمحالّ التجارية وبالبنوك وبكثير من المرافق. أخذت عمليات السلب والنهب تنتشر بسرعة، بينما دائرة الاحتجاج والتظاهر تكبر في كل لحظة، ويكبر معها الانتشار الأمني، الأمر

الذي خلّف ضحايا بين المحتجين، وفي صفوف عناصر الشرطة. ما إن حل المساء حتى أعتمت المدينة، وتصاعد منها الدخان، وعجت شوارعها بالإطارات المشتعلة والحجارة والقمامة.

كان الجنرال يرى جانبًا من ذلك المشهد المريع وهو يقف إلى نافذة مكتبه القيادي في الحي الأول، حين دخل عليه أحد مساعديه، وقدم له تقريرًا عن عدد المنتحرين في ذلك اليوم، ثم مضى. رآه الجنرال على زجاج النافذة قد وقف عند الباب محتارًا، وحين سأله عن سبب ذلك، قال له بتلكؤ، قبل أن يغادر: **أقدمتْ زوجتك على الانتحار يا سيدي**. بقي الجنرال واقفًا أمام النافذة التي يعكس زجاجها جدران مكتبه ومحتوياته. شاهد نسخته الشبحية تتكئ على الجدار الذي تتوسطه النافذة. جاء صوت شبحه هذه المرة محفزًا على نحو غير مسبوق: **ها أنت تشعر بالفشل، كأنه سكين يَبترُ وريدَ يدك. تشعر بالعار حين نفذت قرار أبناء الطائر الأسود باغتيال الدكتور أدهم رغم حقيقة ما قاله. وها هي زوجتك تُنهي حياتها. أنت الآن غير موجود، إنك محض جسد فارغ لا أكثر.**

كان الجنرال يحس بضآلة وجوده، ضآلة اجتاحته منذ أن أصابه الوباء. في تلك اللحظات بعينها تأكد أن هذا الإحساس هو ما يقود الناس إلى الإقدام على الانتحار. كان صوت زوجته يرنّ في مسمعيه تتضرع إلى المرآة، وصوت شبحه يهمس في أذنه: **هيا افعلها أيها الجنرال**. استل الجنرال مسدسه من حافظة تتدلى من خاصرته. صوَّبه نحو رأسه، ثم ضغط على الزناد.

الفصل الثالث

إن عقولكم مشاعل تطرد الظلمة، مشاعل لا يتوهج نورها إلا إن وعيتم وعرفتم، وبتّم قادرين على أن تميزوا بين الطريق التي تُفضي إلى هاوية، والطريق التي تؤدي إلى النور.

مخطوط الجد الأول

١

تمددت الوحشة في أرجاء شقة توليب، مثل ظل في كهوف رطبة. كانت مستلقية على أريكة قبالة شاشة التلفاز وهي تعرض بصمت مَشاهد مما يحدث في مدينة الجد الأول لأناس ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم، ولأناس يصرخون، وآخرين يُضرمون النار في كل شيء، بينما استحالت السماء إلى طبقة رمادية تشبه قبعة بالية. من الشارع تأتي الفوضى على شكل دويّ يؤدي إلى مزيد من الإحساس العارم بالوحدة. تكبر الوحدة حين يأتي الليل ثقيلًا يدهن القلوب بما تُخلفه الظلمة من إحساس بالفراغ البارد، وتتضاعف عندما يشعر الوحيد أن نيرانًا تضرم حوله، ولا يقف في وجهها سوى الضجيج.

أطفأت توليب شاشة التلفاز وحاولت أن تنام بعد أن تأكدت من أنها أوصدت الباب والنوافذ جيدًا، لكنها رأت عائلتها تجثم على صدرها، بوجوه حزينة ومستغيثة، فغادرت السرير يتملكها الخوف، وتكورت على نفسها في زاوية صالة الجلوس، تتنفس

بانتظام، تحاول تجاهل ما باغتها من مشاهد قاسية بقيت تلح عليها بلا رحمة. تناولت قرصًا من دواء مهدئ، ثم راحت تتنقل في أرجاء الشقة. تمتمت بحرقة لاذعة: ليتك هنا يا باختو! رغم أنها تعرف أن جبل الجد الأول لا تتوفر عليه تغطية لإجراء مكالمة هاتفية، اتصلت به، ولم تسمع سوى صوت أنثوي يخبرها بأن من غير الممكن الاتصال بهذا الهاتف. جلست على الأرض تسند ظهرها للحائط، وقد أخذ القرص الذي ابتلعته يُحسن مزاجها. تأملت صورة لباختو التقطتها وهما يجلسان في أحد مقاهي الحي الثالث، ينظر في عدسة الكاميرا وعلى وجهه ابتسامة عفوية، أشبه ما تكون بابتسامة طفل خائف. تساءلت بلوعة، وشعور طاغٍ بالغياب: **هل سيعود؟**

قرأت إحدى رسائله لها، تتأمل بَوْحَه، وتتوقف عند كثير من كلماتها التي تشي بألم يقبع وراء سعيه الحثيث للحياة. ثم راحت تقرأ رسالة كتبتها له، لكنها أبقت عليها من دون أن تقرر هل ستسلك طريقها إليه، أم ستبقى حبيسة هاتفها الذي يحظى بكثير من الرسائل المحفوظة:

عزيزي باختو..

لا أدري لماذا قررت أن أكتب لك وأنا في مزاج سيئ وحزين. ربما هو الهروب من جحيم النزاعات النفسية إلى جهة منحها الله قدرة فائقة على أن تكون ملاذًا آمنًا للمكسورين مثلي. عليك أن تعرف أنْ لا أحد يمكنه أن يرى كم يصارع الواحد منا آلامه، ثم يلجم أفواهها، إلا محب صادق يفهم الحب على أنه نهر عثر عليه وهو تائه، يكاد أن يقتله العطش.

لن أحدثك عن تفاصيل يومي كما اعتدت في رسائلي إليك، بل سأخبرك بماهية العلاقة التي حدثت صدفة بيننا، ولا بد أنك تدري ما الأثر العميق للأشخاص والأحداث، التي تأتي على هذا النحو الطريف. لم أقل لك من قبل إنك الرجل الأول في حياتي. وحين أقول الرجل الأول أعني ذلك الرجل الذي يرافقني حتى في غيابه، يرافقني حتى في مناماتي التي عادة ما تُعكرها الكوابيس والأحلام المزعجة.

قبل أن أعرفك لم أفكر حتى بأن أحلم برجل كما تفعل كثير من النساء، إذ إن جبالًا كانت تحول بيني وبين عالم الرجال، جبال نشأت بعد ذلك اليوم الذي وجدت نفسي فيه وحيدة بلا عائلة، وفي حيّ استسهل الموت بطريقة يصعب فهمها. على قمة تلك الجبال يستقر الخوف، الخوف من الاقتراب من أي إنسان بعدما رأيت ذلك التحول الغريب من أناس وديعين إلى أناس يجري البطش في أوردتهم مجرى الدم. لقد أدمنت وحدتي، وأدمنت تلك العلاقة مع ذاتي، نضحك، نسخر، نبكي، نتشاجر، نتفق ونختلف. يبدو لي أنها شكل طريف من أشكال النرجسية والاكتفاء في زمن لا يدري أناسه أنهم يتدحرجون إلى الأسفل، وما عادوا على قمة الجبل.

تُرى ما الحب؟ هل هو تلك الشحنات العاطفية التي تولد بين اثنين يلتقيان صدفة، ثم يشعر كل واحد منهما أنه منجذب إلى الآخر بلا قدرة على مقاومة هذه الطاقة الخفية؟ هل هو الإحساس بالحاجة إلى حضن يُعوضه عن برد هذه الحياة

التي يتكاثر صقيعها حتى في عز ظهيرتها الحارقة؟ هل هو الهروب إلى جهة تُنسينا فكرة الموت، وترسخ في وعينا شجرة الحياة؟ هل هو الحاجة إلى قتل النقص بالاكتمال؟ أعتقد أن الحب كل هذا وأكثر. هذا ما كنت سأقوله لك، حين وجدتك تنتظر أن أكشف عما في قلبي.

عزيزي باختو..

لا علاقة لما أشعر به نحوك بأي شيء. لا علاقة لغجريتك بما تَشكّل بيننا إلا ما وجدته فيك من روح رشيقة لم أجد مثيلًا لها. صدقني، لا مثيل لها على الإطلاق. أنت معي في كل الأوقات، حتى وأنا أنكبّ على قراءة كتب أفتش فيها عن سر هذه المدينة الغامضة. ترافقني وأنا ألتقط صورًا لأشياء لم ينتبه لها أحد، أشياء مهملة، لكنها تتوفر على قدر عالٍ من التقاطع مع ما نعيش. قبل أيام كنت في زيارة لجمعية ترعى أطفالًا فقدوا عائلاتهم في النزاعات الأهلية. رأيت طفلًا ظل يحدق إليَّ طوال الوقت. غالبًا وفي أوقات مثل تلك، أجدني في وجوه أولئك الأطفال، لكني في تلك المرة رأيتك أنت، وجهًا يسعى للحياة رغم قسوتها.

٢

في ذلك اليوم الذي غادر فيه الجبل متأخرًا، أراد باختو أن يصل المدينة عند الغروب، رغم أنه يعرف حجم قلق عائلته عليه، خصوصًا أمه، لكن ما كلَّفه به الجدُّ أكبر من الغياب، إنه الوقوف في وجه الفناء، ففي طريقه ثمة صورة مرعبة كانت تهجم بشراسة على مخيلته، صورة تظهر فيها المدينة خالية، ليس فيها إلا الوحشة.

حين حلَّ الليل، أعلنت مصابيح المدينة عن نفسها بخوفٍ من يختبئ وراء متراس في ساحة للمعركة. أضواؤها شحيحة، شحيحة جدًّا، لا تختلف عن شُح مصابيح مخيم الغجر. تضاعف رعبه، لكنه كلما رفع الناي نحو صدره، وكأنه يتأكد من وجوده المُنقذ، تعلو همته، ويعلو فيه أملُ مريضٍ أنفق وقتًا يفتش عن عشبة الشفاء، فعثر عليها.

وصل باختو المدينة، من جهة الحي السادس، الذي يقع جبل الجد الأول في جهته الجنوبية الغربية. سمع زعيق سيارات الشرطة، ورأى دخانًا كثيفًا يتعالى من شارع سيقوده إلى عمق الحي. حين اقترب أكثر، وجد الشارع يترع بالحجارة، والقمامة، والإطارات

المشتعلة، والمياه التي ضختها سيارات الشرطة لتفرق المتظاهرين، واللصوص. شاهد مجموعة من الشبان الملثمين يقتحمون متجرًا، ويسطون على ما فيه، بينما يصرخ رجل وسط الزحام، والضجيج: **لم نخرج إلى الشارع للسرقة، خرجنا لنسترد وجوهنا.**

ليسوا هم الذين اعتاد رؤيتهم، بل أشخاص آخرون، يُسيرهم تمرُّد لا حدود له، ونهم بالسطو على أي شيء. لم يكونوا هم أنفسهم الذين أضاعوا وجوههم في المرايا. وجد باختو نفسه في حي معتم، يحتج فيه أناس، وينهب فيه آخرون ما تقع عليه أيديهم، ويُضرمون النار في كل شيء. ثمة امرأة نحيلة كانت تراقب ما يجري، بوجه شاحب محبط، وبعينين تطفحان بحزن أكبر من قدرتها على تحمله. قرفص باختو قربها مصدومًا، وغير قادر على استيعاب ما يرى. شعر فعلًا أن المدينة عبرت دائرة الفناء، وأنه جاء متأخرًا، حتى إنه نسي أمر الناي، ونسي أمر المخطوط، وتلك الرحلة المضنية نحو جبل الجد الأول، حينها بكى بصوت مرتفع، فراحت المرأة تصرخ بنبرة باكية: **المئات ينتحرون كل يوم، وها نحن نعيش الكارثة.**

فجأة اصطفت عرباتٌ هبط منها عناصر شرطة ملثمون، وأخذوا يطلقون النار في كل الاتجاهات. تعالى الصراخ من الشارع، ومن نوافذ البيوت. سقط عدد من المحتجين، وممن سطوا على المتاجر والمرافق. غدا الطقس أكثر جنائزية مما كان عليه. كان باختو لا يزال جالسًا، مُطرقًا رأسه، حين مشت المرأة تتعثر خطواتها

في موطئ قدميها. أصابها الهذيان، وصرخت بأعلى صوتها: **يا رب، يا رب، يا رب.**

وقف باختو، وأخرج الناي من تحت قميصه، ووضعه على فمه. تلاشت كل الأصوات، وما عاد يسمع شيئًا، كأنه أصيب بالصمم، لكنه كان يرى فوهات البنادق تتجشأ نيرانًا قادمة من أجوافها، ويرى أجسادًا تتهاوى، ودخانًا يتعالى، وأفواهًا فاغرة لفرط الرعب، ووجوهًا يحتلها خوف كبير. أغمض عينيه، وسمح لهواء رئتيه أن يتسلل نحو جوف الناي، فأطلق المعزوفة، حينها فرت من صدره نحو الأفق المشوب بالزرقة طيورٌ بيضاء بين عيونها نقاط زرقاء مضيئة. بدأت المعزوفة هادئة، ترسم شكلًا لبذرة في حضن التراب، يهمي إليها الماء، يحتويها، يحنو عليها، ويمنحها روحه الأبدية.

توقف الذين كانوا يهربون بما سطوا عليه من أشياء، وأسقطوها من أيديهم. ارتخت وجوههم، واتسعت عيونهم، فاغرين أفواههم يشعرون بانصياع ساحر. جميع مَن في الحي أصابهم السكون: المحتجون، الشرطة، ومَن كانوا في بيوتهم. تغلغل السكون في كل شيء حتى أولئك الذين كانوا يقذفون الحجارة، منهم من سقط الحجر من قبضته، ومنهم من ارتخت يده بعد أن ألقى به في الهواء.

اشتد شجن الموسيقى، ترصّد ولادة ساقٍ غضّة، تشق دربها بتمهل. تعلو ويصبح حنينها صاخبًا والساق تخرج إلى النور، فتكبر، تكبر، وتصير شجرة. يتراجع صخبها الحنيني، تصغر الشجرة،

تُصبح نبتة صغيرة. تتراجع أكثر، والموسيقى تهبط شيئًا فشيئًا، وكأن مقصدها أن تلوذ بالبذرة.

حين فرغ باختو من معزوفته، كان كل من رأته عيناه في الحي ساكن، بلا حِراك، كأنهم في مشهد سينمائي، جامد، حتى من وقفوا إلى النوافذ، كانوا ساكنين أيضًا. لا صوت يأتي من الحي، سوى صوت طقطقة النار المشتعلة بالمتاجر والمرافق، وأصوات الأجهزة اللاسلكية تستفسر عما حدث. أصيب سكان الحي بالأثر الساحر لتلك المعزوفة، فاستحالوا إلى أناس وديعين، وجوههم هادئة، هادئة جدًّا، تجاوزت البهجة، والسكينة إلى ما هو أبهى من ذلك.

اختفى باختو في أزقة الحي السادس المعتمة، لئلا يُلقى القبض عليه، فيئول مصيرُ المدينة إلى الفناء. سلك طُرقًا فرعية، تمر خلال الحي السادس والسابع، ينوي الذهاب إلى الحي الثاني، حيث تسكن توليب، طُرقًا تخلو من الاحتجاجات، والفوضى التي تعج بها الشوارع الرئيسية. مرة كان يعبر تلك المسافة ركضًا رغم آلام ساقه، وصدره يضج باللهاث، وأخرى كان يمشي بخطوات مُتمهلة، وعيناه ترصدان كل الاتجاهات، لئلا يلفت الانتباه إليه.

كانت الفوضى في الحي السابع على أشدها، لا يختلف ما يحدث فيه عما جرى في الحي السادس. تمنَّى باختو لو أن بإمكانه أن يطلق المعزوفة في الحي السابع، لكن الجدَّ قال في مخطوطه، أن يعزف للناس جماعة، جماعة، ولمرة واحدة في اليوم فقط. في طريقه إلى المدينة عائدًا من الجبل، حاول باختو جاهدًا

أن يفهم المغزى من وراء ذلك، لكنه فشل، مع علمه أن المدينة باتت مريضة ليس بالوباء فقط، إنما بحمولة ثقيلة من الفردية. رغم خوفه، وكل ما تكبده من عناء في رحلته الجبلية، كان سعيدًا بمهمته كيف انطلقت من علاقته بقمامة المدينة، وها هو الآن يُخلصها من وبائها بالروح الموسيقية ذاتها.

في طريقه كان باختو يفكر في توليب، امرأة أحبها، لكنها تُبدي له جانبًا غامضًا، غير واضح، لا يتوافق مع تعلقها الشديد به. في داخله ثمة سعي خفيّ إلى أن يَظهر أمامها بصورة المخلص الذي سيُجنب المدينة الهلاك، إنها خطوة غريزية لنَيل الحب من جهة أخرى. مضى إليها رغم تعبه، واتساخ ملابسه، وتمزّقها، ورغم الجروح، وما مُني به من كدمات في الجبل، لكنه تنبه إلى أن الشرطة لا بد ستبحث عنه في الأماكن التي يرتادها، وعند الأشخاص الذين تربطه بهم علاقة.

كان في الطرف الشرقي للحي السابع حين لاذ بزاوية معتمة لجُدر أحد البيوت، وجلس مُحبطًا ليس فقط لأنه لم يتمكن من لقاء حبيبته، إنما أيضًا لفشله في العثور على مكان آمِن يلوذ فيه. خطر بباله أن يلجأ إلى نوَّار، لكنه تراجع عن ذلك، فلا بد أنهم عرفوا أنه كان يزوره باستمرار، فما كان أمامه إلا أن يختبئ في المسرح البلدي المهجور، فهو يقع في شارع معظم بناياته خالية، ونادرًا ما يرتاده أحد.

٣

كان أوديسان جالسًا إلى طاولة مكتبه المنزلي الواسع، الذي صنع أثاثه من خشب المهاجوني، تُضيء الشمسُ في ذلك الصباح جانبًا من المكان، ونورها يعبر النافذة المطلة على الحي الأول. لم ينتبه إلى الأفق الذي لم يكن صافيًا كما كان قبل هبة المرايا، بل تُعكر زرقته الأدخنة المتعالية. ولم ينتبه إلى أصوات الاحتجاجات والفوضى وهي تأتي من الشوارع القريبة من قصره المُحاط بسور مرتفع تتوسطه بوابة معدنية كبيرة، يقف عندها عدد من الحراس. كان ساهمًا فحسب، وقد بدت ملامح الشيخوخة أكثر وضوحًا هذه المرة في وجهه. هبطت خصلات شعره القليلة على خدّه الأيمن، تلك التي عادة ما يستخدم لأجلها مثبت الشعر لتستر صلعته. كان كمَن سقط من جبل، وأمسك بحافة صخرية، غير أن تراجع همته وهو مُعلق في الفراغ، جعله يستسلم للسقوط نحو الهاوية.

رنّ هاتفه النقال، كان المتصل في ذلك الصباح جوناثان بعد أن توارى لأيام إثر ما حدث له في ليلة الحقيقة، إذ ازدادت حالته النفسية سوءًا، إلا أن طبيبه الخاص بذل جهدًا كبيرًا في أن يُعيد إليه

تماسكه. حين أجاب أوديسان، أخبره جوناثان أن الناي ظهر ليلة البارحة، وأن هناك مَن أطلق في الحي السادس معزوفة، فتلاشت الفوضى، وعاد الناس يرون وجوههم في المرايا، بل حتى إنهم صاروا أكثر قربًا بعضهم من بعض، وكأنهم ليسوا أولئك الذين كانت مجرد كلمة تُشعل بينهم معارك لا تنتهي بسهولة.

لم يسأل أوديسان عمن عثر على الناي، ومع هذا قال له جوناثان إن كاميرات الشوارع استطاعت تحديد هويته، إنه شاب غجري، يعمل في تنظيف الشوارع من القمامة، يُدعى باختو، لكنه اختفى رغم البحث الدقيق لعناصر الشرطة. لم يكترث أوديسان لذلك الخبر، أنصت لجوناثان بأعصاب باردة، وأنهى المكالمة بعد أن فوّضه بدعوة أبناء الطائر الأسود لاجتماع طارئ. كان يفكر في ذلك التاريخ البعيد لأبناء الطائر الأسود، تفكير لا علاقة له بسُلطة الندم، إنما بتلك الدوافع البشرية التي جعلت تلك الجماعة تمتد منذ بداية هذه المدينة. كان يشغله الخواء الذي يستبيحه، وجدوى استمراره في الحياة، سَيل لا إرادي من الهواجس، تخلقها طبيعة الوباء المرَضية، وتلك المرات التي ما انفكت نُسخته الشبحية عن مطاردته وتقريعه، وتفريغه من أي أمل سوى الموت.

سار أوديسان بخطوات مترنحة نحو مرآة على الجدار المقابل لطاولته، نظر فيها وكأنه يستخدم ما تبقى لديه من أمل للعثور على وجهه، لكنه لم يجد سوى انعكاس الجدران والأثاث، انعكاس لأشياء صمّاء لم تُصب بذلك الوباء على حد تفكيره. سمع صوت

نسخته الشبحية تأتي من أرجاء الغرفة: **هيا، ماذا تنتظر؟ عليك أن تمضي نحو العدم.** مشى أوديسان بالخطوات المترنحة ذاتها نحو خزانته السرية. أخرج منها بيدين مرتعشتين علبة صغيرة، وأخذ ينظر إليها. من ورائه جاء صوت نسخته الشبحية من جديد، جاء هذه المرة حانيًا على غير العادة: **صدقني أنك تسلك الطريق الصحيح. مَن هم مثلك ما عادوا صالحين لهذه المرحلة، فاختيارك لهذا الموت الرحيم خلاص لك. دعنا نفكر بهدوء، إن كل تاريخ أبناء الطائر الأسود مبني على حالة مَرَضية باتت مستعصية جدًّا، فلماذا المكوث في محطةٍ ما عاد القطار يأتي إليها؟ في هذا الوباء فرصة للشفاء، لكنها ليست لك؛ لهذا امضِ أيها الرئيس نحو العدم.**

فتح أوديسان العلبة، ووضع في كفه قرصًا صغيرًا من السيانيد، سموم كثيرًا ما استخدمها لاغتيال عدد من خصومه. خطا نحو النافذة، ووقف هناك يحدق إلى الحي الأول، والفوضى تعمه. ثمة كتلة من الدخان صعدت إلى السماء، لفتت انتباهه، وأثارت فيه شعورًا يشبه لحظة الخلاص الهادئة. في تلك اللحظات ابتلع القرص، وراح يراقب كتلة الدخان كيف تتلاشى. ما هي إلا دقائق حتى أخذ نفسُه يضيق، وضغطه يهبط، وضربات قلبه تتسارع بشدة. تقيأ لأكثر من مرة، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وهو مُلقى على الأرض، بينما كتلة دخان أخرى تصعد إلى السماء، ثم تتلاشى، كأنها لم تكن.

* * *

لأول مرة يترأس جوناثان اجتماع أبناء الطائر الأسود. كان منتشيًا ومغمورًا بالغرور، يجلس في مكان الرئيس من غير أن يُبدي حزنًا على موته، بخلاف الآخرين، إذ سيطر عليهم شعوران، واحد جرّاء إقدام أوديسان على إنهاء حياته، والثاني قادم من خوفهم مما يمكن أن يفضي إليه الوباء. ومن دون أن يعوا وجدوا أنفسهم يتحدثون عن ذلك المصير الغريب. كان جوناثان صامتًا ينصت إليهم، ويتمثل الهدوء والروية والحكمة.

حين وجدهم قد استغرقوا بالشكوى، قال وهو يفتعل ابتسامة عريضة: **ألم تتساءلوا لماذا لست خائفًا مما سيفضي إليه هذا الوباء؟ خطورة هذا الوباء تكمن في الجانب اللين في قلوبكم. جانب لا يستطيع أن يتجاهل فكرة الخواء، وتلك المنطقة الفارغة التي تخلقت في دواخلكم، وتلك النسخة الشبحية الوهم. هذا الجانب هو الذي لا يجعلكم ترون الموت من زاوية مختلفة. إنكم تخشونه، ولا تعلمون أن هذه الخشية هي ضوؤه الذي يُنير دربه نحوكم. أعلم أن ما من واحد منا يقوى على أن يلغي جانب اللين في قلبه. دعونا نفكر بمنطق آخر، لنعتبر أننا ولجنا حياة ثانية، إنما بمواصفات جديدة، حياة علينا أن نعيشها، وإلا سنسقط.**

صوّب معظمهم إلى جوناثان نظرات باهتة لا معنى لها، نظرات مَرضية، حتى إن جوناثان نفسه بات على يقين أنهم لن يصمدوا كثيرًا. مع هذا أكمل حديثه: **كلكم تعرفون أن الغجري عثر على المخطوط، وبالتالي عثر على الناي. وتعرفون أننا منذ أن احتفظ**

أجدادنا بالمخطوط، ونحن نخشى هذا المصير. إن خسارتنا له تعني نهايتنا. مثلما نذر الناي لزمن قادم، نذر أجدادنا حرق هذا المخطوط في هذا الزمن، لكنه سُرق منا. صوّب جوناثان نظرة قاسية نحو العمدة، وقال بنبرة لا يخفى فيها التهديد: حين أطلق الغجري المعزوفة ليلة البارحة، زال من عقول الناس كل ما يمكن أن يجعل لوجودنا معنى. أفرجت المرايا عن وجوههم، وزالت الفوارق، وما عادوا أولئك الذين يمكن أن تعنيهم لا الجزرة ولا العصا، إنها النهاية يا سادة.

قال العمدة بصوت واهِن، متحشرج: الجنرال الجديد يبذل جهودًا قصوى في العثور على الغجري. صرخ جوناثان والغضب يلوح في عينيه: ما عاد يفيد هذا الحديث. فتشوا مخيم الغجر، احرقوه حتى، وإن لم تجدوا هذا الشاب اللعين، فابحثوا في كل بيوت المدينة، لم يتبقَّ لنا سوى هذا الخيار، فلا حرية أمام مصيرنا الذي سنسعى بكل قسوة إلى ألا يتحقق ما أشار له جدنا في مخطوطه.

في ذلك اليوم أُعلن عن سريان قانون الطوارئ في مدينة الجد الأول، كونها تمر بظرف استثنائي خطير.

* * *

ما جرى في الحي السادس صار حديث معظم الناس، حتى عند المحتجين، وقد وجّهوا تهمة لعمودية المدينة أن شفاء الحي السادس نتيجة لبيع لقاح سريع المفعول، لكنه باهظ الثمن. واحدة

من أقاويل تعاظمت سريعًا، لم يُذكر فيها أن عازفًا جاء في الليل، وأطلق معزوفة أعادت للناس وجوههم، وجعلت كل من في الحي على نحو غير معهود، فما عاد أحد منهم يسعى إلى إنهاء حياته، حتى رجال الشرطة الذين كانوا هناك، شُفُوا من الوباء. ازدادت نقمة سكان الأحياء الأخرى على عمودية المدينة، خرجوا إلى الشوارع، يدفعهم غضب عارم، يطالبون بأن تفعل العمودية ما فعلته للناس في الحي السادس. هكذا كانوا يعتقدون، لهذا خرج المسئول الإعلامي للعمودية، ونفى كل ما يقال، حتى إنه نفى شفاء الحي السادس من الوباء. قال إنها مجرد إشاعة. كانت توليب تراقب وجه ذلك المسئول، وترى كيف يُصدِّر كذبه ببراعة متقنة، وتتساءل في الآن نفسه: **كيف لم يتذكر أحد من سكان الحي السادس ما جرى، هل هو سرّ ذلك الناي، أم أن هناك أمرًا آخر؟**

منذ أن سمعت بأخبار الحي السادس، أدركت توليب أن باختو نجح في العثور على الناي، وأخذ ينفّذ ما قاله الجد الأول في مخطوطه، لكنها تيقنت من أن حياة باختو في خطر كبير، وأنهم لا بد يبحثون عنه. أصابها القلق، خاصة حين استعادت حادثة اغتيال الدكتور أدهم، الذي أشعل الاحتجاجات في شوارع المدينة.

رغم أنه من المستبعد أن يختبئ باختو عند نوّار، إلا أنها ولفرط ما استباحها القلق على باختو غادرت بيتها قبيل غروب الشمس، نحو الحي الثالث. كانت تتمسك باحتمال ضئيل في أن تجده هناك. لم تكن طريقها عبر الشوارع التي باتت تحكمها الفوضى

سهلة، إلا أنها دفعت مبلغًا مجزيًا لأحد السائقين ليصل بها إلى بيت نوَّار. في اليوم الذي خرج الناس فيه إلى الشوارع إثر اغتيال الدكتور أدهم، وقفت توليب حائرة أمام رغبتها في الخروج إلى الشارع، وبين مخاوفها القديمة، وحين تذكرت فقدانها لكامل عائلتها حملت الكاميرا، وانضمت إلى المحتجين في الشوارع. كانت تلتقط صورًا لأناس متعبين يطالبون باسترداد وجوههم، تصوّب عدسة الكاميرا نحوهم، لكنها ترى وجوه أفراد عائلتها في تلك الليلة التي لم تستطع ذاكرتها الخلاص منها. التقطت صورًا كثيرة، صورًا بعدد الكتب والمقالات والأبحاث التي قرأتها، تبحث فيها عن سر ما يحدث دومًا لمدينة الجد الأول.

في طريقها إلى الحي الثالث، كانت الشوارع تعج برجال الشرطة الذين يحاولون صد الاحتجاجات، وتكثر فيها نقاط التفتيش. دققوا في بطاقتها الشخصية، وسألوها عن وجهتها. اضطرت أن تكذب وتقول إنها ذاهبة إلى بيتها في الحي الثالث، دققوا في ملامحها، ثم سمحوا لها بالمرور. لم تكن المدينة هي المدينة ذاتها التي عرفتها توليب من قبل، بل معمل لفوضى متصاعدة، كأن الناس خرز في سبحة انقطع خيطها. كان مذياع السيارة يبث أخبارًا عن تزايد أعداد المنتحرين، أرقام أثارت في نفسها، ولأول مرة، خوفًا من المصير ذاته، وهذا ما صرّح به السائق أيضًا، إذ قال بصوت مشلول: **أخشى أن أُنهي حياتي في لحظة لا أريد لها أن تأتي**. أغلق المذياع، وراح يلعن كل شيء.

قرعت توليب باب شقة نوَّار لأكثر من مرة، ولم يُجبها أحد. توقعت أنه يفعل ذلك خشية على باختو، أو أن مكروهًا ما حدث له. تضاعف قلقها ولم تجد سبيلًا إلا أن تعود من حيث أتت. حين همت بالمغادرة فُتح الباب. كان نوَّار متعبًا إلى درجة الإعياء، لا يكاد حتى يقوى على الكلام. بدا جسده هزيلًا أكثر مما رأته عليه في آخر لقاء بمعية باختو. أسندت قامته، وسارت معه نحو مقعدين قرب نافذة عريضة هابطة تطل على جانب من الحي. ما إن نظرت في وجهه بعد أن جلسا، حتى أجهش بالبكاء: **حذرته من أن المجاهرة برأيه ستنهي حياته. ولم يمتثل لرأيي. لقد اغتالوا أدهم.** قال ذلك بصوت ممزق، ومضى يحدثها عن تفاصيل آخر لقاء به.

لم يكن نوَّار يعلم بأمر باختو. كل ما يعرفه أن المدينة تنتفض. اتضح لتوليب أن باختو ليس في بيته. أخبرته بحكايته منذ أن عثر على المخطوط، إلى ما سمعته عن الحي السادس. في البدء غزت وجهه أمارات ابتهاج، لكنها تراجعت سريعًا، تمامًا مثل أي بهجة مشروخة. عضّ على إصبعه: **سيقتلون هذا الغجري الجميل.** مشى نحو طاولة في غرفة نومه، وأخرج من جارورها كتابًا قديمًا، عنوانه: «ما وراء السواد»، حقيقة الشر. قال ويداه ترتعشان: **هذا أحد الكتب التي ظهرت قديمًا، واختفى بطريقة عجيبة. لقد ورثته عن أبي. كتاب يحكي عن أبناء الطائر الأسود، وعن توارثهم لمخطوط الجد الأول منذ القدم، وعن الزمن الذي سيحرقونه فيه. بعد ظهور الكتاب بأيام اختفى كاتبه إلى هذه اللحظة.** قرأ لها صفحات من ذلك

الكتاب، منها ما يتحدث عن التاريخ البعيد لتلك الجماعة. لقد شبّه الكاتب الأمر بقطبَي مغناطيس يجذبان ذرات المعدن إليهما. بدأ ذلك عشوائيًّا، بتلك الطريقة التي تقتضيها الطبيعة البشرية، إلى أن صاروا جماعة منظمة، يتوارثون معتقداتهم وطقوسهم ونواياهم، وكل طرائقهم في التفكير.

بينما أصوات الاحتجاجات والفوضى تأتي من شوارع الحي الثالث، كان نوَّار يتصفح الكتاب، وتوليب تقف إلى النافذة، تراقب المشهد ذاته الذي يحدث في معظم الأحياء، إذ يرشق المحتجون الشرطة بالحجارة، وترشقهم الشرطة بالغاز المسيل للدموع، وتفرقهم بخراطيم المياه، وتطارد آخرين ينهبون المتاجر والمرافق العامة.

ثمة قرع شديد على الباب أجفل توليب. كانوا عددًا من رجال الشرطة المدججين بالأسلحة. أخفى نوَّار الكتاب الذي كان بين يديه، وبقي في مكانه. لم تكن توليب تعلم أنهم يتبعونها إلى الحي الثالث، منذ أن تفحصوا بطاقتها الشخصية. لقد توقعوا أن يجدوا باختو معهما. فتشوا كل مرافق البيت، ولم يجدوه بطبيعة الحال. وجّه ضابط برتبة كبيرة حديثه لتوليب، حديثًا لهجته صارمة: **نعلم أنكما رفيقان، فلا بد تعلمين أين هو. إنه متهم بسرقة كبيرة.** قال نوَّار متهكمًا: **وماذا سرق؟** ارتبك الضابط، وبدا عاجزًا عن قول الحقيقة. قال وهو يتفرس وجه نوَّار: **نعلم أنه صديقك أيضًا، لذا سنوجه لكما تهمة التستر على سارق خطير. ستُرافقاننا إلى المركز**

الأمني. صرخ نوَّار وقد بدا أكثر شكيمة وقوة مما كان عليه قبل أن يقتحموا شقته: **باختو ليس هنا، إنه هناك مع الناي الذي حتمًا سيُخلص المدينة من قذاراتها، سيُعيد لكم وجوهكم، ليست فقط تلك التي سلبها منكم وباءٌ ما جاء إلا بسبب انحدار إنسانيتكم، إنما أيضًا سيُعيد وجوهكم الأولى.**

سادَ المكان صمت المذنبين أمام جوهر الحقيقة. كانوا ساهمين بنوَّار، وأيديهم تقبض على أسلحتهم، وعلى أجهزتهم اللاسلكية، منهم من يحدق إلى نوَّار وتوليب، ومنهم من يتلفتون تبعًا لحركة نُسخهم الشبحية. سار نوَّار نحو النافذة، وأشار إلى ما يلوح من الحي الثالث: **انظروا كيف تحترق المدينة. انظروا كيف يتناقص سكانها بسرعة مذهلة، إنهم ينتحرون، ولا بد أنكم ستلحقون بهم.** كان الضجيج وصدى الفوضى يأتيان من الحي، عندما بكى أحد عناصر الشرطة، وجلس آخر مستسلمًا. أطلق الضابط بوجوههم صرخة غاضبة: **نحن محايدون فيما يقول هذا العجوز.** قال نوَّار وهو يرسم على وجهه ابتسامة تنم عن غضب مكبوت: **أنتم لستم محايدين، أنتم منحازون لأسيادكم، أبناء الطائر الأسود، ولا تعلمون الحقيقة.**

أمر الضابط عناصر الشرطة أن يُلقوا القبض على توليب ونوَّار الذي قال ضاحكًا: **أعلم أن ديمقراطيتكم مجرد أمر مرتبط بحرية الحركة، لا حرية التفكير. وأعلم أنكم لن تفهموا ما أقول.** تقدم شرطي نحو نوَّار، يحاول وضع القيد في يده، فانقضت عليه توليب،

تُوسعه ضربًا وهي تصرخ: **هذا ليس من حقكم.** انقضّ عليها عناصر آخرون، وأوغلوا في ضربها. راح نوَّار بعكازه، وبردة فعل جسدية مرتعشة، يحاول دفعهم عنها.

فجأة سمعوا المعزوفة ذاتها التي أطلقت في الحي السادس. توقف صدى ضجيج الحي الثالث. تراجع الشرطة عن نوَّار وتوليب، وارتخى الآخرون، فسقطت أسلحتهم من أيديهم. اكتست وجوههم بوهج البراءة والوداعة والنور، ورأوا طيورًا زرقاء بين عيونها نقاط زرقاء تفر من صدورهم، نحو أفق صافٍ مشوب بالزرقة، تمامًا مثلما رأى سكان الحي الثالث، الذين كانوا ساهمين بالفراغ المشوب بالزرقة، وبتلك الطيور التي تحلق نحو مكان بعيد يخلو من الوجع.

٤

في صبيحة اليوم التالي لتعافي الحي الثالث من الوباء، توجهت عربات تحمل أعدادًا كبيرة من عناصر الشرطة إلى مخيم الغجر. كان صباح المخيم هادئًا، وسماؤه صافية ورائقة. الأطفال يلعبون حول الخيام، وقرب البيوت، أما الكبار كعادة الغجر، فكانوا يلتفّون حول النار، يدخنون ويشربون الشاي، ويتبادلون أحاديث عابرة، واستجرارًا لهموم لا تنتهي، بينما النسوة يوضبن شئون بيوتهن اليومية، مرة وهنَّ يطلقن نكاتًا، وأخرى وهن يُبدين تبرمهن وغيظهن مما عليه الحال. تتقاطع صيحات بعض الأطفال، بصيحات أمهاتهم، وبصوت قرقرة الدجاج وصياح الديكة.

كان شاندور مستلقيًا في أرجوحته مخمورًا، ينهشه الحزن على غياب باختو، بينما بدور تسند ظهرها لبرميل الماء، تتفرس الفراغ، بوجه ذابل وعينين محمرتين لفرط البكاء، كانت حزينة إلى الحد الذي سقطت معه طريحة الفراش منذ أن اختفى باختو، ذلك الصباح الذي راح بعده شاندور يبحث عنه في مخيم الغجر،

وفي أطراف المدينة، وكان سيتوغل فيها مدفوعًا بأمل العثور عليه، إلا أن الشرطة طردته، فعاد محبطًا وناقمًا من حيث أتى.

رأى شاندور سحابة غبار خلّفتها عربات الشرطة وهي تسعى نحو المخيم عبر طريق ترابية، تمر بين أكوام القمامة، فوضع يده أعلى حاجبيه، يستطلع ما يحدث بقلب مقبوض. جاء الكثير من سكان المخيم يتبينون سر القافلة التي تُيمّم شطرهم. حين وصلت أول عربة، وهبط منها ضابط تبعه عناصر شرطة مُدججين بالأسلحة الأوتوماتيكية، كان معظم الغجر قد استحالوا إلى كتلة بشرية واحدة قرب خيمة شاندور. تختلط تساؤلاتهم المسموعة بعضها ببعض، وتتقاطع بأصوات الأطفال الخائفة. كان شاندور بوجه كالح، وشعر كث، وعينين تهزمهما الثمالة والحزن، حين مشى ضابط نحوه، يضع يديه حول خصره، ويحدق إليه غاضبًا. قال الضابط، وقد وقف خلفه عدد من عناصر الشرطة باحتراس على أسلحتهم: **نريد باختو.**

في تلك اللحظة، وقد انداح الصمت في المكان، إلا من صوت العربات التي بدت كوحوش تُصوب عيونها نحو الفريسة، صرخت بدور مفزوعة: **وَلَدِي**. صُدم شاندور مما قاله الضابط، الذي كان ينتظر الإجابة على طلبه الحازم. قال وعيناه تضيقان غضبًا وتساؤلًا: **باختو؟ لقد اختفى منذ أكثر من أسبوعين.** هرعت بدور إلى الضابط وأمسكت بذراعيه تهزه بقوة، وتصرخ: **وما الذي يمكن أن يفعله شاب ليس له مهمة سوى أن يكنس شوارع مدينتكم**

القذرة، أين ولدي؟ رفسها الضابط بقدمه، فسقطت أرضًا. انقض شاندور على الضابط، لكن شرطيًّا عاجله بضربة من كعب البندقية على رأسه، فسقط على ظهره والدم يفر من جبينه بغزارة. تعالى صوت الغجر يستنكرون ما يحدث. كان استنكارًا فحسب، أمام ذلك العدد الكبير من الشرطة، والأسلحة المصوبة أفواهها نحو صدورهم. أشار الضابط إلى عناصر الشرطة بأن يشرعوا بمهمتهم، فأسرعوا نحو الخيمة، يبعثرون كل شيء فيها. كانوا يفتشون عن مخطوط الجد الأول، وعن الناي، وعن باختو.

تضاعف صوت الغجر، وأخذوا يتململون وهم يرون بدور تئن موجوعة وشاندور غارقًا في دمه، وكل ما في الخيمة يصبح عرضة للعراء، إلا أن شرطيًّا أطلق عدة رصاصات في الهواء، فتراجعوا، مكتفين بهمهماتهم، وتساؤلاتهم عما يجري. لم يجد عناصر الشرطة ما يبحثون عنه. قرفص الضابط قرب شاندور، وقال له بصوت منخفض فيه نبرة عالية من التهديد: **أنت تعرف أيها الحقير عما نبحث؛ لذا عليك أن تتعاون معنا، وإلا**... أسند شاندور جذعه، ونظر في عينَي الضابط: **كل ما أعرفه أنكم عاديتمونا منذ الأزل، فليس غريبًا ما تفعلونه الآن بنا**. كانت بدور تنظر بعينين مرعوبتين إلى ضابط بَدين، وهي تزحف على ظهرها إلى الوراء، مستعينة بيديها. علقَ جسدها النحيل بين قدميه الغليظتين من دون أن تقوى على فعل شيء سوى أن تحدق إليه من الأسفل بتوسل خفي. رفع الضابط قدمه وداس على صدرها، ثم ضحك وهو يلقي نظرة

متعالية حوله: **أما أنتِ أيتها الجميلة، فلا بد أنكِ تعرفين، فالأمهات سِر أولادهن.** لم تستطع بدور أن تقول شيئًا، كانت ترفس تحت قدمه الثقيلة، غارقة في ذهولها، وانقطاع نفَسها، وعاجزة في تلك اللحظات التي يصعب فيها التفكير عن فهم ما يجري.

ثمة شاب بين الذين حالت البنادق بينهم وبين مَن يحملونها كان يكزّ على أسنانه، ويقبض الهواء بيديه بشدة، وفي شرايينه يتدفق غضب عارم يكاد يفجر رأسه. انحنى الشاب، والتقط حجرًا، ثم انقض دونما أي خوف على الضابط. رفع يده في الهواء، وقبل أن يُلقي الحجر نحوه، انطلقت رصاصة من إحدى البنادق، استقرت في صدره، فسقط، كأنه قميص أفلتته الريح من حبل الغسيل. تعالى صراخ الغجر، وتكاثرت صيحاتهم الغاضبة، وتأهبوا للهجوم على الشرطة، لكن وابلًا من الرصاص قذفته البنادق في الهواء، جعلهم يتراجعون عن ذلك. قال الضابط عبر مُكبر صوت إن عليهم الالتزام بأوامر الشرطة. وإنهم أتوا ليفتشوا الخيام، ثم يغادروا، وإن من يتصرف بخلاف ذلك، فإن مصيره الموت.

تحركت عربات الشرطة، وفق خطة مُعدة مسبقًا، إلى بقية خيام وبيوت مخيم الغجر، يفتشونها بقسوة مفرطة، وهم يضربون ساكنيها، ويُوجهون لهم الشتائم والإهانات. سرعان ما عُرف الخبر في كل أنحاء المخيم، إذ سمعوا بمقتل الشاب، وبما تعرض له شاندور وزوجته. ما إن انتقل رجال الشرطة لتفتيش الجهة الشرقية من المخيم حتى وجدوا عددًا من الشبان بانتظارهم. واجهوهم

بالحجارة وبالمقاليع، فمُني أحد عناصر الشرطة بإصابة بالغة في رأسه، فقدَ الوعي جرّاءها، وتلقى شرطي آخر طعنة مباغتة بخنجر من أحد الشباب. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما اجتمع معظم الغجر، يحملون الخناجر والسيوف والأدوات الحادة والحجارة، وانقضوا على الشرطة. استحوذ شاب على بندقية أفلتت من يد شرطي أصيب بطعنة في ظهره وقتلَ أربعة من عناصر الشرطة. حينها أطلقت البنادق زخات من الرصاص، فسقط العشرات. انتقامًا لمن قتلوا، حرقت الشرطة كثيرًا من الخيام، وضربوا كل من وجدوه في طريقهم، فكانت المذبحة؛ مذبحة مخيم الغجر.

في ذلك الصباح، ثمة شرطي، بينما العربات تغادر مخيم الغجر، كان يبكي، يبكي بحرقة، لقسوة ما حدث، ولفداحة ما ارتُكب على نحو متوحش بحق أناس لا مطامع لهم سوى العيش. كان يبكي والدخان يتصاعد من الخيام والبيوت، بينما النار تلتهمها بشراهة مفرطة. يشعر بخسة وبشاعةٍ، ورغبة جامحة في الموت كانت نسخته الشبحية تُثيرها فيه بشراهة. في ذلك الصباح، والعربات تغادر المخيم، بعد أن نفذت الشرطة أمر الاقتحام، صوَّب الشرطي بندقيته نحو حلقه، وضغط على الزناد. وفي المساء، مساء يوم المذبحة، فعل مثله عناصر آخرون، لم يستطيعوا مقاومة نسخهم الشبحية.

عند عصاري ذلك اليوم دفن الغجر ثلاثين من أبنائهم، في قبر واحد، أنفقوا ساعات يحفرونه، امتثالًا لنصيحة شاندور، الذي كان جالسًا على كومة التراب يدخن، ويراقب مراسيم الدفن بصمت،

يتوارى خلفه حزن وغضب طافحَان. لم يكترث أحد بما حدث في مخيم الغجر، سوى بعض الصحفيين، وبعض ممثلي المنظمات الإنسانية، لكن ما إن رآهم شاندور حتى أمر بأن يغادروا. في المساء دعا شاندور عددًا ممن يثق بهم للقاء بعيدًا عن الأنظار. ابتعدوا عن المخيم، وجلسوا في العتمة. **أما آنَ الأوان أن تفهم هذه المدينة اللعينة أننا بشر مثلهم، ولسنا قطيع بغال؟** بقي الرجال، الذين شكّلوا نصف دائرة، صامتين ينتظرون ما سوف يُفضي إليه تساؤل شاندور. **شعرتُ اليوم أن واحدًا مثلي كان يجب أن يموت منذ أن عرف أنه غجري، لكن حين رأيت تلك الحفرة التي ابتلعت ثلاثين من أبنائنا أدركت أننا أموات في الأصل.** قال شاندور ذلك ثم شهق بالبكاء، وراح يتساءل بمرارة: **لماذا لم نفكر ولو لمرة واحدة أن نحتجّ على الأقل؟! إن أعدادنا كبيرة، كبيرة جدًّا!**

في تلك الليلة قرر شاندور ولأول مرة أن ينتقم الغجر لأنفسهم، رغم أنه لا يعرف كيف، ومتى يفعل ذلك.

٥

لم يُصدق أحد ممن لم يتعافوا من الوباء ما قاله المسئول الإعلامي للعمودية، بل انتشرت أخبارٌ عبر وسائل التواصل الاجتماعي عن الحي الثالث، مفادها أن عمودية المدينة قدمت لقاحًا خلَّص سكانه من الوباء برمشة عين. قيل إن من ذهبوا إلى الحيّين السادس والثالث وجدوا الناس على غير ما عهدوهم، فلم يستطيعوا فهم طبيعتهم الجديدة، ولماذا صاروا على هذا النحو من الهدوء والطمأنينة والبهجة. قالوا إن عمودية المدينة حقنت الناس بما يخدرهم، ويجعلهم غير مكترثين بأي شيء. تعاظمت آثار تلك الأخبار، خاصة حين تطرّق الإعلام لمذبحة مخيم الغجر.

في ذلك المساء الذي عزف فيه باختو في الحي الثالث، رأته توليب وهي تقف أمام الشرطة في بيت نوَّار. كان الحي يذهب إلى مزيد من الخراب. اختفت الاحتجاجات، وأتت بدلًا منها الفوضى. تلاشى الهتاف وجاء محله الصراخ. كان الحي يحترق، وكثير من سكانه يُراودون أنفسهم على الموت. وفي غمرة ذلك المشهد الموجِع خرج باختو مُلثمًا من شارع فرعي مُعتم. شق طريقه بين الحشود،

والإطارات المشتعلة، والحجارة، والهاربين بالغنائم، واعتلى نصبًا لنسر على أهبة التحليق، شُيِّد في منتصف ميدان عام. تسلق النصب، ثم وقف ينظر إلى الحي في كل جهاته. كانت نظرة فيها كثير من الزهو، زهو من كان يكنس شوارع المدينة وهو يرقص على أنغام الموسيقى. وها هو الآن يكنس قمامتها التي لم تكن أماراتها الأولى بادية للعيان. استغرق في حالة انفصال كلي، وما عاد له إلا أن يرى أناسًا يهربون بما جنوا، ويرى آخرين يُضرمون النيران بما تقع عليه أيديهم، ويرى أفواهًا فاغرة، بالصراخ والشتائم والوجع.

حين أطلق المعزوفة اجتاحت روحه لذة لم تعرفها مدينة الجد الأول. انتشاء مستمر. رعشة آسرة. خفة غير معهودة. سَكينة غامرة. وطيور بيضاء بين عيونها نقاط زرقاء مضيئة، تفر من صدره، وتصفق بأجنحتها تسعى إلى البعيد، بينما فضاء الحي مشوب بالزُرقة. ومثلما غرق باختو بما فعلته المعزوفة غرقت توليب، وهي ترى ما يحدث عبر نافذة بيت نوَّار، بتلك الرحلة الاستثنائية نحو اللذة. لم تُحجب عنه، مثلما حُجب عنه من وقعوا تحت سطوة المعزوفة، وبالتالي لم يتحدث أحد منهم في تلك الليلة، أو في اليوم التالي عن عازف اعتلى النصب وأخمد الحرائق. إنه الحب حين يوسع المدى، ويخلق من الرماد حياة جديدة.

في صباح اليوم الذي أعقب ليلة شفاء الحي الثالث من الوباء، أقدمت زوجة عمدة المدينة على الانتحار، وجدها العمدة غارقة في دمائها في الحمّام، بعد أن بترت وريدها، وكتبت بدمها

على سطح مرآة الحمّام: **أين وجهي؟** في تلك اللحظة أصيب العمدة بصراخ هستيري، هشّم مرآة الحمّام، ومرآة غرفة النوم، ومرآة صالة الجلوس، والهاتف النقال، وأي شيء يمكن أن يعكس صورته. هرعت مدبرة المنزل إلى الطابق العلوي حين سمعت صوته، الذي كان يشبه الخوار، وما إن رأت ما حدث حتى استنجدت بالحراس على الفور، فأحكموا قبضتهم عليه، وحملوه إلى السرير، وهو في حالة قصوى من الهذيان. طلب له مدير مكتبه طبيبه الخاص. حقنه بمادة مهدئة، فنام. تكتمت عمودية المدينة على حادثة انتحار زوجة العمدة، إلا أن الخبر تسرب إلى الصحافة من حارس كان يعاني آثار الوباء القاسية، حتى إنه زودهم بتسجيل قصير للعمدة وهو يهشم المرايا.

في طريقه إلى قصر العمودية وقد علم جوناثان بالخبر، شاهد الفيديو الذي صار الأبرز في الصحافة، وفي مواقع السوشال ميديا. لأول مرة يشعر جوناثان أن مدينة الجد الأول حقًّا على مقربة من الانهيار. شعر بارتباك كبير، مع هذا ضبط نفسه، وراح يفتش عن طريقة يمكن فيها القبض على باختو، وإخماد الفوضى المتصاعدة التي تعم المدينة، خاصة بعد مذبحة مخيم الغجر. أيقن جوناثان أن ما جرى في المخيم خطأ فادح سيزيد الحال سوءًا، لكنه وجد أن العنف هو الحل الأمثل في الأيام اللاحقة.

كان العمدة قد استفاق من نومته القصيرة حين دخل عليه جوناثان. جلس على كرسي قبالة السرير، يعقد يديه على صدره، وينظر إليه. كان وجه العمدة مثل قطيفة جلدية مضى عليها وقت

تحت الشمس، فانكمشت. عيناه فارغتان من أي ملمح، وشفتاه مرتخيتان، لقد بدا على حافة الانهيار. لم يفكر جوناثان في وباء أخذ المئات يوميًّا ينهون حياتهم بسببه، بل كان يشغله مصير أبناء الطائر الأسود، إذ لم يستطع الجنرال للآن العثور على ذلك الغجري الذي وجد المخطوط، وها هو يطوف بالمدينة، ويطلق معزوفة في حَيَّيْن باتا خارج سيطرة تلك الجماعة. أكثر ما كان يثير فيه الرعب هو أن يطلق باختو معزوفته في كل أحياء المدينة. لهذا رأى في انهيار العمدة استسلامًا.

صرخ جوناثان في مدير مكتب العمدة، وطلب منه أن يُحمل العمدة إلى الحمّام، وأن يلقوا به تحت الماء البارد. حين فعلوا ذلك استفاق من ذلك الخدر والدوار اللذَين كانا يلمّان به. بدلوا له ملابسه، واقتادوه إلى مكتبه. أخبره جوناثان أنه يُحضّر حملتين أمنيتين، غير مسبوقتين، واحدة للعثور على الغجري، والثانية لإيقاف موجتَي العنف والاحتجاجات، فوافق العمدة وأصدر أمرًا بذلك.

حين غادر جوناثان، امتثل العمدة لما فيه من ضعف وهشاشة. كان حزينًا وخائفًا، حزينًا على زوجته التي منذ أن ابتُليت المدينة بالوباء وهي تنقب في المرآة عن وجهها، ولم تعثر عليه. وخائفًا من أن تغلبه الرغبة في الموت. منذ أن نشأت مدينة الجد الأول والناس يخافون الموت حتى لو زعموا عكس ذلك. لكن هذا الوباء يُزينه الآن لهم، ويُسقط كل احتمالات الحياة التي يجب أن تُعاش

بكامل تفاصيلها. لا يريد العمدة موتًا على هذه الشاكلة، غير أنه يخشى خسارة نفسه أمام تلك الرغبة التي تثيرها فيه نسخته الشبحية الشامتة به. في ذلك الصباح أيقن أنه هُزم أمام رغبات كثيرة: الرغبة في الثراء، وفي السلطة، وفي مضاجعة أكبر عدد من النساء، والرغبة فيما هو أبعد من الحرية. والآن يكابد الرغبة في الموت، ولا يريد الهزيمة أمامها.

بعد أن وارى جثمان زوجته التراب، طلب مدير مكتبه، وأخبره عن رغبته في لقاء المؤمن، رجل دين حيَّده منذ تسلُّمه منصبه عُمدةً للمدينة، واكتفى برجال دين آخرين وافقوا هواه. عند المساء جاء المؤمن. رأى العمدة أن يستقبله في مكتبه في القصر العمودي. جلس على كرسي قريب منه، ينظر إليه، وفي وجهه أمارات توسل ورجاء. اعتقد المؤمن أن ذلك الوهن الذي بدا على العمدة حزن على زوجته، إلا أنه وجد أن الخوف من الوباء يستبيحه بشراسة.

لم يتبقَّ إلا حلول السماء أيها المؤمن. ألقى المؤمن نظرة صافية إلى الفراغ، وقال بصوت هادئ: **كل شيء مرهون بحلول السماء.** اقترب العمدة منه أكثر، كأنه يهرب من كلاب ستنهش ظهره: **إننا نذهب إلى الهاوية.** قال المؤمن وهو ينظر في عينَي العمدة، وطبقة من الدمع تغلف بؤبؤيه الزرقاوين: **منذ زمن وهذه المدينة تذهب في طريقها إلى الهاوية. تناحرت أحياء، وقُتل الناس على ألوانهم ومعتقداتهم. سطا البعض على قوت البعض الآخر. صاروا أشياء،**

بل حتى أرقامًا. تبدلوا، إلى أن باتوا على نحو غير الذي كانوا عليه حين جاء جدنا إلى هذه البقعة وعمّرها. أنت تعرف جانبًا من أسباب ما حدث، لكنهم في الجانب الآخر مستعدون غريزيًّا للشر، فقلوبنا شقان، واحد أسود، وآخر له حصته من بياض النوايا. قال العمدة ونبرة الاستجداء تفوح من صوته: لماذا هذا الوباء بالذات؟

أرخى المؤمن جسده، وراح ينظر إلى نبتة قُرب المقعد الذي يجلس عليه العمدة: كلنا ضحايا هذا الوباء، وضحايا نُسخنا الشبحية. حين ضعفت صِلتنا بالله، بخلت علينا مرايانا. ألم ترَ ذلك؟ صمت المؤمن، بينما بقي العمدة ساهمًا به. كل ما تراه حولك، وفيك، بداية للبياض. لم يفهم العمدة تلك العبارة التي قالها المؤمن وغادر. عن أي بياض يتحدث؟! هل هو البياض الذي يعقب السواد، أم بياض الموت؟

٦

مكتبة
t.me/soramnqraa

في اليوم الثالث لعودته من الجبل، كان باختو ينتظر، بصبر وقلق، حلول المساء، ليعزف في الحي السابع. خطرَ بباله أثناء النهار، وهو يختبئ في المسرح البلدي المهجور، أن يذهب إلى مخيم الغجر، فلا بد أن القلق يأكل قلب أمه بقسوة الوحوش الضارية، لكن مهمته لا تحتمل أدنى درجات المغامرة. رغب أن يذهب متخفيًا إلى الحي الثاني. إنه يشتاق لتوليب على نحو جعله يُفاضل بين المغامرة بلقاء أمه، وبلقائها. أحس بأنانيته تغلبه، مع هذا انتقل من مكانه المعتم في مدرَّج المسرح البلدي، الذي يكسو مقاعده الغبار، وتجتاحه الرطوبة، إلى طرف فيه تُبدد عتمته خيوط شمس شحيحة. رسم على الأرض المتربة بإصبعه، مسارًا آمِنًا للوصول إلى الحي الثاني. لم يكترث باختو بطريق العودة، كان يرى في عقله الباطن حضنها آخِر الملاذات الآمِنة، وحين تأنّى بما سيقدم عليه، وجد أنه يخاطر بحياة المدينة بأكملها، فأقلع عن تلك الفكرة.

في ذلك المساء انطلقت أعداد كبيرة من الشرطة في أحياء المدينة، مدججين بالهراوات، وبالأسلحة، وقنابل الغاز. يرتدون

الخوذ، والستر الواقية، ويحملون واقيات ضد طعنات السكاكين والأدوات الحادة، مأمورين باللجوء إلى أقصى درجات العنف لقمع المحتجين، ومُثيري الفوضى، إن وجدوا أنهم غير قادرين على تنفيذ مهمتهم. قبل أن ينطلقوا، احتشدوا في ساحة واسعة لقيادة الشرطة، وألقى الجنرال الجديد عليهم خطابًا ناريًّا فحواه ضرورة إنقاذ المدينة من الانهيار. كان يعرف أن الكثير منهم يُقاسون وساوس الوباء، ونسخهم الشبحية، وأن هناك عددًا منهم أقدم على الانتحار، خاصة بعد مذبحة مخيم الغجر. قال لهم إن هناك لقاحًا سيُخلصهم مما يعانون.

لقد كذب الجنرال عليهم، وعلى نفسه، إذ إنه كان يقاسي ذلك الخلل الوجداني الذي خلفه الوباء، وما يدفع إليه من ميول انتحارية غريبة. لكن أوامر العمودية باتخاذ القسوة والعنف سبيلًا لقمع الاحتجاجات والفوضى كانت حاسمة، ولا مجال للتهاون فيها. أراد أن تتراجع الفوضى ليحافظ على منصبه الجديد.

توقفت عربات الشرطة في الحي السابع، هبط منها العناصر، وشكّلوا حاجزًا بشريًّا بوجه المحتجين ومثيري الفوضى. لكن الأمر ليس كما خُطط له، إذ قذفهم المحتجون بالحجارة، وبزجاجات المولوتوف. اشتعلت النار بعدد من عناصر الشرطة، فاستخدموا بنادقهم الأوتوماتيكية، حينها سقط عدد منهم، وجُرح الكثير. اشتبك الطرفان، فاستحالت محاولة قمع الاحتجاجات إلى معركة ضارية، خاصة عندما اختَطف عدد من المحتجين بنادق من عناصر الشرطة، وأطلقوا النار بلا هوادة، فتراجع المحتجون أمام ما شهدوه

سن قسوة مفرطة. أُلقيَ القبض على الكثير منهم، أما الآخرون فقد هربوا، ليبقى عناصر الشرطة في الشوارع المترعة بالحجارة، والإطارات المشتعلة، وجثث الذين قُتلوا.

قمعت الشرطة احتجاجات الأحياء الأخرى، وتراجع مثيرو الفوضى. خلت الشوارع إلا من التواجد الأمني، بعد أن قُتل ما يفوق المائة شخص، واعتُقل المئات. في تلك الأثناء كان الحي الثالث ينعم بالهدوء، إلا من صدى رشقات الرصاص القادمة من الأحياء الأخرى. كان باختو يتجهز للخروج نحو الحي السابع، ومع تصاعد صدى رشقات الرصاص تملّكته العجلة، لقد تخيل ما يمكن أن يحدث، ستقع الكارثة. خبّأ الناي تحت ملابسه، وربط اللثام على وجهه، وقفز من نافذة المسرح نحو زقاق مُعتم أخذه إلى الشارع الذي يخلو من المارة والسيارات. لكنه ما إن تجاوز الزقاق، حتى بُوغت بعربة من عربات الشرطة لمحه أحد عناصرها تحت ضوئها الساطع. ارتبك باختو وعاد من حيث أتى، فألقوا القبض عليه وهو يحاول الهرب إلى المسرح البلدي. كانت العربة قد تعطلت قبالة المسرح، وبقي فيها ثلاثة من عناصر الشرطة وضابط بانتظار أن يأتي من يصلح خللها. حين رأى الضابط باختو لم يعلم أنه المطلوب رقم واحد في مدينة الجد الأول، اعتقد أنه أحد المحتجين، لكن حين أزالوا اللثام عن وجهه عرفه، لقد زودتهم قيادة الشرطة بصورة له منذ أن سجلت كاميرات الشوارع ما حدث في الحي الثالث.

في تلك الأثناء ثمة صحفي جاء من الحي الأول، كان يرصد ما يجري عن قُرب، ولم ينتبه له عناصر الشرطة. وثّق ما حدث

بفيديو، إلى أن أتت سيارة شرطة، وحملوا باختو مقيدًا، ثم غادرت مسرعة.

في ذلك المساء تحفّظت الشرطة على باختو في المركز الأمني، ثم جاء رجال ملثمون، تحدثوا مع مسئول المركز، أودعوا الناي صندوقًا، وغادروا مصطحبين باختو إلى المقر الاستخباراتي. حين أزال أحدهم الغطاء عن عينيه، وخرج، وجد باختو نفسه مقيدًا، يجلس إلى طاولة، في غرفة واسعة، جدرانها سوداء، وضوؤها شحيح وشاحب. بقي على تلك الحال لساعات. في أول الأمر فكر في المعزوفة الثانية التي كان عليه أن يطلقها. لامَ نفسه كثيرًا، وشعر بأن المدينة ستسقط في الهاوية حين ارتبك في اللحظة التي كُشف فيها أمره.

بعد مُضي وقت استباح التوتر أعصابه. حدث ذلك شيئًا فشيئًا، إلى أن ضاقت أنفاسه، وشعر بجدران الغرفة تكاد تتهاوى عليه. أخذ جسده يتعرق، ونبضات قلبه تتسارع، ونفد صبره، فصرخ بأعلى صوته: **أين أنا؟** وحين لم يأتِه جواب، نادى بغضب: **أين أنتم؟** بعد دقائق تحدث إليه أحدهم عبر مُكبر صوت مثبت في سقف الغرفة: **نريدك أن تخبرنا بكل التفاصيل ابتداء بالمخطوط، وانتهاء بعثورك على الناي.** لم يقل شيئًا، غير أن الصمت الحاد، وذلك الشعور الموجع بالوحشة، والإحساس بانحسار الهواء، دفعه ذلك إلى أن ينفذ ما طُلب منه. أخبرهم بكل ما جرى إلا مكان المخطوط. كان المتحدث جوناثان، إذ قال بنبرة حاسمة: **لن تخرج من هنا إلا إذا دللتنا على مكان المخطوط.** لم يُجب باختو بشيء. كرر جوناثان عليه ما قيل، وعندما لم يجد إجابة، قدم له عدة

عروض، إحداها أن يعطيهم المخطوط، ويتركوه لشأنه. لكن باختو بقي مُتمسكًا بفرصته الأخيرة، رافضًا ما يريد، لأنه لو فعل ذلك فسيُقتل ويسوء حال المدينة. تعرض باختو لكل أشكال التعذيب إلى أن فقدَ وعيه لمرات، مع ذلك لم يَبُح بشيء.

في ذلك اليوم انتهت هبّة المرايا، مات أناس، وجُرح كثيرون. هرب الذين استوطنوا الشوارع لأيام، إلى بيوتهم، واعتُقل آخرون. عادوا بلا شيء إلى مراياهم الفارغة، وإلى خوفهم من الوباء، ومن وحش الانتحار، وإلى تساؤلاتهم العتيقة. كان العنف الذي انتهجه عناصر الشرطة أقوى مما حلم به المحتجون، وأقوى من حاجة الذين نهبوا المتاجر والمحال، ومن غضب مَن أضرموا النيران بكل شيء، ومن صراخ الذين اتهموا أبناء الطائر الأسود بضياع وجوههم. كان العنف أقوى من كل تلك السنين التي قيل فيها إن المدينة ذاهبة إلى الحرية.

في الصباح تصدّر الفيديو الذي سجّله الصحفي لعناصر الشرطة وهم يقبضون على باختو، عناوين الأخبار. عرف الناس سر تعافي الحيَّين السادس والثالث، لكن الخبر لم يبقَ على ما هو عليه، إذ قيل إن مَن فعل ذلك ساحر مُتمرس، له قدرة خارقة. وقيل أيضًا إن ذلك الغجري شاب مبارك، كان بيننا يكنس الشوارع، ولم ننتبه إلى بركاته. مع هذا فإن كثيرين تساءلوا: **كيف لناي أن يشفي الناس من وباء لا يمكن مكافحته إلا بالعلم الذي لولاه لما كان لمدينة الجد الأول أن تستمر في بقائها؟**

الفصل الرابع

«إن قلوبكم نفس ناطقة صادقة، مع هذا تميل إلى الشمال مَرة، وأخرى تميل إلى اليمين، فاحكموها، لئلا يختل فتختلوا بما لا تُحمد عقباه، فالشر أسود، والخير في منتهى البياض، نزعتان لن تفارقاكما ما دمتم».

مخطوط الجد الأول

١

رغم أنها لم تزُره من قبل، قررت توليب أن تنتقل للعيش في مخيم الغجر. لم تكن تعرف كيف سيحدث هذا، لكنها على يقين من أنها ستكون سعيدة، ليس فقط حين تنجح في مغادرة المدينة التي باتت مثل حجر على صدرها، بل أيضًا حين تعيش في مكان يخص رجلًا في حضوره كانت كمَن يمشي بلا ترنح على حبل بين بنايتين شاهقتين. وفي غيابه يداهمها الدُّوار. حين تعرفت بباختو، قرأت كثيرًا عن الغجر، وشاهدت عددًا من البرامج، والتسجيلات المصورة عنهم. لم تكن تعي أنها تفعل ذلك انطلاقًا من رغبة خفية بمعرفة كل شيء عنه. لم تكن تعي أنها تحبه، اعتقدت أنه مجرد شاب أضفَتْ صحبته عليها شعورًا بالتوازن لا غير. حين التقيا حدّثها عن عائلته وعن المخيم، وكلما اكتفى بما قاله، دفعته للإسهاب في التفاصيل، سعيًا إلى اكتمال الصورة.

تصدّر خبر اعتقال باختو بعض وسائل الإعلام، وصفحات وسائل التواصل الاجتماعي، ونفته عمودية المدينة بعد أن نشر الصحفي التسجيل الذي يوثق لحظة اعتقاله. ورغم حقيقة ما فعل

ذلك الغجري، إلا أن هناك مَن شكّك في تلك الرواية، إلا أولئك الذين تعافوا من الوباء، إذ إنهم لا يتذكرون باختو، ولا الذي حدث، حتى إنهم نسوا ذلك الثقل النفسي المعتم، حين كان يُداهم أرواحهم قبل ظهور الوباء، ونسوا شعورهم المزمن باللاجدوى، من غير أن يعرفوا أن شفاءهم أمر مُؤقت.

حين ذهب عدد من أبناء الأحياء الأخرى ليتبينوا ما جرى، وجدوا أناسًا بوجوه مبتسمة، يتحركون بهدوء، ويتحدث بعضهم لبعض كما لو أنهم يؤدون أغنيات رقيقة. أحياؤهم نظيفة هادئة، كل شيء يمضي فيها بسلاسة عجيبة. زالت الفوارق فيما بينهم، وذابت الضغائن، وباتوا يفكرون بعقلانية فريدة، كيف ستكون أيامهم اللاحقة. **يبدو أنهم تعرضوا لموجة نادرة من السحر**. هكذا قال رجل وهو يغادر الحي الثالث. وقال آخر: **يبدو أننا نحن من تعرضنا لتلك الموجة**. قالت طبيبة ترافقهم في طريق العودة: **من الواضح أنهم يعيشون الصورة الأصل، ونحن نعيش النسخة المزورة.**

قرأت توليب ما كتبه أحد الذين زاروا الحي السادس، وتعجبت كيف رأت باختو رغم أثر الموسيقى، وكيف تتذكر ما حدث بكامل تفاصيله، وتعجبت أكثر أن تلك المعزوفة حذفت من ذاكرتها كل آثار السنين السوداء السابقة. ما عاد يُوجعها سوى المذبحة التي ارتكبتها الشرطة في مخيم الغجر، واعتقال باختو. لم تجد تفسيرًا لذلك، إلا استغراقها الشديد في القراءة منذ سن مبكرة، ولحُبها الشديد لباختو الذي كانت تفكر ذلك اليوم في إنقاذه، من دون أن تدري أن شفاءها من الوباء ليس نهائيًّا.

بعد أن رأى الناس تسجيلًا يوثق لحظة اعتقاله، ونفته العمودية، نشر أحدهم صورة كان قد التقطها من تسجيل إحدى كاميرات الشوارع في الحي الثالث لباختو وهو يعتلي نصب النسر في ميدان الحرية. نُشرت تلك الصورة في الصحافة، وتداولها الناس في وسائل التواصل الاجتماعي. عملت توليب على تلك الصورة بأن صنعت منها رمزًا فنيًّا، إذ مزجتها بصورته وهو يكنس شوارع المدينة. حين فرغت منها أرسلتها على بريد أحد الصحفيين، وفوضته بنشرها مع ضرورة عدم ذكر اسمها. في غضون أيام استُخدمت صورته كصورة تعريفية لكثير من الناس في حساباتهم في مواقع التواصل الاجتماعي، وباتت الأكثر تداولًا.

قبيل غروب الشمس، وقفت توليب على مشارف مخيم الغجر، التقطت صورة، لخيامه وبيوته التي بُنيت بشكل عشوائي، ثم جلست على حجر، تُفكر في هذا العدد الكبير من البشر الذين طُردوا إلى ذلك العراء الذي يطل عليه جبل الجد الأول. استدعت كل ما تعرفه عن الغجر: تيههم القديم، ولَعهم بالموسيقى، محبتهم للسيرك، والبهلوانيات، تُهمتهم العتيقة في الرحيل، ملابس النساء المزركشة، جوعهم، إحساسهم بالغبن، وغضبهم الدفين. سألت أطفالًا في أطراف المخيم كانوا يلهون بإطارات سيارات عن خيمة باختو، فدلوها على مقصدها، ثم عادوا يُدحرجون الإطارات، ويتبعونها وهم حفاة، وبمؤخرات مكشوفة.

كانت الشمس قد اندسّت في جحرها، فأخذت العتمة تتدفق للتو من كل الجهات حين توقفت توليب على مقربة من الخيمة،

وتمتمت في سرها: **هنا عاش باختو**. كان شاندور مُستلقيًا في أرجوحته يراقب السماء، كمن يفتش عن شيء ضائع. بينما ميادة تقرفص قرب برميل الماء، تعكف على جَلي صحون وأطباق معدنية ليست بحالة جيدة. أما بدور فقد تكورت في فراشها داخل الخيمة، مريضة بغياب باختو. حين علمت من أحد شباب المخيم بخبر اعتقاله وبما فعله، شعرت بأنها أودت بابنها الوحيد إلى ذلك المصير. رغم أنها لم تكن تعلم ما كان يسعى إليه، إلا أنها لامت نفسها على ما قالته عن الطائر الأبيض والجهة التي حلَّق نحوها.

ما إن رأتها ميادة تقف على مقربة من الخيمة، تحمل على كتفها كاميرا، حتى هرعت إليها تصرخ بها، وتدفعها لمغادرة المكان. اعتقدت أنها صحفية من أولئك الذين أتوا كثيرًا، وكتبوا عن الغجر، ولم يجنِ أحد نتيجة تُذكر سوى افتضاح أحوالهم المزرية. نهض شاندور متكاسلًا، يُشير بيده، آمِرًا توليب بالمغادرة. كان ما لاح من وجهه مُحتقنًا بكثير من الغضب، فلم تدرِ توليب في تلك اللحظة ماذا تفعل سوى أن قالت له بارتباك **إنها أتت لأجل باختو**. لكنه مضى في غضبه، يأمرها بالمغادرة بصوت أجشّ ناقم. تراجعت إلى الوراء، ثم سلكت طريق عودتها إلى المدينة.

بعد مُضي ربع ساعة من المسير، وهي مُثقلة بالخيبة، اكتملت العتمة، فتاهت عن الجهات. لقد أصابها الدوار ذاته الذي يهاجمها حين تجاوز خطوطه الحمراء. جلست على الأرض يعتريها خوف ازدادت حدته عندما سمعت نباح كلاب يقترب منها. لم تدرِ

ما عليها فعله سوى أن اتخذت طريقًا خمنت أنها ستُعيدها إلى المخيم، وبالفعل وصلت خيمة شاندور، لكنها لم تجرؤ على أن تلجأ له، كل ما فعلته أن توارت وراء كومة حطب تترقب اللحظة التي ستقع فيها فريسة للكلاب الضالة. كانت توليب تتقلب بين ما يمكن أن تتعرض له من خطر، وبين ما يكمن وراء مجيئها إلى المخيم من أسباب ربما لا يتفهمها أحد من الغجر.

مضت ساعتان كانت الكلاب عبرها تحوم حول الخيمة، وتنبح بشراسة مستغربة. الأمر الذي دفع بشاندور أن يستطلع سبب نباحها المزعج. تفقد المساحة التي أقيمت عليها خيمته ولم يجد شيئًا. أسرعت الكلاب إلى كومة الحطب، وتوقفت متأهبة قبالتها تنبح من دون انقطاع، في تلك اللحظة سمع شاندور صرخة فهرع إلى مصدرها. كانت توليب تحمي نفسها بيدها، عاجزة إلا عن الصراخ.

طرد شاندور الكلاب، واقتاد توليب نحو الخيمة، وهو يحاول أن يهدئ من روعها. كانت بدور في فراشها تراقب ما يحدث بعينين ذابلتين، تحاول جاهدة أن تفهم ما تراه تحت ضوء الفانوس الباهت. شربت توليب كوبًا من الماء بيدين مرتعشتين، وبقيت صامتة لدقائق كان شاندور خلالها يحوم في الخيمة يكابد لومه لذاته، وفي الآن نفسه يتساءل عن سِر هذه الفتاة التي قدمت إليها. ما إن سألها عن سبب مجيئها إلى المخيم حتى انفجرت ببكاء تردد معه اسم باختو. حين سمعتها بدور تنطق اسم ابنها، أسرعت إليها في عجالة مترنحة، إلا أنها سقطت في مكانها لما أصابها من دُوار

شتت خطواتها. هرعت إليها ميادة، وأعانتها على النهوض، فسألتها بدور بصوت متعب، بالكاد تجاوز شفتيها الناشفتين: **أين ولدي؟**

أخذت توليب تتلفت حولها، يساورها القلق، حين رأت عددًا من الغجر قد اجتمعوا بباب خيمة شاندور، يشتمونها، وهم يرمقونها بنظرات مستنكرة ولائمة، لكنها تفهمت تلك العدائية المباشرة، وتمترست وراء صمتها. نهَرهم شاندور بكلمة واحدة، فسكتوا، ثم أمر ميادة بصوت أجش وحاسم، بأن تُعد الشاي، وجلس على الأرض، ووراءه عدد من الغجر ينظرون إليها بعيون مترقبة، بينما عادت بدور إلى فراشها، تسند ظهرها إلى صندوق باختو الخشبي. ظل الجميع ينتظرون ما ستُفرج عنه تلك الفتاة الغريبة، إذ إن الخبر قد انتشر في المخيم، وعلموا بقصة الناي التي لم يصدقوها.

انتبهت توليب إلى ما يحظى به شاندور من طاعة في مخيم الغجر، فتذكرت ما رواه لها باختو عن مكانة أبيه بينهم. في ذلك اليوم أخبرتهم عن باختو منذ لقائهما الأول، حتى تلك الليلة التي أطلق فيها المعزوفة في الحي الثالث. روت لهم الحكاية بمعظم تفاصيلها، وحدثتهم عن سر اعتقاله، وكيف نفته عمودية المدينة. حدثتهم عما تعرفه عن أبناء الطائر الأسود، وكيف كانوا وراء مذبحة مخيم الغجر، واعتقال باختو. حين قالت كل ما عندها، أجهشت مرة أخرى بالبكاء، بينما لاذَ الآخرون بصمتهم الحزين، كأنهم ليسوا أولئك الذين كانت عيونهم تطفح غضبًا، وهم يسعون لطردها.

نهض شاندور بصعوبة، ثم مشى في الخلاء بخطوات تنقصها الهمة، مشى باتجاه جبل الجد الأول، ووقف يرخي يديه، كأنه يستسلم لجندي سيُطلق عليه رصاصة الإعدام. ينظر إلى الجبل، والهواء يهز لحيته الغزيرة وشعره الكث، يلوذ بصمت صاخب، تحتله الحيرة والشعور الطافح بالخسران. تبعته توليب بخطوات متمهلة. حينما اقتربت منه لامست كتفه لتهون عليه، حتى شعرت به يُهزم أمام البكاء. وجدت فيه وهو يداري وجهه عنها، وعي باختو، يداريه لئلا ترى ضعفًا حافظ طوال سنين عمره على أن يبقى حبيس دواخله الغامضة.

جلس شاندور على الأرض، ينظر إلى المدينة بعينين يسيطر عليهما الحزن مرة، وأخرى يفر منهما الغضب. أشعل سيجارة، وأخرج من جيبه زجاجة خمر صغيرة، شرب منها جرعتين، ومسح فمه بكُم قميصه البالي. جلست توليب قبالته، وراحت بلهفة خفية تفتش فيما بانَ لها من ملامحه عن باختو الذي أدركت أخيرًا أنها تحبه، كما تحب الأشجار مجاورة النهر خشية على الاخضرار. في الحقيقة بحثت عنه في كل ما رأته في مخيم الغجر، في صندوقه، في فراشه، في عيون أمه التي يهزمها غيابه الفادح. بحثت عنه حتى في البقعة التي كان يفترشها قرب الخيمة يحدق إلى المدينة، ويحلم بصباحات هادئة، لا أوجاع فيها.

قال شاندور وهو ينكش التراب بإصبعه: **هذه المدينة وحش كاسر**. التفت إليها، وأكمل بصوت خفيض ما درج على التفكير

به منذ سنين بعيدة: **أعترف لك أني بت أخاف النظر إليها. ليس لأني طردت منها، بل لأنها فعلًا باتت تثير بي الرعب، وها هي الآن تبتلع ابني. هل هناك قسوة أكثر من مدينة لفظتنا، وسرقت أعز ما لديَّ، ويقتل أبناؤها ثلاثين من أبنائنا، كأنهم سَحقوا ذبابًا يحوم على أطباق طعامهم؟** شعرت توليب بما في روحه من جراح غائرة، صار غياب باختو إزاءها ملحًا يثيرها بضراوة: **الوحش سيبقى وحشًا، ما دمنا ننظر إليه من وراء خشيتنا منه.**

تأملها، يحاول هو الآخر رغم العتمة أن يجد آثار ابنه فيها، لقد كانت الأثر البشري الأكثر قدرة في ذلك اليوم على أن تُشعره بأن باختو على قيد الحياة. قالت تحاول أن تكشف له عما تراه في عالم المدينة التي أودعتها في قائمة ضحاياها منذ طفولتها المبتورة: **الغبار المتراكم على زجاج النافذة لن يجعلك ترى بوضوح ما يحدث خارج بيتك.** ضحك شاندور، بعد أن بذل جهدًا لاستيعاب ما قالته توليب: **خيمتي لا نوافذ لها، ولا أفهم ما تقولين.** شرحت له مقصدها، إذ تحدثت عن سلوك سكان المدينة التي باتت غريبة، واستفاضت في الحديث عما تعرفه عنهم، وعما قرأته في الكتب والصحف، وكل ما وصلت إليه من نتائج دفعها إلى البحث عنها ما حدث لعائلتها قديمًا.

في تلك الليلة نامت توليب في فراش باختو تطغى سعادتها على أثر انتقالها من شقة مريحة إلى فراش في مخيم لا تدري ماذا سيحدث لها فيه. كانت تتقفى آثاره في الأغطية التي يستخدمها،

فقد قالت لها بدور بشيء من الانتشاء إن باختو لا يأنس إلا لهذه الفرشة، وتلك الأغطية.

في الصباح طلبت من شاندور أن تبيت عندهم ليلة أخرى. لم يقل شيئًا، لكنه حين رآها تُقدم له مالًا مقابل إقامتها، لامها على تصرفها: **صحيح أننا غجر وبتنا قريبين من الصورة التي رُسمت لنا، إلا أنكِ ضيفة، وهذا يكفي لأقول لكِ أعيدي مالكِ إلى جيبكِ.**

في مساء اليوم التالي تحلَّق عدد من الغجر حول حفرة أُشعلت فيها النار، ينصتون لما تقوله توليب. أخبرتهم بما تكشَّف لها مؤخرًا عما جرى في الحي الثاني في صغرها. روت لهم كل ما تعرفه عن تلك السنين الدامية، وما آلت إليه عائلتها. كانوا يشعرون حيالها بتعاطف غير مسبوق نحو أحد من أبناء المدينة، إنه شعور الضحية حين تجد من يشبهها في مآلات الخسارة. قالت لهم إن باختو حماها من الجنون جراء مشهد البنادق وهي تُجهز على عائلتها. تحدثت عنه بحميمية، فأدركوا أنها مصابة بغرامه. أخبرتهم أنه كان يعزف لها مقطوعات جميلة، وأنه غنّى لها أكثر من مرة بصوت عذب. كانت بدور تنصت لها بشغف الأم التي تعنيها التفاصيل والاستفاضة في الكلمات الصادقة. أحبتها منذ أول شهقة بكاء تسللت من بين كلماتها وهي تحكي عنه.

بعد أن غادر الجميع، بينما توليب تنكش كومة الجمر بعود تعبث به، فازدادت وهجًا، سألها شاندور عن سِر مجيئها إلى مخيم الغجر. قالت له: **أريد أن نستعيد باختو**. تعجب مما تقوله

تلك الشابة، واعترته شكوك بها. مع هذا تساءل بينه وبين نفسه عن الوسيلة التي تُمكنهم من تحرير ابنه من سجنه. فكّر في مذبحة الغجر، وبأحوالهم التي تسوء يومًا إثر يوم، وما النتيجة إن قرروا الانتقام لأنفسهم، حتمًا سيذبحون من جديد. **وهل هذا سهل كما تعتقدين؟** قالت توليب: **ليس سهلًا، إنما ليس مستحيلا.**

أخبرته عن رغبتها بأن تعيش معهم، وعن أولى الخطوات التي يجب أن يقوموا بها ليحرروا باختو. وافق شاندور على أن تقيم في خيمته، رغم أنه احتار فيما صرحت به. كُرهه الشديد لمدينة طرد منها كل أبناء جلدته، وقُتل عدد منهم قبل أيام، جعله يشك فيما أتت به تلك الفتاة، رغم ما في نفسها من دوافع يتفقان عليها. أدركت توليب ما يشغل بال شاندور: **لأني أحبه أسعى إلى أن يكون بيننا، فلا تأخذك ظنونك بعيدًا.** فوجئ بما صرحت به، لكن سرعان ما اعتراه شعور أبوي نحوها، شعور قادم من فرحه بذلك الحب الذي لم يحدث بين غجري وفتاة في المدينة من قبل. قال يسعى للتأكد من صدق نواياها: **لكننا لا نعرف مكانه.** زحفت نحوه: **بما أنك وثقت بما جئت به، فلا بد أن نعرف.**

لاذا بالصمت ينظران إلى المدينة، وقد كانت أضواؤها تحاول دحر الظلمة، بينما تربض ظلمة غزيرة على صدر مُخيم الغجر الذي ينظر أهله إلى الحياة كما ينظر طفل جائع إلى قطعة حلوى بيد طفل آخر.

٢

ما عاد يصلح لشيء. تمتم جوناثان، وهو يرى العمدة على شاشة التلفاز يتحدث لعدد من الصحفيين بصوت تشوبه الرجفة، فخلا من الشكيمة التي يتحلى بها أمثاله في اشتداد الأزمات. كان مثل قائد معركة تسبَّب في الخسارة، يدافع على استحياء عن نفسه، ويدس بين كلماته اعتذارًا خفيًّا عما ارتُكب في مخيم الغجر وفي الحي السابع، ويحاول أن ينفي كثيرًا من الأقاويل، وما يُشاع حول تدهور الحريات.

بعد انتشار تسجيل أثبت اعتقاله، ثم انتشار صورته وهو يعزف على الناي في الحي الثالث، صار باختو مطلبًا شعبيًّا، يضغط الناس على عمودية المدينة للإفراج عنه، ليُخلّصهم من وباء شُفي منه أبناء الحيين الثالث والسادس. حتى إن أحد مصانع الألبسة وزّع قمصانًا في الأسواق، تحمل الصورة التي حوّلتها توليب إلى عمل فني، فارتداها كثيرون. وحين لم يجدوا لمطلبهم أذنًا مُصغية، لوّحوا بالخروج إلى الشوارع. حينها خشيت العمودية من تفاقم الوضع، ومن تكرار العنف الذي ارتكبته الشرطة.

قبل أن يخرج العمدة للناس، التقى جوناثان في مكتبه بالقصر العمودي، طلب منه أن يُخلي سبيل باختو ليعزف في الأحياء التي لم تُشفَ من الوباء، لكن جوناثان رفض ذلك: **ألا ترى أثر تلك المعزوفة على الحيَّيْن الثالث والسادس؟ أنت تدفع بأبناء الطائر الأسود إلى التهلكة أيها العمدة.** قال العمدة بما يشبه التوسل: **المدينة على حافة الهاوية يا جوناثان. المئات ينتحرون كل يوم، وها هم يُحضّرون لاحتجاجات جديدة. ماذا ستفعل، هل ستقتلهم جميعًا؟** مشى جوناثان نحو نافذة مكتب العمدة، يدس يديه في جيبَي بنطاله، ينظر إلى الشارع، وقد سلك دربه نحو هدوء مُبطّن: **صحيح أن أبناء الطائر الأسود منذ وَجدوا أنهم غير قادرين على تحييد الحرية، ومَن يتحدثون باسمها، قد عملوا على تسخيرها لمصالحنا، إلا أننا في هذه الأيام لن نستطيع تكرار الخطوة ذاتها، لأننا سنغتال تاريخًا جذورُه منذ نشأة هذه المدينة، فنهلك.**

تبعه العمدة بخطوات مضطربة، ووقف وراءه، ينظر من فوق كتفيه إلى الشارع، وجوناثان يسمع أنفاسه تخرج متعبة، ومشوبة بالخوف: **سنهلك إن بقينا نفكر بطريقتك، فلماذا لا نتخذ خطوة جديدة؟** قال جوناثان بخبث لا مواربة فيه: **يبدو أنك تهشم أرجل كرسيك أيها العمدة.**

بعد أن انتهى جوناثان من الاستماع لحديث العمدة، أغلق شاشة التلفاز، والتقى أبناء الطائر الأسود. طلب منهم أن يُوظفوا الإعلام لتكذيب حكاية باختو، وأن يُعلنَ عن العقار الجديد لمكافحة

الوباء، والذي ابتكره خبراء في مَعامله الطبية ومستشفياته، وأصبح متاحًا. وأن يخبروا الناس أنه بحاجة لوقت ليتحقق مفعوله، من دون أن يعرف أحد سوى الخبراء، أنه ليس سوى مادة مخدرة من شأنها أن تثير الشعور بالسعادة والاسترخاء. هكذا يدفعون الناس إلى خانة الانتظار، وهم سُعداء، لا يفكرون في الخروج إلى الشارع. طلب جوناثان من الجنرال أن يُحكم قبضته على المدينة، من غير أن يظهر ما يمكن أن يُستثمر على أنه تراجع عن مسيرة الحرية. دفعه إلى مراقبة كل النشطاء الذين يدفعون الناس إلى الاحتجاج، وتضييق الخناق عليهم. وطلب أن يروج الإعلام شائعات تُطيح بهؤلاء النشطاء، وأن يشغل الناس عن حكاية باختو ويقنعوهم بجدوى العقار الجديد.

* * *

في عزلته، في بيته في الحي الخامس، المحاط بحراس شرسين، كان فايد مستلقيًا بارتخاء مَرضي على الأريكة، محبَطًا وحزينًا، يشعر بالوحدة، وباللاجدوى، وبهجمات نسخته الشبحية. لِحيته طليقة، وشعره مُبعثر، ووجهه مُرتخٍ وداكن، كأن الدم استقر فيه، ولا يغادر مطرحه. بين إصبعيه سيجارة كلما لسعه جمرها يهرسها في منفضة ملأى بالأعقاب المحنية. يفكر في روبين، منذ لقائه اليتيم بها، حتى مقتلها هي وبخت على يدَي عصابته. منذ ذلك اليوم، وحين لم يرَ وجهه في المرآة، وعندما عرف بأن أبناء الطائر الأسود هم من قتلوا عائلته، ودرى بمقتل روبين، وشعور طاغٍ

بالانهيار يجتاحه بضراوة. كان يقاسي صوتًا مرعبًا لانهيار بناية في أقبيته السرية، صوتًا لا ينفك عن مهاجمته بقسوة مفرطة.

لاذَ بالخمر، لكن الصوت كان يتعاظم بلا أي اكتراث بتوسلاته، فخطر بباله أن يتعاطى جرعة مخدرة كانت المرة الأولى التي سيفعلها في حياته، رغم أنها تجارته. ما إن قرّب حبة المخدر من فمه، حتى وجد عائلته وروبين يقفون قبالته ويصرخون به. تستبيحه تساؤلات حادة حول انخراطه في بوتقة العصابة وتجارة المخدرات والقتل المأجور، وعما آلَ إليه من مصير، أحاسيس شائكة زادها تمنُّع المرآة عن الإفصاح عن وجهه، وملاحقة نُسخته الشبحية له.

في ذلك اليوم حملَ مسدسه بعد أن أمضى وقتًا ينصت لنسخته الشبحية وهي تدفعه إلى الموت، وتُهون طُرقَه أمامه. مشى نحو المرآة، وراح يتفرس سطحها الفارغ، مرآة فقدَ الأمل في أن ترد إليه وجهه، فيشعر بشيء من الاتزان، لكنها كانت أقسى مما توقع. صوّب مسدسه نحو رأسه، وقبل أن يضغط على الزناد، أزال حارسُه الشخصي المسدس من يده، وأنفق جهدًا يحاول السيطرة عليه، وهو يصرخ، ويهشم كل ما كان في دربه. حين استفاق بعد الظهيرة من أثر مهدئ حقنه به الطبيب، طلب من حارسه الشخصي أن يُرسل أحد رجاله إلى مُخيم الغجر، ويقدم مساعدات لعائلة بخت.

عندما عاد الرجل الذي أُرسل إلى المخيم، كان فايد، بعينين نصف مفتوحتين، ينظر إلى شاشة التلفاز، حيث رأى المسئول الإعلامي لعمودية المدينة، يعلن في مؤتمر صحفيّ عن عقار

طبي ضد الوباء، ويخبر الناس أن ثمة مراكز خُصصت للحصول عليه في كل أحياء المدينة. وفي المؤتمر ذاته شرح طبيب كيفية تناول المحلول الطبي، إذ يُذاب في كأس من الماء، ويُشرب مرة في الأسبوع، وعلى مراحل سيُخلص الناس من الوباء.

قال الرجل إنه قدم مبلغًا ماليًّا لعائلة بخت، وعرف أن فتاة تُدعى توليب، أقامت في مخيم الغجر منذ أيام، رآها تخرج من بيت عائلة بخت، وحين تحرى عن أمرها قيل له إنها تقيم في خيمة باختو. اعتقد فايد أنها من عمودية المدينة، غير أن الرجل نفى ذلك، إذ قدم له معلومات عنها أثارت استغرابه من وجودها هناك، لكنه عاد يفكر في أمر المحلول الطبي الذي أعلن عنه قبل قليل. طلب من رجاله أن يحضروا له عينة من المحلول. أراد أن يعرف ما الذي يحدث. **مجرد مادة مخدرة، مفعولها يستمر لأسبوع**. هكذا قال له خبير بشئون المواد المخدرة، فأدرك فايد ما الذي يُخطط له في مدينة الجد الأول.

في اليوم ذاته قدم له أحد رجاله تقريرًا مفصلًا عن مخيم الغجر، وعن توليب، عرف من خلاله أن كبيره شاندور، وأن توليب على علاقة غرامية بباختو، وأنها تُدبر أمرًا ما.

* * *

خلال الأيام التي مكثتها توليب في مخيم الغجر، اقتنع شاندور بالمغامرة في تحرير باختو، رغم ألا أحد يعرف أين يتحفظون عليه،

وكيف يمكن أن يفعلوا ذلك. أقنعته توليب بأن لها ثأرًا مع أبناء الطائر الأسود، وأن لها في معتقلاتهم حبيبًا لا يمكن أن تمضي حياتها من دونه. لم يكن شاندور خائفًا، إنما لا يجد من يمكنه أن يتسلل إلى مدينة تشبه قِطَع بازل مبعثرة، الخوض فيها محض مسير في متاهة يصعب تحديد نتيجته. والحقيقة أن توليب أيضًا تفتقر للخبرة في مهمات مثل هذه، رغم أنها استخرجت من هاتفها النقال خريطة واضحة للمدينة، وأعادت الاطلاع على كل الأخبار التي تطرقت لاعتقال باختو منذ أن كان في المسرح البلدي، وخمّنت في أي الأحياء يمكن أن يكون، إلا أنها كانت تنتظر طرف الخيط الذي يثبت لها جدوى ما تفكر فيه.

في المساء كانوا يجلسون حول حفرة النار: شاندور وميادة وبدور وتوليب، يشربون الشاي، صامتين، ينظرون في الفراغ المعتم. كانت توليب تستعيد تفاصيل اليوم الذي جاء فيه باختو إلى معرضها الفوتوغرافي، وفي أذنيها ترن نغمات كمنجته كما لو أنه بينهم. طلبت من شاندور أن يعزف أغنية لنوَّار يحبها باختو، طلبٌ مبعثه حنينٌ عميق للأيام التي كان فيها باختو مثل عقار منح جهاز مناعتها قوة تصد ما يمكن أن يهاجم روحها المتعبة بالخسارات الفادحة. قالت لشاندور: **أعلم أنك أقلعت عن كمنجتك منذ زمن، مع هذا أرغب أن تفعل ذلك**. كان ينظر إليها بعينين حائرتين، لكن ميادة حسمت الأمر؛ إذ أسرعت إلى الخيمة، وجاءت بالكمنجة، وألقتها في حضنه. انطلق اللحن بنسق خفيض،

كأنه قادم من البعيد، ثم علا شيئًا فشيئًا، إلى أن راحت ميادة تغني، ثم تبعتها بدور، وشاندور يهز كتفيه يمينًا وشمالًا، ويزج بصوته الخشن مع صوتَي زوجتيه.

من عمق العتمة جاء صوت يردد في الآن نفسه كلمات تلك الأغنية، وحين أمعنوا النظر رأوا شخصًا قادمًا من جهة المدينة، اتضح لهم حينما اقترب أكثر أنه رجل. وضع شاندور الكمنجة جانبًا، ونهضت ميادة محتجة وخائفة، بينما بدور تتساءل بصوت خفيض عما وراءه. عندما وجدته توليب قد اقترب أكثر طلبت منهم أن يتريثوا. ألقى التحية واعتذر بكلمات مترددة عن مقاطعة جلستهم اللطيفة، ثم مد يده إلى توليب وصافحها. شعرت بأنها تعرفه، رغم العتمة التي تُبدّدها ألسنة النار أحيانًا، إذ رأت صورة له في أحد المواقع الإلكترونية من قبل، وقرأت عنه أكثر من مرة. قالت في سرها **إن كان هو الذي في بالي، فإنه رجل خطير جدًّا. إنه فايد. لكن ما الذي جاء به إلى المخيم؟!** دعته للانضمام إليهم، وأفسحت له مكانًا للجلوس.

أدرك فايد على الفور أنها الفتاة نفسها التي أخبره عنها مَن زار بيت بخت. عرّفهم بنفسه على أنه رجل أعمال جاء ليقدم المساعدة إثر المذبحة التي وقعت في المخيم. قدم مبلغًا ماليًّا لشاندور، وطلب أن يعطيه لعائلات الضحايا. حدث هذا في ثوانٍ قليلة، بينما شاندور ينظر إلى الرجل وألسنة النار تكشف كلما تلوَّت جانبًا من وجهه، تمامًا مثلما كانت تفعل توليب والآخرون. ولئلا يقيم الصمت كثيرًا

بينهم، تحدث فايد بتعاطف صادق مع ما أصاب المخيم، ومع باختو. أخبرهم أن سكان المدينة يلوحون هذه الأيام باحتجاجات عارمة لأجل الإفراج عنه، وحدّثهم عن محلول طبي يخدعون الناس به، ليتفادوا به زخم الاحتجاجات. كانت توليب تُنصت له باهتمام، إذ تأكدت من هويته، وراحت تحاول أن تتبين نية ذلك الرجل الذي عمل مع أبناء الطائر الأسود منذ كان شابًّا. حين وجدها فايد صامتة أخبرها أنه يعرفها، وطلب أن يختلي بها هي وشاندور.

منذ أن هبط فايد من سيارته عند أطراف المخيم، وسار باتجاهه مشيًا، لم تفارق مُخيلته اللحظة التي قُتلت فيها روبين على يد رجاله. أثارت فيه أضواء المخيم الشحيحة شعورًا مضاعفًا بالوحشة، يختلط بأحاسيس من الندم والتعاطف مع الغجر الذين قُتلوا، والذين قامت عصابته بتصفيتهم سابقًا في المدينة. سأل شابًّا عن خيمة عائلة باختو، وبعد تردُّد دلّه الشاب على مقصده.

سار فايد وشاندور وتوليب بعيدًا عن الخيمة، ثم افترشوا التراب وجلسوا. في البدء كان الصمت يحوم بينهم، ينظرون إلى ما أفرجت عنه العتمة من وجوههم المترقبة. لم يجد فايد المدخل نحو ما جاء به إلى مخيم الغجر، سوى أن يخبرهم بحقيقته. تحدث بلكنة المعترِف بخطاياه الكثيرة، منذ أن عرف روبين، وانتهاءً باليوم الذي ما عاد فيه يرى نفسه في المرآة. صمت لبرهة بعد أن قال ما عنده، ثم صرَّح مغتبطًا: **التصرف الوحيد الذي لا أندم عليه هو سرقة مخطوط الجد الأول من قِبَل رجالي**. صُدمت توليب بما سمعته، وبقيت تنظر إليه، تترقب ما يمكن أن يقول.

لم أكن أعرف قيمة هذا المخطوط. جاءني أحدهم وأخبرني عن رغبة شخص ـ لا أستطيع الإفصاح عن هويته ـ في لقائي سرًّا. طلب مني أن أنتظره قرب إحدى الحانات في الحي الخامس، عند الثالثة من فجر يوم الخميس. قال لي إن سيارة أجرة ستتوقف قُربي، وينظر إليَّ سائقها، وهو يخلع نظارته ثم يرتديها لثلاث مرات، كإشارة للصعود إلى السيارة. استغربت ذلك الأمر، فدفعت رجالي إلى أن يتحروا عن ذلك الشخص، وكان صادقًا فيما قال. توقفَت السيارة في ذلك التوقيت، وقام سائقها الذي أطلق لحيته وشعره، بالإشارة المتفق عليها. كان مسدسي مُجهزًا، وكنت على أُهبة الاستعداد لأي أمر طارئ. بعد دقائق من المسير، توقفت السيارة في أحد الأزقة المعتمة، وإذا بي مع أحد كبار مدينة الجد الأول. أخبرني عن رغبته بالاستيلاء على مخطوط كان سيُحرق في مزرعة على أطراف الحي الأول، وإني سأتقاضى لقاء تلك المهمة مبلغًا خياليًّا، وتغاضيًا طويل الأمد عن نشاط عصابتي، فوافقت، وأشرفت على تلك العملية، بعد أن زوّدني بمخطط هندسي دقيق للقصر، ومعلومات عن حُراسه، وعمن يعملون فيه، وعن الأجهزة التي زُوّدت به، وعن الساعة التي سينفذ فيها حرق المخطوط. استطعنا أن نُجنّد ثلاثة من الحراس مقابل مبالغ مالية عالية لصالحنا، وتمت سرقة المخطوط، لكن رجالي فشلوا في أن يُحضروه لي، إذِ انقلبت بهم السيارة وماتوا، فاختفى المخطوط.

رغم أن توليب لم تجد لدى فايد ما يدل على معرفته سبب وجودها في المخيم، ورغم شعورها بصدق ما تحدّث به، إلا أنها

لاذت بالصمت، تفتش عن سر مجيئه إلى المخيم. شعر فايد بأن ما قاله غير كافٍ لينال ثقة كبير الغجر، الذي كان هو الآخر صامتًا. قال بصوت خفيض تشوبه رائحة التوسل: **أتيت إلى هنا لأكفر عن ذنوب لا تُحصى**. حاولتْ توليب أن تنفي سبب وجودها في مخيم الغجر، غير أن فايد قطع عليها الطريق، إذ عرف سِر تخوفها: **لا أحد يدري بوجودي هنا غيركم، لكني أعلم أين من الممكن أن يكون باختو**. غادر فايد، بعد أن زود توليب برقم هاتفه، ثم أخبرهما أنه سيعود في غضون أيام قليلة. بقيت توليب وشاندور حتى منتصف الليل يفكران كيف يمكن، بعد ما قاله فايد، أن يُخرجا باختو من معتقله.

٣

في ذلك الصباح تَرأس العمدة اجتماعًا طارئًا، لكنه كان شارد الذهن، لا همة له، وروحه مثل خِرقة باليَة. عيناه ثابتتان على مَن تحلقوا حول الطاولة يقدمون اقتراحاتهم، ويتجادلون بـأصوات واهنة، رغم ما بدّله الوباء في وجوههم، التي بدت مُصفرة، يخذلها التعب. لم يُخبر العمدة أبناء الطائر الأسود عن ذلك الاجتماع الذي دعا إليه لتفادي ما يلوّح به المحتجون، المطالبون بباختو لينقذهم من الوباء. كان قلقًا على ما يمكن أن يئول إليه حال الناس، إذ إن العنف الذي مارسته الشرطة في بعض الأحياء، وفي مخيم الغجر، يُنذر بأيام خطيرة، لا مثيل لها.

في ذلك النهار لم يكترث العمدة بنسخته الشبحية وهي تطارده، ولا بما فعلته به مرآته الفارغة، ثمة محطات من حياته كانت تتراءى له، وتضيء على بواكير اشتهائه العارم للسلطة، وكيف أخذه أبناء الطائر الأسود إلى عوالمهم الغرائبية. منذ أن حُسب العمدة على تلك الجماعة، وهم يُعلّمونه قتلَ أشياء كثيرة فيه، أهمها الشعور بالخطيئة والندم، إذ إنهم لم يريدوه فقط عمدة

لمرحلة وتنقضي، إنما ليكون أبرزهم، لكن مطامعه بالعمودية جعلته يتجاوز ما في نفسه من صراعات وتساؤلات خفية كانت تراوده، فيقع صريعًا للحيرة.

حين قرر أبناء الطائر الأسود حرق مخطوط الجد الأول، تملّكه الرعب، ولم يقوَ على أن يتجاوز شعوره العارم بالندم وبالخطيئة، ولأنه باتَ واحدًا من جماعة لا سبيل للتراجع عن معتقداتها سوى الموت، أوهمهم بإيمانه بكل ما يسعون إليه. حين تعمّق كثيرًا بما يُضمرونه من وراء حرق المخطوط، أدرك أن المدينة ذاهبة إلى مرحلة جديدة في تغريب الإنسان، واختزال معظم عناصره البشرية، وأن الزمن القادم للآلة سينتبذ فقط جانبًا كبيرًا من الإنسان، أما الجانب الأكبر فهو آليّ بامتياز. كل هذا يحدث بعد تمييع كل شيء، وتسطيح ما كان في الأصل عميقًا، وتبديل معظم النواميس. أدرك أن إحراق المخطوط الذي حذّر الجد الأول فيه من هاوية تمضي إليها سلالته، يعني إحراق ما تبقى من آمال بشرية، حينها ستكون النهاية التي لن ينفع معها عودة إلى الوراء.

لو أن العمدة تجاوز شعوره بالندم، لما فكر جادًّا بهذه الطريقة منذ ظهور الوباء، ولمَا استعان بفايد لسرقة المخطوط، ولمَا شعر بالغبطة لما يفعله ذلك الغجري. مع هذا كان خائفًا مما يمكن أن يفعله جوناثان، إنه على استعداد أن يُهشّم كل شيء لأجل الحصول على المخطوط، وعلى الناي، ولا يدري العمدة هل افتُضح أمره أم لا. لهذا، وحين انتهى الاجتماع، خرج إلى قاعة العمودية، والتقى

بالصحفيين. وقف على المنصة، بينما الصمت يُطبق على المكان. كانت في وجهه أمارات غير معتادة، إنه ليس العمدة المراوغ، ولا المتلاعب بالكلمات، ولا ذلك الذي يضج حديثه بوعود لا يتحقق منها سوى القليل، كان بملامح صادقة جادة، في عينيه أسى قادم مما يُخبئه في نفسه. شرب ماءً، وقرَّب الميكروفون منه:

ما أُدركه الآن أن ما تعانيه المدينة فاقَ كل مستويات الغرابة، إذ إني أتحدث إليكم، وفي هذه اللحظة بالتحديد تقف نسختي الشبحية متقاطعة الذراعين، تتكئ على الجدار، وترمقني بنظرات مترقبة، فهي تعرف ما سأقول. السؤال الذي عليَّ أن أطرحه على ما تبقى مني: مَن الشبح فينا؟ أنا، أم تلك النسخة الواقفة هناك؟ يبدو لي أيتها السيدات، أيها السادة، أن المدينة باتت مرتعَ أشباح لا غير، وأننا مفرغون من ذواتنا، التي ما انفكت منذ ظهور الوباء عن ترغيبنا بالموت. ما يعانيه الناس لم يأتِ من العدم، بل إن له سببين؛ الأول هو الناس أنفسهم، الناس الذين على مرّ العصور انقادوا لما كان وهمًا، وجانَبوا الحقيقة، وحلَّت الكوارث. والثاني هو تلك الجماعة التي انتمت إلى السواد منذ ما سُمي بموقعة الماء. لا تعتقدوا أن تلك الجماعة هم هؤلاء فقط، إن بينكم مَن ينتمي لها ولا يعي ذلك. إن السواد قابع فينا منذ أولى لحظات الولادة.

ذهلَ معظم مَن كانوا في قاعة المؤتمرات الصحفية مما يقوله العمدة. لقد كان واحدًا غير الذي عرفوه، يتحدث للصحفيين، وكاميرات المحطات الفضائية تنقل ما يقول مباشرة، إلا أن البَث

قطعَ بحجة الخلل الفني، بينما العمدة ماضٍ في كلمته، غير مُكترث بشيء: **أنا واحد ممن انحازوا إلى السواد، وانضموا إلى أبناء الطائر الأسود، هذه الجماعة التي سعت مستغلة ما فينا من ظلمة، إلى تحويل مسار الإنسان، وتهشيم معتقداته وأحلامه، والذهاب به إلى منطقة تُشوه فيها روحه، بحجة شكل جديد من الإنسانية.**

في تلك الأثناء رأى العمدة نسخته الشبحية تُعارك نسخة شبحية أخرى لرجل يُصوّب مسدسًا نحوه، وحين وجد أن الرجل لم يكترث بذلك العراك، وظل يُصوب المسدس إليه، ابتسم العمدة، بينما نسخته الشبحية تحدق إليه حزينة وآسفة، وقال قبل أن تستقر الرصاصة بين عينيه: **أنا مَن حالَ بين النار وبين المخطوط، فحرّروا باختو.**

في ذلك اليوم اندلعت الاحتجاجات بضراوة في الأحياء التي لم تُشفَ من الوباء، إذ خرج الناس إلى الشوارع بعد اغتيال العمدة، وقد صرحت العمودية أن مَن قتله شخص مُصاب بمرض نفسي، فاقتِيد إلى مستشفى الأمراض العصبية. كانت الاحتجاجات أكثر عنفًا مما مضى، ولم ينخرط مَن تبقوا من عناصر الشرطة في مواجهة معهم، إذ إن معظم رجال الشرطة أيدوا تحرير باختو، بل حتى إن عددًا منهم انضموا إلى المحتجين، والكثير منهم امتنعوا عن مزاولة عملهم.

اقتحم المحتجون معظم السجون، وحرروا مَن فيها، ولم يجدوا ذلك الغجري الذي سيُخلصهم من الوباء. سادت الفوضى مدينة

الجد الأول، فألقى نائب العمدة كلمة دعا الناس فيها إلى الكف عن العنف، ووعدهم بتحرير باختو، وبإعلان موعد الانتخابات العمودية قريبًا، لكنهم لم يُلقوا بالًا لما قاله، بل استغرقوا في الاحتجاج، إذ تعالى الدخان في تلك الأحياء، وباتت تلك المناطق أكثر خطورة، حيث كثر النهب والسلب، وازدادت أعداد المنتحرين أكثر مما كانت عليه. بعد أسبوع من تلك الاحتجاجات باتت المدينة على حافة السقوط، إذ غادر كثير من المسئولين مواقعهم متأثرين بالوباء، وانتحر عدد كبير ممن كانوا يُديرون شئون المدينة، وامتنعت الشرطة عن أداء مهامها. تعطلت الحياة، فلا مواصلات، ولا مراكز تموينية، ولا وسائل إعلام، ولا مدارس، ولا جامعات. غادر المحتجون الشوارع بعد أن نُهب كل شيء، وما عاد هناك لا حاكم، ولا محكوم، فاستحالت مدينة الجد الأول إلى مدينة منكوبة، وما هي إلا شهور وتحتلها الغربان.

٤

رأى شاندور سحابة من الدخان تتعالى في سماء المدينة، وهو يفترش التراب قبالة الخيمة، يفكر في اللحظة التي يُحرر فيها باختو من سجنه. كان شامتًا وحزينًا في الآن نفسه، شامتًا في مدينة جعلته كندبة في الجبين، وحزينًا على ما حلَّ بأناس لا ذنب لهم، سوى أنهم يعيشون في مدينة ما عادت عادلة. مع أنه يحس بغبطة خفية لهذا القَدَر الذي اختير ابنه ليُجنب المدينة هلاكًا وشيكًا، إلا أن شاندور شعر باقتراب الموت منه منذ أن غادر باختو مخيم الغجر الذين كثيرًا ما امتدح الشعراء ترحالهم، وذلك التيه الذي عاشوه، قبل أن يستقروا خارج حسابات المدينة في مساحة قذرة. موت غرس شوكته في روحه مبكرًا، فأخذ يهرب من عينيه اللتين لم تنفكا عن التحديق إليه، نحو الخمر والنساء. كان يشعر حين تستبدّ به الثمالة أنه خفيف ويرى الأشياء أقل قيمة مما هي عليه في صحوه. وعندما يلوذ بحضن امرأة، وتشهق روحه باللذة، يتلاشى كل شيء من حوله، ولا يرى إلا كوَّة يتدفق عبرها نور ساطع.

حين جلست بجوار شاندور، وقدمت له كوبًا من الشاي كان وجه توليب شاحبًا، إذ إنها لم تنم جيدًا منذ اغتيال العمدة، يجتاحها الخوف والقلق. قالت والأسى يلوح في صوتها المرتبك: **يبدو لي أنها النهاية.** لم يقل شاندور شيئًا، بل بدا مستغرقًا في التفكير. منذ أن جاءت توليب إلى المخيم هيأ شاندور الغجر سرًّا لتحرير باختو، معتمدًا على عدد من الرجال الذين يثق بهم، وضمن ترتيبات عكفت توليب على التخطيط لها، لكنها كانت في انتظار معرفة المكان الذي يحتجزون فيه باختو.

في تلك الأيام كان شاندور يُنفق ساعات من وقته أمام التلفاز، يراقب ما يحدث في المدينة، بينما توليب تخبره بما يصلها عبر هاتفها النقال. عند المساء تحدّث مع عدد من الغجر، وطلب منهم أن يقتصدوا فيما لديهم من غذاء، لعل حُلولًا تجنبهم الكارثة، إلا أن ذلك لم يكن إلا مجرد محاولة، فخلال الأيام التي أعقبت اغتيال العمدة واندلاع الاحتجاجات، ومن ثَمَّ تعطُّل شئون المدينة، جاعَ معظم سكان مخيم الغجر. كان موزعو المواد التموينية سابقًا يُزودون دكاكين المخيم بما يحتاجه، أما الآن فلا شيء يصل. حتى إن عائلة شاندور لم تجد ما تأكله. كادت توليب أن تذهب إلى المدينة لعلها تعود بشيء من الطعام، لكن شاندور منعها عن ذلك، فالأخبار التي تبثها وسائل الإعلام تُشير إلى أن الأحياء باتت معقلًا للصوص والمجرمين وقُطاع الطرق. اتصلت توليب بفايد، طلبت منه أن يؤمّن عائلة شاندور بشيء من الطعام، فلا بد أن عصابته تُحكم قبضتها على الحي الخامس.

جاء فايد ترافقه شاحنة كبيرة مُحملة بالمواد التموينية، وُزِّعت على مخيم الغجر. أخبرهم عن علاقته بروبين، روى لهم كامل القصة، بأسًى كبير، جعل مَن كانوا يُنصتون إليه يتعاطفون معه، رغم تاريخه الإجرامي. فعل ذلك ليتطهر من دموية لا تنفك عن أذيته النفسية. قال بعد أن اقترب من شاندور: **لولا أن لي نفوذي لاستحال الحي الخامس إلى فضاء للخراب. إن زعماء العصابات يتجهزون في هذه الأيام لتوسيع نفوذهم، إذ انهارت المدينة وما عاد هناك لا إدارة ولا شرطة، ولا مسئول تبقى في موقعه ليتفادى الكارثة. اعترف العمدة بأنه كان وراء سرقة المخطوط التي نفّذها رجالي، بل حتى كشف ما يسعى إليه أبناء الطائر الأسود، فقُتل. من هذا المنطلق أرى أن اللحظة المناسبة قد حانت لتحرير باختو لإنقاذ المدينة، إن المئات ينتحرون كل يوم، إضافة إلى ما يعمّ المدينة من فوضى وقتل وضياع.** قالت توليب وهي تتفرس وجه فايد تحت ضوء الفانوس الخجول: **لكننا لا نعلم أين مكانه.** قال فايد: **إنه في القصر الذي يجتمع فيه أبناء الطائر الأسود. وعليكم أن تعلموا أن تواجد الشرطة والعصابات شحيح جدًّا، إنها اللحظة المناسبة.**

في الصباح دعا شاندور كل سكان مخيم الغجر إلى حفل غنائي ضخم، سيُقام بعد ليلتين في أطراف المخيم، سيُغني فيه نوّار وترافقه فرقة مؤلفة من عدد من الموسيقيين الغجر، يقودهم شاندور، تضامنًا مع باختو الذي يقبع في سجون المدينة. أخبرهم شاندور أنه سيقيم مأدبة عَشاء فيها الكثير من الطعام والشراب والفاكهة. كان الغجر

قد عرفوا مصدر المواد التموينية التي وُزِّعت عليهم في الليلة الفائتة، وبالتالي توقعوا أن حفلًا مثل هذا لا بد أن فايد هو مَن موّله. استعان شاندور بعدد من أبناء المخيم وقاموا بتحضير المكان، إذ جهزوا منصة للعازفين ومكبرات صوت ومقاعد، وطاولات أتوا بها من متعهد حفلات في المخيم، ومواتير كهربائية.

عند غروب شمس الليلة التي أقيم فيها الحفل، توافدَ آلاف من الغجر من مختلف جهات المخيم، وجلسوا إلى طاولات حفلتْ بالطعام والفاكهة والشراب، على وجوههم دهشة من ذلك الحفل الفاخر، واستغراب من إقامته في توقيت غير مناسب، لكنهم أقبلوا على الطعام بعد أيام من شُحِّه. في الحقيقة كان هذا الحفل فكرة توليب، وقد أيّدها فايد وشاندور. وأمضوا وقتًا يراجعون ما اتفقوا عليه. حينها أطلع شاندور الرجال الذين أعدّهم لتنفيذ خطة تحرير باختو على التوقيت المناسب، وأطلع فايد رجاله على الدور الذي سيقومون به.

كان أعضاء الفرقة الموسيقية قد اتخذوا أماكنهم حين عادت توليب من المدينة تُرافق نوَّار في إحدى سيارات فايد المصفحة ضد الرصاص. ما إن شوهد يهبط من السيارة، حتى استُقبل بالتصفيق الحار، وبصيحات ابتهاج عالية. أعطى شاندور الإشارة للفرقة الموسيقية، فانطلقت إحدى أجمل افتتاحيات أغاني نوَّار، التي عنوانها: أقماركم مكتملة. تعالت الصيحات أكثر من ذي قبل، وهيمنت الغبطة على تلك اللحظات النادرة.

رغم شيخوخته، إلا أن نوَّار في ذلك المساء بدا قويًّا، عيناه تلمعان بابتسامته عريضة. إنه ليس نوَّار الذي كان قبل الليلة التي عزف فيها باختو في الحي الثالث، بدا أكثر أملًا وتفاؤلًا، خاصة حين مُنح فرصة ليغني من جديد أمام ذلك العدد الكبير من محبيه. صعد إلى المنصة بهمة، وجلس على كرسي أُعِد له، وقرَّب الميكروفون من فمه بعد أن التفت نحو شاندور، فانطلقت الموسيقى وغنى أغنيته الشهيرة: العائدون بالكمنجات. أغنية حماسية، تمتدح الغجر وصبرهم الطويل، وترى أن ثمة يومًا غير بعيد سيستعيدون فيه مكانتهم العالية. آلاف من الأصوات كانت تُردد مع نوَّار أغنيته التي حفظوها عن ظهر قلب. نهضوا من وراء طاولاتهم مصابين بالنشوة، تصدح حناجرهم بكلمات الأغنية. كانت عينا نوَّار تلمعان بما افتقده منذ سنين، حتى إنه أمسك بالميكروفون وراح يغني وهو يخطو ببطء على المنصة.

حين انتهت الأغنية بقيَ التصفيق مستمرًّا، بينما نوَّار يتأمل تلك الأعداد الغفيرة بعينين صافيتين إلى أن سادَ الصمت إلا من بضعة أصوات هنا وهناك. قال بعد أن أشار بيده يطلب منهم الإنصات: **أما آنَ الأوان لتستعيدوا كمنجتكم؟** سرى صوته مع الهواء، مُحدثًا صدى مُحفزًا، بينما الناس يفكرون فيما تحدث به، فأعاد ما قاله بصوت أقوى من ذي قبل: **أما آنَ الأوان لتستعيدوا كمنجتكم؟** حينها تعالت أصوات مُرددة: **بلى آنَ الأوان.** كانت أصوات الرجال الذين أطلعهم شاندور على ما ينوي فعله.

انطلق صوت نوَّار بنفَس حماسي مُتصاعد: **كمنجتكم هو باختو الذي كان يساهم في تنظيف أوساخ مدينة لفظتكم، وحين عثر على مخطوط جدنا جميعًا، بحث عن الناي، وعاد به لينظف المدينة من وباء يُهددها بالموت، لكن الذين قلوبهم سوداء أودعوه سجنًا لا يقلّ سوادًا عن قلوبهم.** صمتَ نوَّار، ينظر إلى كل الجهات التي تزاحم فيها الناس: **مَن هو كمنجتكم؟** تعالت الأصوات فخورة ومُعتدة: **باختو، باختو، باختو**، فانطلقت الفرقة تعزف موسيقى أغنية: العائدون بالكمنجات. ازدادت الأصوات علوًّا تتفجر حماسة وشغفًا، ونوَّار يهتف معهم: **باختو، باختو، باختو**، إلى أن أخذت أصواتهم تخبو شيئًا فشيئًا. هتف نوَّار: **جاهزون لنستعيده؟** فعادت الأصوات تتفجر من جديد: **هيا، هيا، هيا**. هبط شاندور من على المنصة ومشى باتجاه مدينة الجد الأول هو وتوليب وفايد، وتبعه الآلاف من الغجر.

٥

أخبر رجالُ شاندور الغجرَ، وهم في طريقهم إلى المدينة، أن وجهتهم هي مقر أبناء الطائر الأسود في الحي الأول. لقد أطلعوهم على ما تبقى من حقيقة الأمر لتتضاعف طاقتهم، وحتى لا يشعروا أنهم ذاهبون إلى مكان مجهول. كانوا طوال الطريق يُرددون وراء توليب كلمات أغنية نوَّار: العائدون بالكمنجات. يُرددونها بأصوات صادحة، يتقافز صداها بين البيوت والمباني، من غير أن يعترضهم أحد من القلة الذين تواجدوا في شوارع بدت موحشة وكئيبة. كانت توليب تعتلي كتفَي أحد الرجال وتغني لأجل باختو، ومن ذاكرتها تطل مشاهد من طفولتها البعيدة، ومما حدث في الحي الثاني من مجازر، ومن ليلة مقتل عائلتها. كلما أوجعتها المشاهد، أوغلت جيدًا في الغناء، ومن ورائها يذهب الغجر عميقًا في روح الكلمات التي تمس تاريخهم الموجع. كانوا فرحين بتلك الفرصة الأولى التي تعلو فيها أصواتهم في مدينة جعلت منهم أناسًا امتهنوا السطو والدعارة والتسول، والعبثية في كل شئون حياتهم، عادت لهم في تلك الليلة روحٌ اعتقدوا أنهم أضاعوها إلى الأبد.

إن تلك الحماسة التي دفعتهم إلى الأمام بقوة استثنائية مردها كُرههم الباطني لصورة سيئة تكوّنت عنهم عبر الزمن، حزنهم مما مُورِس عليهم من تهجير قسري، وما فعله ذلك التهجير بأرواح تبعت الشمس بديلًا للاستقرار، وباختو، باختو الذي أبهج لياليهم الحزينة بموسيقاه الشجية في الليل، وفي النهار ساهم بتخليص المدينة من أوساخها، وها هو قد انتُبِذَ من بين كل سلالة الجد الأول ليجنبها الهلاك، لكنه الآن إما سجينًا وإما أنه فارق الحياة. كان يعني الغجر جدًّا أن باختو بات مُخلِّصًا للمدينة، إنه اعتراف نهائي بالغجر الذين لن يخجلوا بعد ذلك اليوم من عِرق ينفر منه الجميع.

كانت المدينة ليلتها تلفظ أنفساها الأخيرة، إذ شاهد الغجرُ العديد من الجثث، مُلقاة في طريقهم، تفوح روائحها، ورأوا المحالّ التجارية مُشرعة بعد أن نُهب كل ما فيها، بينما الأدخنة تتصاعد من كثير من مقرات إدارة المدينة، والقمامة مكدسة على الأرصفة والطرقات وفي الشوارع الرئيسية. كانت رائحة المدينة كريهة لا تُطاق، مع ذلك بدت أصوات الغجر مرعبة، وخبْط أقدامهم يكاد يُزلزل الأرض. لقد مضوا بلا أي احتمال ضئيل للتراجع رغم ما أثاره حال المدينة فيهم. كلما دخلوا حيًّا يقف الناس إلى نوافذ بيوتهم يستطلعون ما يحدث، فقد اختار الكثيرون عزلتهم خشية من الفوضى والعصابات، وانطواءً على أنفسهم دفعهم إليه الوباء.

حين وصل الغجر الحي الأول، واجهتم عناصر قليلة تبقّت من الشرطة بخراطيم المياه، والقنابل المسيلة للدموع، لكنهم لم يستطيعوا تعطيل حركتهم، الأمر الذي دفع أولئك العناصر الذين أُجبروا على حماية العمودية إلى أن يُجهزوا بنادقهم، ويُطلقوا رصاصًا حيًّا في الهواء، فخرج من بين الغجر عشرات من رجال فايد، وأطلقوا رشقات من الرصاص على سبيل التهديد، فتراجع العناصر واكتفوا بمراقبة ذلك السَّيل البشري الهادر، وقد مضى يُكمل طريقه نحو أطراف الحي الأول، حيث تقع المزرعة التي يجتمع فيها أبناء الطائر الأسود. كان فايد ورجاله على عِلم بمداخل المزرعة، وبطبيعة حُراسها، وبما يمكن أن يقع هناك، لهذا جعل رجاله في المقدمة حين شارفوا على الاقتراب منها. وبالفعل رمى حراس أبناء الطائر الأسود الغجرَ بالرصاص الحي، فقُتل عدد منهم، وجُرح آخرون.

دبَّ الهلع والصراخ بين الغجر. كانت لحظات صعبة دارى فيها شاندور وراءه توليب وزوجتَيه وهو يصرخ لمرات متتالية: **ما عادت بنادقكم ترهبنا.** توزع رجال فايد في أكثر من جهة. اختاروا مناطق يستطيعون عبرها السيطرة بشكل أفضل، واشتبكوا بالرصاص الحي مع حراس أبناء الطائر الأسود. في تلك الأثناء راحت توليب تنادي الغجر بصوتها الذي بُحَّ لفرط الغناء، وقد أخذ الخوف والارتباك يضعضع صفهم: **لا تتراجعوا، لا تتراجعوا.**

كان الغجر عزلًا، مع ذلك أعادت كلمات توليب لهم همّتهم، فالتقطوا ما عثروا عليه من حجارة يدافعون عن أنفسهم بشراسة

وبإحساس مَن ليس أمامه سوى فرصة واحدة للعيش. حين نفِدَت الحجارة هدموا جزءًا من السور وراحوا يقذفون الحراس بها، فلم تُثنِهم تلك البنادق عما جاءوا إليه، إذ بدوا مثل النمل وهم يتسلقون الجدران والبوابة العالية. لقد غلبتهم الكثرة، وهزمتهم حماسة الغجر، فما هو إلا وقت حتى هرب الحراس وتدفق عدد من الحشود إلى الداخل. كسروا الأبواب، وتقدمهم فايد ورجاله يبحثون في كل أرجاء القصر الذي وجدوه فارغًا من أي أحد، إلى أن عثروا على باختو في غرفة في الطابق السفلي، مُقيدًا وفاقدًا لقواه.

في بادئ الأمر اعتقد باختو حين رأى رجال فايد يفكون وثاقه أنه مُقبل على الموت، وحين طمأنوه شعر أنه يحلم، أو أن ذلك مجرد هلوسات لمَا تعرَّض له من تعذيب. كان باختو يترنح حين اقتادوه عبر الممرات السرية للقصر، تُساوره شكوك حول تلك اللحظات. ما إن تجاوزا به الطابق السفلي حتى تناهت أصوات الغجر وهم يُغنون إلى مسمعيه، فأحسَّ بضوء يغشى روحه المتعبة، وبماء بارد ينداح في دواخله التي شارفت على اليباس. حين خرج باختو من القصر مترنحًا يقتاده رجال فايد، اشتدت خُطاه، فتعالت الأصوات وانطلقت الزغاريد وهتافات البهجة.

كان شاندور يقف بباب القصر بشعره الكث ووجهه المتعرق. يداه وراء ظهره، يتنفس باضطراب. ضاقت عينا شاندور حين شاهد باختو، كأنهما عدستا كاميرا تتهيآن لالتقاط صورة لتلك اللحظة الاستثنائية؛ لحظة أخذته فيها ذاكرته إلى مراحل من حياة باختو

منذ ولادته إلى تلك الليلة التي لم يكن له حتى أن يتخيلها. كان شاندور سعيدًا بعودة ابنٍ فقدت العائلة حضورَه الدافئ، وحزينًا لأجل الغجر الذين قُتلوا، ومَن يعانون جراحًا متفاوتة الخطورة، فحملهم رجال فايد إلى واحدة من المستشفيات التي كانت لا تزال تعمل رغم سقوط المدينة.

أسرع باختو من خطواته، فألقى بنفسه في حضن والده. كان شاندور متعبًا ومُشوّشًا حين قال لباختو وهو يُمسك بكتفيه: **رددتَ الأملَ ليس لهذه المدينة فقط، بل لهؤلاء الغجر الذين كادوا يفقدون القليل مما تبقى لديهم منه.** من وراء كتفَي والده، رأى باختو أمه تهرع إليه فرحة، تشق طريقها بين الأعداد الغفيرة من الغجر، وجديلتاها تلوحان في الهواء. احتضنته بقوة فارقتها طوال غيابه، ثم همست بأذنه بعد أن لامست وجهه، وحدقت إلى عينيه غير مُصدِّقة عودته: **ألم أقل لك إن الطائر الأبيض حلق باتجاه جبل الجد الأول؟** احتضنته أكثر من مرة، ثم عادت تتحدث إليه، بينما أخذ الغجر يلتفون حوله: **أتعرف مَن وراء كل هذا يا باختو؟ إنها توليب.**

في تلك الأثناء كانت توليب تَعبر بوابة القصر هي وفايد، تحمل صندوقًا خشبيًّا أودع فيه الناي، وقد وجده رجال فايد في خزانة سرية، بينما البقية يبحثون عن باختو. نبّهته أمه إلى باب القصر، حيث وقفت توليب على بُعد أمتار من باختو. كانت موسيقى أغنية نوَّار التي رأت باختو في ذلك اليوم يكنس الشارع على أنغامها، تطل من ذاكرتها، شجيةً، تهدهد روحها بشعور يدفعها

نحو جانب الحقيقة في الحياة التي يجب أن تُحب، لتتراجع كل احتمالات كراهيتها.

تدفقت من ذاكرة توليب كلُّ تفاصيل اليوم الأول للقائها به، فأدركت أن الحبَّ ليس مجرد إفصاح شفوي عَجُول عما يحس به الإنسان، إنما هو التعبير عن إيماننا به والتضحية لأجله، بوعي مَن عليه أن يُشيّد جسرًا نحو الحياة. هكذا كان إيمان توليب منذ أن استفاقت في ذلك الصباح على صوت داخلي ينبئها بحب ذلك الغجري غريب الأطوار. حين رأت باختو من وراء الزجاج مُقيدًا في تلك الغرفة، لم تستطع أن تقترب منه وهو في ذلك الوهن. ولم تستطع أن تتخيل عودته من دون الناي، لهذا رافقت فايد في البحث عنه. كانت تريد لعودة باختو أن تكون كاملة، غير منقوصة، فالمدينة بأسرها في انتظار الخلاص على يديه، وهي في انتظار اكتمال تضحيته لأجلها.

مشى باختو نحو توليب وهي تنظر إليه بعينين مبتسمتين، والناي بين يديها، وديعة لاسترداد الحياة. أحس لحظتها أن يدًا خلّصته مما مُني به من تعب ومشقة. رأى الجدَّ الأول يقف بين الناس مبتسمًا، على كتفه اليمنى يحط الطائر الأبيض الذي بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة، وإلى جانبه تقف الجدَّة، ينظران إلى هذا العدد الكبير من سلالتهما، ثم إلى توليب وباختو، وهو يتساءل **هل ما يراه حقيقة أم أنها مجرد خيالات عابرة؟**

حين لامست توليب كتفه، رأى باختو في عينيها بواكير دموع، وأمارات لكلمات حائرة، فتريّث صامتًا يترقبها بشغف كبير.

كانت من أكثر اللحظات نورانية في حياته، ومن أكثرها التي رأى فيها عشبًا ينمو على جسده الحالم بالاخضرار. قالت والمسافة بينهما تقصر أكثر من ذي قبل: **حين عرفتكَ غادرني صراخٌ سرّي مُتعِب، وحين رحلتَ تبحث عن الناي لأجلي، ولأجل هذه المدينة، أيقنتُ أن الحياة لا يعمرها سوى الحب، هذا الذي قاد أبناء جلدتك لينتصروا لك، ولذواتهم التي لم يطلها الوباء.** ما إن همَّ باختو بقول شيء ما، حتى قاطعته توليب: **إني أحبك.** لم يقوَ على قول ولو كلمة واحدة، كل ما فعله أن احتضنها ودار بها، تمامًا مثلما كان يتخيل امرأةَ تصوراته وهو يكنس الشارع، فتعالى صراخ الغجر المبتهجين بذلك الحب النادر.

حمل الغجرُ باختو على الأكتاف، يهتفون باسمه وهم يغادرون القصر، لكنهم هذه المرة مضوا صدفة في شارع يؤدي إلى مقر العمودية. انضم لهم عدد كبير من سكان المدينة يهتفون معهم، إذ تجدّد عندهم الأمل بوأد الوباء.

حين اقتربوا من المقر، وأصواتهم تتعالى بقوة، وتثير الرعب بقلوب مَن عارضوهم، والحماسة بقلوب مَن تعاطفوا معهم، لاذَ حراس العُمودية بالفرار، إذ كانوا يعتقدون أن تلك الأعداد الغفيرة تيمم شطرهم، وهذا ما جعل الغجر حين رأوهم يفعلون ذلك يتوجهون نحو مقر العمودية. كانت لحظة لا تحتمل أي درجة من درجات الحكمة والتفكير أو التريث. كسروا الأبواب فتدفق المئات إلى الداخل، بنهمِ مَن لهم تاريخ طويل مع الضنك.

في الحقيقة لم يكن شاندور يريد ذلك، لكن الطوفان البشري جرفه معه، إذ وجد نفسه في مقر فاخر تزيِّنُ جدرانَه لوحاتٌ ثمينة، مقر مؤثَّث بما لم يره الغجر، إلا على شاشات التلفاز. اندفع الغجر ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم: تُحف، ساعات حائط، مزهريات ثمينة، حتى إن البعض حمل مقاعد من النوع غالي الثمن.

فوضى عارمة، ومشهد مُربك جعل توليب تقف عند رأس درج يصعد إلى الأعلى، من غير أن تعرف كيف حدث هذا، وما الذي عليها فعله. نادت الناس لأكثر من مرة حتى أنصت بعضهم، فأخذت تنهاهم عن المساس بمقتنيات المقر، أو أي شيء في المدينة. قالت بصوت تخلّلته بحّة البكاء: **جئنا لننقذ باختو، لا لنُثبت أننا لصوص وقاطعو طُرق**. لم يمتثل أحد لما قالته توليب، بل ازدادوا في الاستيلاء على كل شيء، بشراهة، وشراسة يصعب إيقافها. شعرت توليب أنها فشلت فيما جاءت لأجله، وأن الفوضى ستزداد أكثر مما هي عليه.

بدا كما لو أن شاندور قد فقدَ قدرته على أن يضع حدًّا لما يجري. لكنه وحين صوّبت إليه توليب نظرة متوسلة، صرخ بهم، بصوته الجهوري: **يبدو أنكم تُثبتون أحقية هذه المدينة في طردكم منها**. ساد الصمت المكان، وبات صوت شاندور أكثر وضوحًا وهو يأمرهم بأن يتركوا كل شيء في مكانه. أمضى وقتًا يُحدثهم إلى أن انصاعوا لما قاله. في تلك اللحظة ثمة فكرة انبثقت في رأس توليب عن شكل المدينة التي كانت تحلم بها، فسارعت إلى اقتناصها:

بما أن القدَر قادنا إلى هذا المكان الذي غادره مسئولوه، فإننا نُنصب شاندور عُمدة لمدينة الجد الأول، ليقوم باختو بما اختير لأجله. ثمة رجال حملوا الذين قُتلوا في هذه الليلة ليُدفنوا فيما بعد، ورجال آخرون يعتنون بمن في المستشفى، فهل نستمر بهذه الفوضى؟

لم يكن في حسبان أحد في ذلك الوقت المتأخر من الليل أن يحتلَّ الغجرُ عمودية مدينة الجد الأول. صمت كل مَن كانوا يُنصتون لتوليب غير مُصدقين ما آلَ إليه حالهم، وأخذ بعضهم يُعيدون كل شيء سطوا عليه إلى مكانه، ثم فجأة انطلقت الأصوات المؤيدة لاقتراحها. أصوات فرحة، وغير مُصدقة هذا المصير. كان في وجه شاندور ملامح غير مفهومة، وإشارات قادمة من تاريخ غجري موجِع، إذ بدا عليه عدم الارتياح لتلك الفكرة، فأبدى رفضه القاطع: **كل ما كنت أحلم به هو أن نعيش بسلام. لم يخطر ببالي أن يتبدل الحال، فأُصبِح عمدة لهذه المدينة.** صاح في الغجر غاضبًا: **أتينا لنُخلّص باختو من سجنه، وعلينا الآن أن نعود إلى مُخيمنا الذي لم يمسسه الوباء.** حين خرج إلى بوابة مقر العمودية، تبعه الغجر صامتين، يعتريهم خذلان جاء من ذلك الحلم القصير الذي عاشوه لثوانٍ معدودات. قالت توليب بصوت متوسل: **إننا نُنقذ المدينة أيها الحكيم.** وحين وجدَته قد وقف في مكانه، مضت إليه، وقالت: **كيف لكم أن تعيشوا بسلام والمدينة تمضي إلى الهاوية؟!**

كان باختو في تلك الأثناء يُمسك بيد أمه، ويحدق إلى وجه أبيه وقد غزته الحيرة. لم ينتظر الغجر أن ينطق شاندور موافقًا

بما اقترحته توليب، اكتفوا بما قرأوه في وجهه وهو ينظر إلى باختو، فحملوه على أكتافهم، بينما وقف عدد من رجال شاندور، ورجال من عصابة فايد بباب العمودية يحمونها. كان تصرفًا فطريًّا للتمسك بذلك المكتسَب، والحيلولة بينه وبين من يُمكن أن يقفوا في وجهه.

بعد وقت من الاحتفال العفوي، حمل الغجر شاندور نحو مكتب العمودية الفاخر، فجلس إلى الطاولة تساوره الشكوكُ بجدوى ما قَبِلَ به، ويعتريه خوف من مصير سيئ ربما يحيق بالغجر بسبب تلك الفعلة. أدركت توليب ما يشغل باله، فأغلقت الباب عليهما، وحدّثته بلهجة حاسمة: **إنها فرصة سانحة ليُصلح الغجرُ من اعوجاج هذه المدينة أيها العمدة.** تفرّس شاندور في وجهها، حينها قالت بصوت خفيض آمِر: **نعم أنت العمدة الآن. عليك أن تحمي باختو ليقوم بمهمته، ثم تحاول أن تُعيد للمدينة عافيتها، حينها تدعو للانتخابات، ثم تغادر.** تناهت إلى مسمعيها من خارج المقر رشقات رصاص ازدادت حدتها أكثر في لحظات قصيرة. كان هجومًا من بعض عناصر الشرطة، ورجال تابعين لأبناء الطائر الأسود. قالت توليب لشاندور، وقد بدا عليه الترقب: **لا تقلق، لقد جئنا إلى المدينة في وقت جعل الوباء كل مَن فيها يتنصلون حتى من ذواتهم، سنواجه محاولات قليلة لإبعادنا عن هذا المكان، لكنها ستكون فاشلة.**

بينما كانت الاشتباكات على أشدها، رافق فايد وتوليب شاندور، يحرسهما عدد من رجال فايد المسلحين نحو مبنى التلفزيون.

كانت توليب تعِي ضرورة أن يعلم الجميع أن عمدة جديدًا تسلّم مقاليد الحكم فيها. لم يرَ فايد أن ما حدث خطوة عبثية، بل وجدها مثلما رأت توليب أمرًا خارجًا عن المألوف من شأنه أن يقوض كل ما مرت به المدينة من زيف. كان فايد في أعلى درجات سعادته، إذ شعر بأن الله منحه فرصة عظيمة للتكفير عما فعله طوال تزعمه لعصابته، خصوصًا المصير الذي آلت إليه روبين وبخت على يدَي رجاله.

اشتبك رجال فايد مع عدد من حراس مبنى التلفزيون، لكنهم في المحصلة وجدوا طريقًا إلى الداخل، وأجبروا الموظفين تحت التهديد بالسلاح على أن يبثوا كلمة مباشرة لشاندور. خارج مقر العمودية انضم الآلاف من سكان المدينة للغجر، يهتفون لباختو، ويطالبونه بأن يعزف في الأحياء المصابة بالوباء. كانت توليب طوال الطريق إلى مبنى التلفزيون تشرح لشاندور ضرورة ما عليه قوله للناس، وكيف يمكن بهذه الخطوة أن يُعيد لها الحياة. أخبرته بالنقاط الرئيسية في خطابه، من دون أن تفقد ثقتها برجل حكيم مثله، رغم عبثيته وغضبه العتيق، والحزن الراسخ في وجدانه المجروح. كان شاندور مرتبكًا، وفي الوقت نفسه مقتنعًا بما عليه أن يفعله. لقد وجد نفسه في فضاء غرائبي، يشبه الأحلام المبهجة التي ربما تُشير إلى فأل غير حسَن.

حين بدأ البث، تحدّث شاندور بصوته الجهوري: **مساء الخير.** شعر بأن لا كلمات تبقّت في فمه. كانت توليب من وراء الكاميرا

تنظر إليه، وتُشير له بيدها أن يُكمل، ثم ابتسمت. عاد شاندور يتحدث للكاميرا بهدوء ورويّة: **هذه المرة الأولى التي أدخلُ فيها مدينة جدنا الأول، منذ أن طُرد منها الغجر. لم آتِ هنا إلا لتحرير باختو من سجنه، ثم نعود من حيث جئنا، غير أني وجدت نفسي في مكان عليَّ فيه أن أحمي ابني، ليُكمل شفاء الأحياء التي لا تزال تعاني الوباء، حينها نُعلن موعد الانتخابات، ونعود إلى خيامنا. أعرف أنكم تستغربون حديث غجري إليكم، وربما تنكرونه عليه. أعرف أنكم تستهجنون تبوّء غجري منبوذ منصب عمدة هذه المدينة. لكن هذا الغجري الذي لم يطله الوباء، أبًا لمن غامر بحياته ليُعيد لكم الحياة. كل ما أودّ قوله لكم إن علينا أن نتكاتف لنُبعد هذه المدينة عن حافة الهاوية. لسنا بحاجة إلى شيء غير القوة، القوة التي تمنعنا من اليأس، ومن ثَمَّ التفريط في حياتنا كأنها مجرد حدث عادي.**

ضجت الشوارع بالناس الذين أنهكهم الوباء، وباتت المدينة موطنًا للاحتفال بعد منتصف تلك الليلة رغم غرابة ما حصل، فقد تساءل كثيرون: **كيف يحتل الغجر مدينة الجد الأول؟** بل حتى إن هناك مَن خرجوا إلى الشارع، في الحي الثاني والحي الرابع يحتجون على أن يتبوأ غجري منصبًا مثل هذا. ثمة شاب صرخ بالمحتجين في الحي الثاني: **رغم أنكم مرضى بهذا الوباء، وشفاءكم بين يدَي الغجري، إلا أنكم ما زلتم عُنصريين.** كانت كلماته حادة، لا مواربة فيها: **إن مدينتكم الآن أشبه براعٍ لدغته**

عقرب في إصبع قدمه، وليس أمامه سوى أن يبتره، وإلا لن يعيش. وما هذه الإصبع إلا قلوبكم التي لطخها السواد.

كان سعيهم للتعافي من الوباء أكبر من تفكيرهم في هذا الأمر غير المتوقَّع، فقد سقطت المدينة، وازداد عدد المنتحرين، وانتشرت روائح الجثث في الشوارع، بعدما عمَّها الجوع، وسادتها الفوضى. كانت المدينة تحتضر، وتلفظ أنفاسها الأخيرة.

في الليلة ذاتها، أعلن كثير من عناصر الشرطة وقادتها وعدد من المسئولين عن رغبتهم في العودة إلى مواقعهم. وجاء عدد من كبار رجال المدينة الذين غيَّبهم أبناء الطائر الأسود لسنين، وأبدوا تعاونهم مع شاندور. دفعت توليب بأن يقبل العمدة بتعاون عدد من أولئك الرجال الذين تعرفهم، وتجد أنهم قادرون على إدارة المدينة.

أخذ الأمل يُبعث من جديد، إلا أن فايد وتوليب كانوا متخوفين من أي مفاجأة يمكن أن تُعيق مهامهم، إذ إن ما حدث أمر غير مخطط له. صحيح أن المدينة سقطت، وألا أحد يحكمها سوى الفوضى، غير أن هناك مَن يتوارون الآن بعيدًا، ولا أحد يعلم ما الذي سيفعلونه، لهذا رأت توليب أن عائلة شاندور يجب أن تحظى بحراسة مشددة، وخاصة باختو، وقد تهيأ للعزف في بقية الأحياء في مساء اليوم التالي. اقترحت على فايد أن يجتمع بالجنرال الذي أبدى استعداده للعودة إلى منصبه، ويطلب منه أن يُعيد ترتيب الشرطة، خصوصًا من شُفوا من الوباء.

كان محيط مقر العمودية مُحاطًا بالغجر. باتوا على يقين بأن المدينة موطنهم الجديد، خاصة بعد أن تبعوا شاندور في تلك المهمة المباغتة. كان الحال في غاية الصعوبة حين تساءل شاندور على مسامع فايد وتوليب: **ما الذي سأفعله لهؤلاء الذين ينتظرون العمدة الجديد ليُخلصهم من بؤس المخيم؟** بدا الأمر محيرًا، بل إنها ورطة يصعب الخروج منها. خيم الصمت عليهم، ينظر بعضهم في وجوه بعض، وكل واحد منهم يتوسل دماغه للعثور على حلّ عاجِل لتلك المعضلة. كاد شاندور أن يتخلى عن منصبه ويغادر بمعية الغجر، لولا أن وقعت توليب على حلّ منطقي. قالت وهي تحوم في الغرفة: **لقد آنَ الأوان أن يعود الغجر إلى مدينة الجد الأول، وهذا سيكون على مراحل. ثمة مشاريع سكنية لم يكتمل بناؤها للآن، تعود ملكيتها إلى العمودية. عليك أيها العمدة حين يستقر حال المدينة أن تعهد بها إليهم.**

كان شاندور في تلك اللحظات أسيرًا للمنطقة الواقعة في وعيه بين اعتياد الغجر حياتهم الخاصة، وبين ما حلموا به طوال عُمرهم الشقي. هل من السهل عليهم أن ينتظموا في سياق مدينة لها قوانينها التي لا تشبه قوانينهم؟ هل من السهل أن يقول لهم ابقوا حيث أنتم في ذلك المخيم الأكثر قذارة على الإطلاق؟ كان لا بد له أن يحسم أمر تلك الحيرة بعد أن وجد اقتراح توليب في مكانه. اقتراح أعقبته بواحد آخر فحواه أن يعتلي شاندور مقر العمودية ويتحدث للغجر، لكن فايد رأى أنها خطوة تنطوي على خطورة كبيرة لحياة العمدة،

فأشار عليه أن يتحدث إليهم عبر مُكبر صوت من داخل المقر. إلا أن شاندور صعد إلى سطح مقر العمودية وتحدث للغجر، ووعدهم بحياة عادلة سيحققها لهم فيما بعد، فعادوا إلى المخيم.

* * *

انتقلت عائلة شاندور إلى القصر العُمودي، الذي أحيط بحراسة من رجال شاندور ورجال فايد وبعضٍ من عناصر الشرطة الذين عادوا في الليلة ذاتها. وقف باختو أمام مرآة عريضة على جدار غرفة الجلوس في القصر ينظر إلى نفسه، ويستعيد ما حدث منذ الليلة التي وجد فيها المخطوط، ويفكر في الآن نفسه كيف انتقل من عالم الخيمة إلى عالم هذا القصر الذي هرب منه كل العاملين فيه. كانت عائلة شاندور فرحة بالتحول المفاجئ في حياتها، يتجولون في الغرف والممرات، يستطلعون كل شيء بشغف كبير. في تلك الأثناء وقف شاندور وراء باختو وهي ينظر عبر النافذة: **في الحقيقة يا ابني كل ما حلمت به ألا تبترنا المدينة عنها، من غير أن يخطر ببالي أن يومًا سيأتي وأجد نفسي عمدة لسلالة الجد الأول. إن ما نحن فيه مرعب، ومبهج في الآن نفسه. لكن عليك أن تعي أننا هنا لأجل أن تنهي مهمتك.** لم يقل باختو شيئًا، كان متعبًا ومشوشًا. كل ما فعله أن هبط إلى الطابق السفلي للقصر العمودي.

في تلك الليلة لم ينم شاندور، لقد كانت المرة الأولى التي يجد نفسه فيها بين أربعة جدران، مُستلقيًا على سرير وثير، في مدينة لا تُرى السماء فيها، ولا تُرى النجوم وهي تؤنس من يراقبها،

وتطرد عنه الوحشة. كان يشعر بالاختناق، تمامًا مثلما كانت تشعر بدور نحو ذلك العالم الجديد، لهذا أمضى ليلته في الشرفة، يدخن ويفكر في هذا المصير العجيب، وهو ينظر إلى بنايات الحي الأول الشاهقة، وشوارعها العريضة: **هل ما حدث نعمة، أم أنه نقمة ستقود الغجر إلى الفجيعة؟**

رأى وقد صار الآن عمدة المدينة، أن عمره شرع بالعَد التنازلي. شعور تملّكه بقوة، ليس فقط لأنه اعتاد حياة الغجر، بل لأنه أيضًا وجد نفسه أمام مدينة تراكمت أزماتها منذ أن جاء الجد الأول إليها، وإن استمر في هذه المكانة التي زُجّ فيها، فربما يُحيل الغجر إلى تيه جديد. لولا توليب التي منذ أن وعت على الحياة، وأخذت تبحث في شئون هذه المدينة، وأسباب انحدارها، وبالتالي امتلاكها لتلك الرؤية، لما كان لشاندور أن يرضى لهذا الحِمل أن يبقى على كتفيه. ولولا شعوره بضرورة فعل شيء نحو مدينةٍ ينتحر المئات فيها يوميًا لغادرها في الليلة ذاتها، رغم ألمه العتيق مما مُورِسَ على الغجر من تهجير، ونفي قسري.

كان شاندور غارقًا في أفكاره المتضاربة وهو في الشرفة، بينما لا يزال هناك العديد من سكان الحي الأول يفترشون الأرض حول أسوار القصر العمودي، يحتمون بما لاحَ لهم من أمل في النجاة من الوباء، وتبعاته الكارثية، تعلو أصواتهم مرة وتنخفض مرات في ذلك الوقت الذي شارف على بداية نهار جديد. سمع شاندور صوت ناي قادم من الشارع. كان الصوت آسرًا إلى الدرجة التي غشت

فيها روحَه سَكينةٌ فياضة، وبهجة لم يشعر بها من قبل، سرت في أوردته، وأنعمت على روحه بخفة متناهية. من الداخل أتت بدور وميادة وأبناء شاندور الصغار، يقفون إلى سور الشرفة، يُحدقون إلى باختو، وقد جعلت الموسيقى منهم أناسًا مأسورين إلى لذة استثنائية. تلاشت الأصوات من الحي الأول، كل الأصوات، إلا صوت ذلك الناي الذي أنساهم تعب ما قاموا به في ذلك المساء، وأعفاهم من تقلبات نفسية قاسوها جراء ذلك الانتقال المفاجئ من المخيم إلى القصر العمودي. رأوا باختو يمضي في الشارع نحو عمق الحي الأول، يُجابه الوباء بمعزوفة سكنت كلُّ الأشياء تحت أثرها الساحر. كان الناس الذين حول سور القصر قد استسلموا لصفاء نادر، وسكينة صافية ارتَدَتْ أرواحهم المتعبة.

تدفقت عينا شاندور بالدموع. كان بكاء فيه الكثير من الإحساس بالتخفف، والشعور الحقيقي بجدوى الحياة. كلما مضى باختو في طرقات الحي، وقف العديد من سكانه إلى النوافذ طائعين إلى ما أصاب أرواحهم، حتى اللصوص وقاطعو الطرق وأفراد العصابات التي كانت تستثمر تلك المحطة المخفية من محطات الليل، ثابَتْ نفوسهم إليهم، وباتوا بكامل وداعتهم، يتملكهم هدوء نادر وبهجة عالية وأحاسيس مفتقدة منذ زمن بعيد. في تلك الليلة طافَ باختو حسب وصية الجد في كل أرجاء الحي الأول، وما إن انتهى من معزوفته، حتى أفرجت المرايا عن وجوه الناس، وغادرتهم نُسخهم الشبحية.

***

في الصباح بدا شاندور أكثر هدوءًا، وتقبلًا لمكانته الجديدة، ورغم أنه لم ينم سوى قليل من الوقت، إلا أنه كان مبتسمًا، تملؤه الحماسة حين التقى بتوليب وفايد. عقد ثلاثتهم اجتماعًا مع عدد من مسئولي إدارة المدينة، الذين كانوا فرحين بخلاصهم من الوباء، فأصدر شاندور أوامره بضرورة انتشار الشرطة في الشوارع، وإعادة فتح المقرات الإدارية، واستخدام مستودعات مئونة المدينة لتوزيع الغذاء على الناس، والدفع بالتجار للعودة إلى محالّهم. كان يتحدث إليهم بروية مردها حكمته، وشعوره العالي بالمسئولية نحو مدينة لم يخطر يومًا بباله أن يكون عمدة لها. حين انتهى الاجتماع، توجه شاندور بكلمة مصورة للناس يطلب منهم أن يتكاتفوا لتنظيف الشوارع مما فيها، وأن يتعاونوا مع الشرطة التي عاد إليها الكثير من عناصرها القاطنين في الحي الأول، وعناصر آخرين من الأحياء الأخرى التي لم تُشفَ بعد، لقد عادوا أملًا في الشفاء. وبالفعل هبط الناس إلى الشوارع، مصابين بالأمل؛ الطريق الأسهل لطرد الوحش، ولعودة السكينة.

الفصل الخامس

«إن أجسامكم وعاءٌ للروح والنفس والقلب والعقل، فإن اختلّ ميزان ملذاتها صِرتم عبيدًا لا تملكون من أمركم شيئًا، فانتصروا للميزان».

مخطوط الجد الأول

١

في تلك الليلة علمَ جوناثان أن الغجر قادمون لتحرير باختو. لم يجد حلًّا إلا أن يفرَّ هاربًا هو ومَن معه. كانوا في اجتماع يفكرون بلا أمل فيما يمكن أن يُعيد أمور المدينة إلى نِصابها التي يريدونها. وها هو الآن يقبع هو وعدد من أبناء الطائر الأسود في شقة مهملة، في أطراف الحي الثاني، يتوارون خشية ممن عرفوا حقيقتهم، ومن الغجر الذين لن ينسوا المذبحة.

ليس هناك من طريق بلا نهاية، ثمة نهاية تلوح أماراتها في أول الدرب، وثمة نهايات مُفاجِئة، وصادمة على نحو يثير الرعب الذي حين يتملك الإنسان يفقد ما يُمكّنه من أن يرى حتى موضع خطوته القادمة، رغم أنها مسافة ضئيلة، مسافة لا تستحق العناء. حين انضم جوناثان إلى جماعة أبناء الطائر الأسود، ثم لمس أثرهم القوي فيما بعد، لم يكن له أن يرى ما يُشير إلى النهاية، كان ذكيًّا وغبيًّا في الوقت نفسه، ذكيًّا في استثمار منطقة داخلية عند أناس المدينة، أخذ العطب يجتاحها على مدار كثير من السنين، وكان غبيًّا

في أنه ارتهن إلى يقين بلا عينين. إن كنت تقف على رصيف شارع لا بنايات في طرفه، وبالتالي أمنتَ إن وقع زلزال أن لا شيء سيسقط على رأسك، فأنت لا ترى، يكفي أن تنحرف سيارة عن مسارها، والأرض تهتز، فتخسر رهانك الخاطئ. وإن رأيت البحر من وراء زجاج نافذتك، فهذا ليس كل البحر. إن أشرعتَ النافذة فستراه أكثر وضوحًا، وإن رأيته فعليك أن تعرف أنك لم تره جليًّا بشكل مطلق.

حين استعاد جوناثان ما دُفع إليه منذ اليوم الأول للوباء، وجد أنه ارتكب أخطاء كثيرة، وحماقات هشمت كل ما كانوا يحلمون به، إذ ندم على تصفية الدكتور أدهم، وعلى اغتيال العمدة. ندم على أنه لم يُنهِ حياة باختو حين لم يُفرج عن أي معلومة مما أراد أبناء الطائر الأسود، وندم على أنه لم يهشم الناي. وإضافة إلى كل ذلك الندم القاسي، شعر بأن دماغه على مقربة من الانفجار كلما تذكّر كيف صار الغجر يحكمون المدينة. وجدها فكرة لم يطرحها حتى الشعراء الذين يكرههم أبناء الطائر الأسود، ولم يكتبها روائي. إنها فكرة صادمة، صادمة جدًّا.

اعترف جوناثان لمن كانوا معه بتعجله، وبقراراته الخاطئة، فتصفية الدكتور أدهم كانت البداية لخروج الناس عن صمتهم الذي لم يكن له أن يصل إلى هذا الحد لولا الاشتغال طويل المدى عبر كل تلك السنين. أما اغتيال العمدة، فكان إصبعًا نكشت ما تبقى من طين يسد عش الدبابير، فبات الحال أصعب مما يمكن السيطرة عليه. أصبحت كل إجراءات تبديد الاحتقان عند الناس، لا تُجدي

نفعًا، فحدث الانفجار الذي حذّر منه كثيرون ممن ينظرون عميقًا إلى حال المدينة.

لكن هل يستسلم جوناثان وجماعته؟! لقد قرر أن يتشبث بآخر ما تبقى لديه من أمل، إذ رأى أن يتعاون أبناء الطائر الأسود مع عصابات طفت على السطح بعد أن آلَ حال المدينة إلى الفوضى. كان لا بد من مَخرج يُجنبهم النهاية. لم يجد قرار جوناثان ترحيبًا ممن كانوا معه، رأوه قرارًا أحمق، يُضاف إلى قراراته السابقة التي كانت سببًا في سقوط مدينة الجد الأول، وها هي الآن تُحكم من قِبل غجري لم يعشْ إلا في خيمة في أطراف المدينة. لكن حين تُغلق الطرق لا بد من المضيّ في طريق يعلم من اختارها أن في نهايتها هاوية، لهذا التقى أبناء الطائر الأسود بثلاثة من زعماء العصابات، وقرروا ما يمكن فعله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢

لم ينخرط باختو بما كان يعمل عليه والده وفايد وتوليب، لإدارة شئون مدينة الجد الأول. اهتم فايد بإعادة تشكيل الشرطة، واختيار جنرال قادر على هذه المهمة لتحقيق الأمن. أما توليب، ففضّلت أن تبقى مستشارة للعمدة. رأت أن مهمة انتشار الشرطة من جديد ستؤدي إلى إعادة إحياء القطاعات الصحية والتعليمية والصناعية وقطاع الاتصالات.

خلال تلك الأيام عزف باختو في الحي الرابع، فشُفي الناس من وباء كان يذهب بهم نحو الموت بلا رحمة، لكنه في الليلة التالية لم يستطع أن يذهب إلى بقية الأحياء، فقد مرض؛ إذ خارت قواه وانتابته الحمى. استعانوا بأمهر الأطباء، واستردوا له قليلًا من طاقته، رغم أنهم لم يصلوا إلى مُسبب صحي لما هو فيه، إلا أنه ظل صامتًا. إنه الصمت ذاته الذي كان يسيطر عليه عندما كان في مخيم الغجر، والطباع الغريبة ذاتها التي بذلت أمه وقتًا طويلًا ليتجنبها، لكنها فشلت، حتى حين عمل في المدينة. عندما رأته يوم تحريره من سجنه وجدته شخصًا آخر بطباع كثيرًا ما تمنت أن تتوفر فيه،

والآن يُصاب بانتكاسة أوجعت أمه وأباه وتوليب، وتقف عائقًا بينه وبين أحياء تنتظر الشفاء.

حين قرعت توليب الباب، كان باختو في غرفة لم يألفها في القصر العُمودي، مُستلقيًا على السرير، ينظر عبر النافذة نحو شوارع الحي الأول، وهو يرى الجدَّ يتجول في المدينة. كان يراه دومًا في غرفته وفي الشارع وبين الناس، يراه حتى في مناماته، حزينًا وآسفًا، يتملكه الخوف ذاته الذي شعر به باختو مليًّا حين قرأ مخطوطه. في لحظات كثيرة اختلط الأمر عليه، هل ما يراه حقيقة؟ أم مجرد تصورات خيالية، هل فقدَ عقله؟

عندما جلست توليب على طرف السرير، لم تجد باختو الذي لمعت عيناه بألق واضح، حين باحت له بما في قلبها من حب. كان حزينًا، تمامًا مثل رسام فقدَ ذراعه قبل أن يُنهي لوحته الحلم. أمضت وقتًا تحاول أن تزيل من روحه تلك الغمامة الرمادية، إذ اقتربت منه واحتضنت يده بين يديها، وراحت تُحدثه عن اللحظة الفاصلة في حياتها حين التقت به، وعن رحلته الشاقة للبحث عن الناي، وعن ذلك الحِمل الثقيل في مداواة المدينة من الوباء. كان ينظر في عينيها، ووجهها قريب من وجهه، فنال القُبلة الأولى، نالها بشغف عاطفي كان مؤجلًا، ولاذَ بحضنها كأنه يهرب من عاصفة وشيكة. قال لها، بصوت مَن لم يتحدث منذ أيام: **ربما يتساءل البعض كيف لناي أن يُجنب مدينة مصيرًا كارثيًّا مثل هذا، لكن الذي لم يخطر ببال أحد، هو أن ما فعله الناي مجرد أمر مؤقت،**

مع الأيام يتلاشى أثره، فتعود المدينة إلى سابق عهدها، هكذا قال الجد الأول في مخطوطه.

تمنى في قرارة نفسه لو يخبرها أنه يرى الجد الأول منذ أن عاد من الجبل. ضمها إلى صدره أكثر من ذي قبل: بُليتُ بحِمل ثقيل جدًّا يا توليب. طوقت عنقه بذراعيها وهي تنصت له: أتذكر تلك السنة التي أصيب فيها مخيم الغجر بالكوليرا؟ كان يعج بالقاذورات، وبالمياه العادمة، وبروائح مكب النفايات، وبكل ما يمكن أن يؤدي إلى ما هو أخطر من مرض حصد مئات الأرواح، من غير أن يرف جفن لمن يديرون شئون المدينة، إلا حينما تعالى صوت مؤسسات حقوق الإنسان، فأوقفوا سيل الموت الهادر. أومن أن هذا الوباء الذي يستبيح المدينة الآن، لم يأتِ من فراغ، وأومن أكثر عندما أستعيد ما قاله الجد في مخطوطه: إن أشد الأوبئة فتكًا هي التي تأتي جراء أوساخ معنوية تتشكل في دواخل الإنسان منذ وعيه الأول. أمضت توليب ليلتها بقرب باختو، ولم تغادر غرفته إلا حين استسلم للنوم. أدركت سرَّ تعبه الخفي وخوفه، وما يحيق بروحه التي لا تُشبهها روح أخرى.

في الأيام القليلة التي أعقبت تنصيب شاندور عمدة، طرأ على حال الناس شيء من التغيير، صاروا أكثر تفاؤلًا مما مضى، ليس فقط لأن باختو حمل ناي الجد الأول وأطلق معزوفته في أحياء المدينة، بل أيضًا لقناعتهم بأن العمدة الجديد خارج ما يعرفونه من حسابات، وبالتالي إن بقي في منصبه، فسيشهدون أيامًا أفضل

بكثير من سابقاتها. قال واحد من كُتاب المدينة في زاويته الصحفية: **لا يمكنني أن أُسمّي ما حدث للمدينة انقلابًا، بل إنقاذًا لها في مرحلة كادت أن تتهاوى فيها نهائيًّا. لو عاد الزمن إلى الوراء، وطُرِح عليَّ السؤال الذي يتطرق لفكرة أن يحكم الغجر مدينة الجد الأول، حتمًا سأقول إن هذه مجرد فكرة شعرية لا أكثر. حتى ما يقوم به باختو، يبدو لي أمرًا لا يخرج عن إطار الوعي الشعري. لكن الذي بات عندي قابلًا للتصديق أمام فداحة الواقع، أن الشعر هو الحقيقة لا غير.**

أصاب الحزن شاندور، فقد عاد باختو إلى ما كان عليه من سلوك مبهم، وبالتالي ستتزايد حالات الانتحار في أحياء لم يعزف فيها، فالأحياء الثاني والرابع والسابع لا تزال غارقة فيما يؤدي إليه الوباء. خطر ببال توليب كثير من الحلول لتتجاوز المدينة حالها، خاصة حين علمت أن أثر الناي مؤقت. طرحت على العمدة عدة مقترحات، وأنفقت وقتًا تشرحها له، وتحاول جاهدة إقناعه بها. حدث ذلك في اجتماع، بالإضافة إليها، ضمَّ فايد وعددًا من مسئولي إدارة العمودية الجدد.

اقترحت توليب أن يقتصر استخدام الإنترنت على المهام الضرورية، فلا وسائل تواصل اجتماعي، ولا تطبيقات تعتمد على المراسلات بين المستخدمين، ليصير الهاتف النقال مجرد أداة للاتصال فقط. كانت تعي أن قرارًا مثل هذا سيؤدي إلى خسائر فادحة في شركات الهواتف، بعدما تجدد الأمل لديهم

حين شُفي عدد من الأحياء من ذلك الوباء، وهذا بطبيعة الحال سيجعل شاندور في خطورة أكثر من ذي قبل، لكن الإدارة الجديدة للعمودية ستشدد الحراسة عليه، وتتخذ إجراءات أمنية أكثر صرامة في المدينة. كانت تسعى إلى تهيئة الحدائق العامة والمرافق الرياضية ودور الثقافة وسوق الكتب. رأت أن من الضروري سَن قوانين جديدة للحريات، ولكل ما كان له أن يخلق النزاعات، إضافة إلى سَنِّ تلك القوانين، على العمودية أن تجد آلية جادة في تطبيقها. لقد وضعت توليب تصورًا مختلفًا لمدينة الجد الأول. قال لها باختو حين أخبرته بما تفكر فيه: **لا يمكن لكِ أن تصنعي الفضيلة بهذا الشكل.**

مع هذا يُعد الذي فعله شاندور أكثر جنونًا مما طرحته عليه توليب، إذ أمر من دون أن يستشير أحدًا بأن يُدعى كل سكان المدينة إلى أضخم حفل فني، من غير أن يُفصح عمن سيغني فيه. توقعت توليب أنه سيدعو نوَّار لذلك الحفل، وحين أخبرته بذلك لم يقل شيئًا. ثمة تبدلٌ مفاجئ طرأ على سلوكه، لا تعرف له سببًا. **أريد حفلًا فنيًّا، بكامل تجهيزاته، ينضم إليه الجميع.** قال شاندور ذلك ثم التزم الصمت وهو ينظر إلى فايد وتوليب وعدد من مسئولي إدارة العمودية. **أريد أن يكون هذا الحفل في تلك المنطقة التي تفصل مخيم الغجر عن المدينة.** كان الجميع ينظر بعضهم في وجوه بعض، غير مصدقين ما تفوّه به العمدة. قالت توليب: **إن ما تطلبه أمر مستحيل، هذه المنطقة تعجّ بالنفايات.**

ترك شاندور الطاولة بخطوات منضبطة، وقد بدا كعمدة مُتمرس، بل صارم في قراراته، وواثق منها: **ألم يكن من المستحيل أن يحكم غجري مدينة الجد الأول؟** قالت توليب بما يشبه صراخًا مفاجئًا، لشخص لم يفكر فيما قال: **يمكن للمزمار والطبل أن يجمعا كل الغجر، لكن كيف لك أن تفعل ذلك مع هذه المدينة؟** حدق شاندور إليها غاضبًا، يعتريه شيء من الخذلان والعتب: **يبدو لي أن هذه شتيمة يا توليب، شتيمة مَن ألَّفها أراد أن يُرسخ صورة الغجري الكسول في ذهن الناس.** قال فايد وكأنه يحاول تدارك الأمر: **سنفعل ما تريد أيها العمدة.** عند الباب التفت إليهم قبل أن يغادر: **أخبِروا الناس أن وباءً جديدًا، نتج عما أصيبوا به، قد تعرض له عدد من الأشخاص فأنهى حياتهم على الفور، فليخرجوا منها ولو لليلة واحدة.**

غادر الجميع وبقيت توليب تفكر في تلك السقطة التي وقعت فيها، إذ وجدت فيما قالته تقليلًا غير مقصود من شأن الغجر. فكرت فيما يريده شاندور، وتساءلت عن جدوى إقامة حفل فني في أي ظروف مثل تلك، وهل يكفي ما قاله ليغادر معظم الناس المدينة، إلا أنها لم تجد سوى أن تعتمد على الإشاعة. استعانت بفايد ووضعا خطة بمختلف الوسائل والطرق ليشعر الناس بالرعب، وبالتالي يخرجون من المدينة؛ فقد أيقنا أخيرًا أن وراء ما طلبه شاندور حِكمة ما.

٣

لم يكن من السهل أن تُنَفَّذَ رغبة العمدة وقد أخذت شكل الأمر الصارم على نحو استغربته توليب، فالمنطقة التي تفصل بين مدينة الجد الأول ومخيم الغجر تحولت مع الزمن إلى موطن للنفايات الصناعية والكيماوية والقمامة، فكلما حامت نسمة هواء ارتطمت الروائح بأنوف الغجر، فتُشوّش بعضهم، وتصيب أبخرتها آخرين بأمراض تظهر أعراضُها بعد زمن.

مع هذا نُفِّذ ما أراده العمدة، وتحققت رغبته كما طلب تمامًا. والحقيقة أن فايد بقي لأسبوع يشرف على فِرقٍ عملت على تهيئة مكان الحفل، إذ استعان بخبراء كانوا قديمًا قد تقدموا باقتراحات علمية لأجل تلك المنطقة، في البدء تجاوبت عمودية المدينة معهم، وخصصوا مساحة بعيدة، وعملوا على تهيئتها، لكن قرارًا مفاجئًا أوقف ما اقترحوه، لهذا عادوا إلى مقترحهم القديم حين طلب فايد منهم أن يجدوا حلًّا لتلك المكرهة الصحية، فتعاملوا مع تلك النفايات بما لا يجعل لها ضررًا على أحد، رغم أنه تعاملٌ كلف

العمودية كثيرًا من المال والعمل الشاق، وكانت نتيجته أن سُويت المنطقة تمامًا، وشُيد عليها مسرح من الخشب، عريض ومرتفع، يسقط عليه ضوء ساطع، مثله مثل كل ما يصدر عن مصابيح كهربائية نصبت حول مكان الحفل، واعتلت رؤوس أعمدة عالية تراجعت العتمة أمامها لمسافات بعيدة. نُصبت على جهات المكان الأربع مكبرات صوت ذات طاقة عالية. عُبِّدت إليه طريقان؛ واحدة من جهة مخيم الغجر، والثانية من جهة المدينة.

عند مساء ليلة الخميس كان الغجر أول الواصلين إلى الحفل، فقد أرسل شاندور عددًا من رجاله، وأبلغهم بضرورة تواجدهم الكامل. أتت الحافلات من المدينة تباعًا، إذ بذلت توليب، هي وفريق لأجل تلك المهمة الكبيرة، جهدًا مُضنيًا لإقناع الناس بحضور الحفل، معتمدين على مقترح شاندور. دفع الخوفُ سكان المدينة لمغادرتها، من دون أن يعرف أحدٌ ما يدور في بال العمدة. صحيح أنه أنهى تلك الحدود الكريهة بين مخيم الغجر والمدينة، وها هو سيُقيم حفلًا فنيًا مكانها، لكن من المؤكد أن هناك أمرًا آخر. هكذا كانت تفكر توليب طوال تلك الأيام السبعة التي مضت، وكان فيها باختو طريح الفراش، لا يعلم ماذا يجري خارج مدينة الجد الأول، لكنها لم تنتبه إلى أن الأمر مُتعلق أيضًا بشاندور الذي يرى كل شيء عبر الموسيقى، فأراد أن يقدم نفسه لهم، بطريقته الخاصة، لعل شيئًا من الاطمئنان يصيبهم، ولم يخطر ببالها أنه أراد لباختو أن يعزف لمن لم يُشفوا من الوباء.

عند مغيب الشمس فاضت تلك المنطقة الشاسعة بالغجر، وبمعظم أناس مدينة الجد الأول. كانت أصوات حديثهم وهمسهم وتمتماتهم وململتهم تُحدث جلبة كبيرة، بينما الأجساد متلاصقة تمامًا، منهم من ينظر إلى المسرح، يترقب من سيصعد إليه، ومنهم من هو منشغل بالتفكير بذلك الخروج من المدينة تبعًا لنصيحة المنابر الإعلامية. بدت وجوه الذين شُفوا من الوباء مبتهجة، بينما وجوه المصابين به حزينة، وفيها الكثير من الشعور بالخوف والتشتت.

تراجعت الأصوات حين فوجئ الناس بالعمدة يطل عليهم من المسرح، حاملًا كمنجته، ويعزف افتتاحية لإحدى أغنيات نوَّار. كان مشهدًا صادمًا، ومفرحًا في الآن نفسه للجميع. لم تُدرك توليب ما مقصد العمدة، حين رأته يوغل في العزف، بينما الناس يُرددون صيحات ابتهاج، وغبطة بما يرون ويسمعون. وما هي إلا لحظات حتى خرج نوَّار من بوابة المسرح مبتسمًا. وقف أمام الميكروفون، ثم أشار بيده للناس أن يصمتوا: **ما سأقوله لكم الآن، هو ما وجده باختو في مخطوط الجد الأول. لا مناص لكم مما أنتم فيه إلا العودة إلى الأصل.**

في الحقيقة زار باختو نوَّار، أخبره عن مكان المخطوط وعما فيه، وتحدث إليه عن مخاوفه وهواجسه. لم يفهم الناس ما يتحدث عنه نوَّار. تعالت الأصوات متسائلة، فأشار لهم بأن يصمتوا: **ستطبع العمودية مخطوط جدكم الذي أخفي عنكم لزمن**

طويل، وستُدركون حين تقرؤونه، **أن الأصل الذي يقصده الجد ربما هي البداية التي كنا فيها بشرًا لا يغلب سوادُنا بياضَنا**. بقي ما سمعه الناس غامضًا. وتمنوا لو أن نوَّار استفاض في حديثه، لكنه عاد إلى الوراء وتبعه شاندور، وما هي إلا ثوانٍ حتى خرج باختو إلى المسرح.

خفتت الأصوات حين رأى الناس باختو يقف أمام الميكروفون، ويُخرج من حقيبته الناي. كان يتمتم في سره وهو ينظر إلى كل تلك الجموع البشرية الهائلة: **ما كان لهذا المشهد أن يكون لولا الوباء.** قرَّب الناي من فمه، وهو يرى الجد الأول يتجول بين الناس، عاقدًا يديه وراء ظهره، وينظر في وجوههم. صرخ بصوت فيه حزن ودهشة ورهبة: **هل ترونه؟ إنه يتجول بينكم، يراكم ولا ترونه!** لم يفهم أحد عمن يتحدث باختو. صرخ من جديد، والناي لا يزال قرب فمه: **أرجوكم انظروا حولكم، ألا ترونه؟** أخذ الناس يتلفتون حولهم، فتعالت الأصوات المستغربة، واعتراهم الخوف وهم يرون ملامح باختو المتوسلة، وراحت الفوضى تدب في المكان، حينها عبّأ باختو رئتيه بالهواء، وتهيأ لينفخ في الناي، لكن صوت رصاصة دوَّت في المكان، أصابت شاندور بين عينيه. تعالى الصراخ ودبت الفوضى. رأى باختو جوناثان برفقة أعداد كبيرة من رجال مسلحين، يهجمون على الحفل ويُطلقون رصاصًا غزيرًا في كل الاتجاهات. إنهم أفراد العصابات الذين عقد معهم جوناثان اتفاقًا على اغتيال العمدة، واغتيال باختو، واستعادة المخطوط والناي.

في تلك اللحظات المرعبة رأى باختو الجد الأول والجدة، يركضان بهمة المسن بين الناس، بعيون باكية يحاولان، كمن ثقبت بين يديه قِربة ماء، أن يسُدَّا الثقوب، يحاولان حجب الكارثة. في تلك الأثناء رأى باختو أيضًا عددًا من الرجال المسلحين يُسرعون نحوه. كان الجد الأول ينظر إليه بعينين متوسلتين، فتذكر ما قاله في مخطوطه، فأطلق المعزوفة الثانية.

ما إن لامست المعزوفة مسامع كل من كانوا هناك حتى أصابهم استسلام كامل، فسقطت البنادق من أيادي الرجال المسلحين، وراحت عيون الجميع تنظر إلى باختو بثبات ورسوخ، كأنها خاضعة لنقطة لا يمكن للبصر أن ينحرف عنها، بينما أفواههم مرتخية ونصف مفتوحة، وأياديهم مسبلة على طرفَي أجسادهم، إنه شكل عجيب من الخضوع الذي يتخلله إحساس واحد لا غير، إحساس بأن الحقيقة المبهجة في مكان قريب، مكان لا تحلق في سمائه طيور التيه، تلك الطيور التي يقاسي الإنسان خبط أجنحتها منذ توهمه فَهْمَ وجوده.

عندما هبط باختو عن المسرح، وسلكَ طريقه خارج الحفل، تبعه الجميع، لقد سُلبوا قدرتهم على التفكير بأي أمر آخر سوى المسير وراءه، وهو يطلق معزوفة جعلت حتى الطيور والحشرات والحيوانات والزواحف، تتبع خطواته نحو جبل الجد الأول، وقد غشت الأفق زرقة لا مثيل لها، زرقة آسرة، تفيض في الروح، وتمنحها سكينة هي في الأصل حلم بشري عتيق. في الحقيقة

كان باختو يتبع الجد الأول والجدة وهما يمضيان نحو الجبل، يتوكآن على عكازيهما، وفوقهما يحلق طائر أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة، لحظات لا يُسمع فيها سوى خبط جناحَي الطائر ووَقْع الأقدام والمعزوفة. كلما اقترب الناس من الجبل، يشتد الأفق زرقة، وتزداد السكينة.

في تلك الليلة أنفق باختو ساعات يتبع الجد، والجدة، ووراءه يسير حتى من كانوا في المدينة، متخلفين عن الحفل، إلى أن وصل قمة الجبل الأول، وقد استحالت سماؤه إلى زرقة مضيئة. تزاحم الناس بصمت على سفح الجبل ومنحدراته، وعلى قمته، فكسوه، وعيونهم على باختو، كأنهم ينتظرون شيئًا ما. توقف باختو عن العزف وانتصب واقفًا ينظر إلى كل تلك الأعداد الغفيرة، لا يطاله تعب المسافة وشقاؤها. عن يمينه الجد، وعن شماله جدة المدينة، تغمره الغبطة وصفاء يزمل روحه المضيئة.

حين تلاشت المعزوفة، أخذت زرقة السماء تتراجع تدريجيًّا. في البداية شعر الناس أن غبشًا راحِ ينقشع عن عيونهم شيئًا فشيئًا، كأنهم يستفيقون من نوم عميق. صاروا يتلفتون حولهم، يحاولون فهم سبب وجودهم في جبل الجد الأول، مع ذلك العدد الضخم، المتزاحم من الناس. حين نظر بعضهم إلى الوراء وجدوا الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات، قد جاءت هي الأخرى إلى الجبل، فاستعصى عليهم فهم ما هم عليه.

تلاشى أثر المعزوفة، وصُدم الجميع بأن كيف قطعوا كل تلك المسافة إلى الجبل، ولم يشعروا بها، ولا حتى بالتعب! لم يكن

لعقولهم القدرة على استيعاب ما جرى، فكثير منهم اعتقدوا أنهم في عوالم النوم، وما هذا إلا كابوس غريب. تحولت الهمهمات إلى أصوات خفيضة متسائلة، وانبثقت من تلك الأصوات، أصوات عالية، فيها الكثير من الفزع، والبحث عن إجابة لتساؤلاتهم.

كان باختو يراقب ما يحدث بمشاعر متشابكة، فالذين كانوا أمامه ليسوا هم أولئك الذين انصاعوا للمعزوفة، وعبروا كل تلك المسافة بخفة متناهية، صامتين متآلفين، بل عادوا إلى ما كانوا عليه قبل الوباء، فقد أُشيع بينهم، وبسرعة، أن شخصًا ما قد سحرهم، وجاء بهم إلى جبل الجد الأول الذي تجنبوه لزمن طويل، وبالتالي فإن مصيرهم الهلاك على يد كائنات غريبة مخيفة تستوطن الجبل، كثيرًا ما سمعوا عنها. اتسعت دائرة الاتهام، وقيل إن ذلك الشخص من أبناء الحي السابع، بينما قال آخرون إن مَن فعل ذلك مُشعوِذ غجري انتقم من سكان المدينة بطريقته الغريبة هذه، وألا سبيل للعودة إلى أحيائهم.

اشتعلت نار البغضاء بينهم بسرعة، اشتبكوا بالأيدي، ثم تراشقوا بالحجارة، فسالت الدماء، وتعالت الصرخات التي خالطها العويل. في تلك الأثناء جاء من الأفق عدد كبير من الطيور السوداء، طيور لم تُرَ إلا حينما اقتربت من الجبل، ثم تبعها عدد مماثل لها من الطيور البيض. أخذت كل تلك الطيور تُحلق بشكل دائري فوق رؤوس الناس الغارقين في الاقتتال، وتخبط بأجنحتها بقوة لافتة.

في تلك اللحظات التي حسبها في بادئ الأمر منامًا، فقدَ باختو قدرته على الكلام، وغرق في بكاء صامت، بعد أن ما عاد يرى لا الجد الأول ولا الجدة. من بين الجموع المتناحرة رأى توليب تشق إليه طريقها بصعوبة بالغة، وتقف إلى جانبه. كانت الطيور لا تزال تخبط أجنحتها حين حدّق باختو من وراء ظلال دموعه إلى الناي وهو بين يديه، رأى زمانًا ليس كمثل ذلك الزمان الذي عاشه. ارتعشت روحه خوفًا مما رأى، رفع الناي نحو فمه لينفخ فيه، لكنه رأى طائرًا أبيض بين عينيه نقطة زرقاء مضيئة يحلق فوق رؤوس الناس، فانفضّت الاشتباكات، وأُصيب من كانوا في الجبل بصمت متسائل، وراحوا يحدقون إلى السماء، والطائر الأبيض فوقهم لا يزال يحلق بهدوء، إلى أن طار نحو مدينة الجد الأول، حينها تبعوه بهمّة ضعيفة ورؤوس محنية، عبر الظلمة وهي تبتلع تلك الكُتل البشرية، بينما باختو وتوليب يقفان على رأس جبل الجد الأول عاريَين، ليس في جعبتيهما شيء سوى ناي قيل إنه مَنذُور لزمن قادم.

- تمت -

مكتبة
t.me/soramnqraa

معزوفة اليوم السابع

في أحد الصباحات الربيعية من عام ٢٠١٢م، وأنا أنتظر حافلة تقلني إلى عملي، شاهدتُ شابًّا غجريًّا، يكنسُ الشارع على أنغام موسيقى تصدر عن هاتف نقَّال مُعلق في خاصرته، يقفز بحركات رشيقة، والمكنسة بين يديه طيِّعة كأنها امرأة يراقصها، وفي لحظة تقمص متقنةٍ تتحول إلى بندقية يصوِّبها نحو أعداء مفترضين. اعتدت رؤية الغجري، ونشأتْ بيننا صداقة صامتة لا يتخللها سوى تحيات خاطفة.

في أحد صباحات الشتاء الباردة، لم أجد ذلك الشاب، لكني سمعت أنينه وهو يتوارى وراء جدارٍ. قبل أن أغادر خلعتُ معطفي ودثرته به، دون أن أدري أن حاجياتي صارت بحوزته. عند المساء وجدته بانتظاري يضع معطفي على يده ليعيده لي: لست مجنونًا، وليس بالضرورة أن يكون الغجري لصًّا كما يُشاع.

في تلك اللحظة وأنا أتأمل خيام الغجر وهي على طرف المدينة، ولدتْ فكرة هذه الرواية التي تحكي سيرة المصير الإنساني، وكيف يمكن للآدمي أن يكون وحشًا، وفي الآن نفسه حمَلًا وديعًا في مدينة مكونة من سبعة أحياء: جنوبها مُخيم كبير لغجرٍ مطرودين منها، وغربها جبل على قمته قبر جدها الأول، مدينة يُصاب سكانها بوباءٍ غريب؛ فتصبح على حافة الهاوية، حينها يأتي الخلاص من جهة غير متوقعة.

جلال برجس

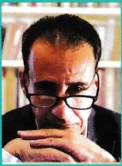

جلال برجس: شاعر وروائي أردني، نالَ عن روايته «دفاتر الوراق» الجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) ٢٠٢١. وصلت سيرته الروائية «نشيج الدودوك» للقائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد للكتاب ٢٠٢٣، ووصلت روايته «سيدات الحواس الخمس» إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٩، نال عن روايته «أفاعي النار» جائزة كتارا للرواية العربية ٢٠١٥، وفازت مجموعته القصصية «الزلزال» بجائزة روكس بن زائد العزيزي للإبداع ٢٠١٢.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الشروق
www.shorouk.com